عزيز نيسين

الإضراب الكبير

« قصص »



ترجمة

عبد الوهاب مدني

الوطنية الجديدة

الإضراب الكبير

* الإضراب الكبير «قصص»
* تأليف: عزيز نيسين
* **ترجمة: عبد الوهاب مدني**
* الطبعة الأولى ٢٠٠٧

الناشر:
الدار الوطنية الجديدة للنشر
سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٥٩٥٣
تلفاكس: ٢٢٤٨٥٦٠ ـ هاتف: ٤٤١٨٢٠٢

* العمليات الفنية: **مؤسسة سندباد**
سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٩٢٢٣ ـ بريد الكتروني: sindbad@scs-net.org

عزيز نيسين

الإضراب الكبير

« قصص »

ترجمة: عبد الوهاب مدني

الوطنية الجديدة

عنوان الكتاب بالتركية

AZIZ NESIN

BÜYÜK GREV

١ ـ رسالة إلى ضيفي الأخير

عذراً لاتداهمني وأنا نائم.. ولا تتسلسل كالضيوف الثقلاء فتلتصق بي وتتسمّر أمامي.. ولا تدعني أشعر بالانزعاج منك.. ذلك الشعور المزمن الذي علق بجلدي والتصق بروحي.

أتعلم أنني أنتظرك منذ أن وعيت هذه الحياة!... لذلك تعال باحترام وبما يليق بضيفٍ طال انتظاره كل هذه المدة، كي لا أفقد احترامي لك.

ليكن قدومك هادئاً دون صخب أو ضجيج!.. حتى لا يشعر أحد بقدومك ولا توقظ الناس من سباتهم وأحلامهم، يكفي أن أعرف وحدي وتعرف أنت أيضاً، تعال وليكن تصرفك كافياً لي. إن قدومك بصمت يلائم الحياة الصامتة التي عشتها طوال عمري! ستأتي من أجلي، لتأخذني، وليس من أجل إزعاج الآخرين.

لاتفاجئني وأنا نائم، حتى أقوم بواجبي في استقبال الضيف الحقيقي والأخير. والذي انتظرت قدومه طويلاً، دعني أقوم بما يمليه علي واجبي من حفاوة، فأقف على قدماي وقفة احترام، لأقول لك تفضل. وسأقدّم لك بنفسي وبإرادتي كل ما تريد أن تأخذه مني.

لاتحمّلني كثيراً من العذاب!.. فيكفيني ماعانيته طوال عمري!.. لقد تحملت ذلك بوجه ضاحك، ولم أترك مجالاً لأحد أن يشعر بمعاناتي.. تحملت أحزاني لوحدي، أما أفراحي فقد كنت أتقاسمها مع

الجميع، وهكذا أريد أن تكون نهايتي. أنا أعلم أنك صعب المراس، وأن رأسي الذي لم ينحني لأحد يمكن أن ينحني لك، لكن لا أريد أن ترغمني على ذلك..! ورغم قناعتي بأنك لا تعطي أماناً لأحد، إلا أنني أنتظر منك هذا العمل الشجاع. لا تدعني أطأطئ رأسي.. تعال بوجه بشوش، لأستقبلك بابتسامة.

لاتكمن لي ولا تفاجئني بضربة قوية من الخلف، بل احملني وخذني مباشرة. لأنني كنت واضحاً طوال عمري.. دعنا نتقابل وأنا أقف على قدماي كعادتي... وتعال إلي باحترام وهدوء، حتى أتمنى الذهاب معك، وليكن مجيئك متزامن مع وقت ذهابنا معاً نحن الاثنين. ولنكن موجودين، وغير موجودين، لا تدعني أنتظر، أسرع لكي ينتهي كل شيء في الحال.

إنك حقيقة مؤكدة، ولايمكن لأحد أن يخدعك، فأنت تعلم بأنني لم أشعر بالغيرة من أي مواطن طيلة عمري، لست لأنني طيب القلب، بل لأنني لم أشعر بأن أحداً منهم كان أكبر مني.. وأنت على معرفة بما فعلته، وماتصورت أن أفعله، ولم أقم بفعله بسبب وحشيته. وإذا كنتُ قد تأخرت عن القيام بجميع ما تصورته خلال فترة حياتي التي منحتني إياها، فقد كان ذنبي أنا، ولا دخل لأحد في ذلك. وإن عقابك الآن لي يكفيني، فهو أكبر عقاب لمن يشعر بوطأته.

دعنا نتقابل كأي شخصين يلتقيان للمرة الأولى والأخيرة.. ولكن لابد أولاً من تأمين هذه المقابلة. أين، ومتى، وكيف.. فكرت في بعض الأحيان أن أموت كالأبطال الذين لا يسقطون في معاركهم الأولى. والذين لايخرجون سالمين في معاركهم الأخيرة. فلتكن

مقابلتي معك، بمثابة معركتي الأخيرة.. وبما أن الحرب قد استمرت معي طوال حياتي، حتى خلتُ أنها حرب بلا نهاية، لذلك تعال في أي وقت تريده خلال هذه الحرب التي لا نهاية لها.. تعال بهدوء لكي أمدّ لك يدي، وأقول لك «مرحباً».

فكرت أحياناً في الحياة النباتية لكي أعمر طويلاً، وحتى أثناء فترة حياتي النباتية لم أكن أود معرفة وقت مجيئك. وأنا الآن لا أرغب في مجيئك أتظاهر بالشجاعة، إذا كنت ترغب..! تعال في الوقت الذي لا أتوقعك فيه أبداً، فلن تفاجئني، فأنت في عقلي وتفكيري. وداعاً.. تعال إنني أنتظرك بدون خوف.

لقد تصارعت معك طويلاً. سناً بسن، ورأساً لرأس، غُلبت مرات وتغلبت مرات، لذا فأنا أرغب في إعطاء روحي قدسية أكثر من أي شيء، بما يليق بي من شجاعة وأنا اقف على قدماي، وأنا أهديك إياها.. بدون تسليم..وعندما تأخذ قلم ذلك الإنسان المقهور.. هذا القلم الذي كان كالسيف المسلول أرفع يديك الاثنتين فوق رأسك احتراماً وخذني !.

احترم تلك الروح النظيفة التي حافظتُ على نظافتها طوال عمري، ولما كنت أحترمك فلم يسمع أحد مني كلمة تأفف، فأرجو أن لاترغمني على قولها الآن..

لا شجاعة ولا ثبات، تعال كما أنا عليه الآن... القلم في يدي، والورق والآلة الكاتبة أمامي.. تعال في مثل هذا الوقت.. ولافرق إذا جئت في الليل، أم في النهار، في الصيف، أم في الشتاء، فإن بابي وقلبي مشرعان لك! فلا تدعني استصغر نفسي، ألا استجدي أحداً

لكي أطلب منه ماءً.. ألم نتصارع كلانا بشجاعة.؟ إذن يحق لي أن أطلب منك هذا الطلب؟.. إذا كنت مصراً على التأفف. فدعني أقولها بيننا نحن الاثنين لكي لا يسمعنا أحد.

نحن نقف الآن وجهاً لوجه، كمصارعين أمضيا كل هذه السنين بدون أن يتوقفا عن الصراع. لقد كان صراعي أعظم من صراعك، لأنك تعرف مسبقاً أن نتيجة المعركة هي دوماً لصالحك، أما أنا فقد أدركت بأنني سأسقط مغلوباً في النهاية، ولكن رغم قناعتي هذه، فقد كنت أتصرف وكأنني لن أُغلب، وأهجم على من يود أن يصارعني. ربما يعتريني الخوف أحياناً.. أو أرغب الهرب.؟ ربما لكي أعيش أطول، أو لأعيش حياة أفضل، وأستمتع بهذا الجمال الذي يملأ وجه الأرض.. إلا أنني لن أتخلى عنك أبداً..

فكما عملت لأستحق الحياة، فدعني أستحق الموت، اعترف لي بهذا الحق. لقد بذلت جهدي في مواكبة ذلك الجمال، في هذا العالم الجديد، فلتكن مكافآتك لي، أن تأخذني إلى إحدى الجزر الجميلة والنائية وسط لمحيط، تلك الجزر المتناهية في الصغر لدرجة العدم.

تسألني ماذا فعلت؟.. أنا لم أحول الحجر إلى ذهب كما فعل كيميائيو القرون الوسطى... فأنا كيمائي حوَّلت دموعي إلى قهقهات أهديتها لهذا العالم.

تعال إلي أيها الموت، فأنا بانتظارك في سكون الليل.

○ ○ ○

٢ ـ ماذا سيفعلون بامتداد أصابعي من بعدي

سقط الحرف (هـ) من آلتي الكاتبة، الكادحة.. فتشت عنه في الغرفة فلم أجده. غضبت كثيراً لأنني كنت أكتب الحلقة الحادية عشر من المسلسل الإذاعي (أنا مدين لزوجتي بنجاحي)، وكانت هذه الحلقة تحتوي على كثير من أحرف الـ (هـ)، لذلك اضطررت إلى كتابة هذه الحلقة بدون حرف (هـ) ثم قمت بعد ذلك بإملاء تلك الفراغات بحرف الـ (هـ) بخط يدي.عندي آلتان كاتبتان جديدتان غيرها، إلا أنني أفضل هذه الآلة القديمة، لقد تعودنا على بعضنا فلم تعد مجرد آلة كاتبة فحسب، بل أصبحت جزءاً مني، فإذا فقد شيء منها أشعر وكأنني فقدت يدي أو إصبعي، أو أحد أعضائي..لم أعد أشعر بأنها آلة ميكانيكية، بعد أن تفاعلت معي، وأصبح وجودها عضوي. فعندما تتعطل آلتي الكاتبة، أتعطل أنا أيضاً، وأشعر بأن من واجبي أن أكون في عطلة. وأكبر مثال على ذلك هو ما حدث معي الآن عندما ضاع حرف الـ (هـ). لقد تولّد لدي إحساس بفقدانه، كما لو أن ضرسي قد انقلع، أو أن أصبعي قد جُرحت.

هذه الآلة هي أول حاجة اشتريتها بعد زواجي. ففي أحد أيام كانون الثاني عام ١٩٥٦. وقد كنت خارجاً حديثاً من السجن، ذهبت أنا وزوجتي إلى شارع الاستقلال فرأينا الآلة معروضة في واجهة أحد المحلات، أعجبتنا كثيراً فاشتريناها بالتقسيط.. وقد تعجبت كيف أن البائع لم يطلب مني كفالة في ذلك الحين.

إذن فأنا أعيش مع هذه الآلة منذ تسعة عشر عاماً، اعتدنا على بعضنا، تفهم كلامي، مطيعة تلبي جميع طلباتي، تقاسمني أفراحي وأحزاني، وجميع مشاعري. بالإضافة إلى أنها تعرف جميع أسراري التي لم يطلع عليها أحد. فقد كتبت جميع مشاعري بأصابعها الطويلة والرفيعة الواحدة والخمسين، هذه الأصابع التي كانت تحوي في رؤوسها حروفاً بدلاً عن الأظافر.

رفيقتي هذه تعرفني جيداً، وكأنها امتداد ليداي، ولايمكن أن يحل محلها آلة آخرى، حتى ولو كان عندي منها الكثير والأفضل من حيث الجودة والسهولة والسرعة. فأنا لا أستطيع أبداً مفارقتها. ولايمكن أن أفارقها لأنني سأشعر عندئذ بأنني وجهت الإهانة لنفسي.

ولكن وياللأسف فآلتي الكاتبة هرمت مثلي، اهترأت وأضحت قديمة. تمزق قماشها الأسود الذي كان يغطي قاعدتها الخشبية وتدلى من عدة أماكن. كما اهترأت مواقع أصابعي وبدأت تلمع، يقولون: حتى الحديد يمكن أن يفنى من كثرة الاستعمال. وهذا ما جرى لآلتي لقد اهترأت في التسعة عشر عاماً الأخيرة لاحترافي الكتابة منذ خمسة وثلاثين عاماً.. فياترى كم مرة لامست أصابعي معدن هذه الآلة حتى اهترأت بهذا الشكل؟...

لقد قامت آلتي هذه بمعظم أعمالي، ساعدتني، وعملت من أجلي كثيراً. ولا أقول أنني قمت مقابل ذلك بصيانتها والعناية بها. صنتها بالقدر الذي صنت به نفسي، لأنني لا أفرقها عن نفسي تعاملت معها تماماً كما تعاملت مع نفسي، حتى اهترأت، وأصبحت قديمة، لقد كانت تقوم مقام خمس آلات كاتبة بدون أن تتذمر.

كنت أشعر بالألم عندما أفارقها، وعلى الأخص عندما أذهب في إجازة أو رحلة خارجية، فقد كنت اشتاق إليها وأشعر بالحسرة، وينتابني شعور بأنها هي أيضاً قد اشتاقت لي.

كنت أغار عليها، وربما كان هذا الشعور غير مؤكداً. لأن عزائي الوحيد أنه لايمكن لأحد غيري استعمالها.. في حياتي، أو مماتي لأنها أصبحت قديمة واهترأت من كثرة الاستعمال.. بالإضافة إلى أنها أخذت بعض عاداتي. لذلك فلا يمكن لأحد أن يستعملها إذا لم يكن على معرفة بعاداتي الشخصية. وهي لم تعمل طيلة التسعة عشر عاماً من كفاحي تحت غمرة أي من أولئك الذين لا أصل ولافصل لهم، وكانت تبدي عناداً لايوصف، إذا حاول أحد غيري استعمالها.. أنا الوحيد من يعرف أسرارها.!

سأروي لكم بعض هذه الأسرار، من أجل كتابة إشارة الاستفهام مثلاً أضغط على حرف الفاصلة... كما أن اهتراء بعض الأحرف جعل من الصعب قراءتها، مثل أحرف (س) و (و) والإشارة (م) ومع ذلك كنت أستطيع إيجاد هذه الأحرف الممسوحة كما يجد الإنسان فمه أو أنفه بدون أن يراه، لقد تولد عندي إحساس خاص وأصبحت أجد هذه الأحرف بصورة لا دستورية.

أنا أدرك أن لا مكان لآلتي المنهكة عند غيري، فهي لن تجد من يرعاها بعدي! فلم يبق في شكلها سحراً يجذب الآخرين.. لن يستفيد أحد منها.. فهي على مقاسي ومناسبة لي تماماً.

حقوقها عليّ كثيرة، لا أستطيع إيفاءها. استثمرتها لأعلى درجات الاستثمار، فربحت منها كثيراً، واستطعت تأمين مستقبل

أطفالي وزوجتي، من خلال العمل عليها.

بقيت مدة أربعة أشهر في الخيمة، في فترة قيامنا بأعمال بناء وقف نسين، وكانت بجانبي دوماً ونعمل سوية أيضاً، وكنت أخشى من أن يقدم أحد اللصوص على سرقتها، رغم وجود أمتعة غنية في الخيمة. ولن أحزن فيما لو سرقت هذه الأشياء، لأنني أستطيع تعويضها بأشياء أخرى أجود وأجمل، ولكن دون أن تكون أفضل من هذه الآلة التي عملت عليها خلال التسعة عشر عاماً الأخيرة وتركت عليها بصماتي. فأنا لا يمكنني شراء هذا الماضي الذي عشته! ولايمكن أن أجد أجود وأجمل منها.. فعليها حرارة أصابعي، أفكاري، آلامي، أحاسيسي، ودمي الذي يسري في عروقها، لذلك كنت عندما أغادر الخيمة وأتركها.. كان أول عمل أقوم به بعد عودتي هو تفقد هذه الآلة فيما إذا كانت موجودة في مكانها أم لا؟.

بالأمس أرسلت رسالة إلى ابني قلت له فيها «لاتستغربوا بعد رحيلي فيما إذا سمعتم في أحد الأيام صوت الآلة الكاتبة ينبعث من غرفتي، ولا تندهشوا فيما إذا دخلتم الغرفة ووجدتم عليها ورقة تقوم بطباعتها».. هذا يعني أن آلتي الكاتبة ستتولى الكتابة عوضاً عني بعد رحيلي.. لأننا وبعد أن عملنا سوية كل هذه المدة، فقد أصبحت تعرفني جيداً وتعرف طريقة كتابتي. لذلك فهي تستطيع كتابة ما أود كتابته حتى ولو لم أكن موجوداً!... حتى أنها تستطيع أن تضع اسمي أسفل الكتابة وتوقع إذا رغبت!.. فتكتب «بالتفويض عن الكاتب.. الآلة الكاتبة».

هل أخبرتكم أن آلتي الكاتبة مطيعة؟.. نعم لقد كانت مطيعة جداً

في السنوات الأولى فكنت أكتب عليها كل ما أريده، أما في الآونة الأخيرة فقد أصبحت عنيدة وهي تزداد عناداً كلما تقدم بي العمر، فلم أعد باستطاعتي أن اكتب عليها كل ما أريده؟..

حتى أنها تحاول أن تلزمني في بعض الأحيان أن أكتب ما تريده هي، وكما أن بعض الحيوانات الأليفة «تكاد تتكلم» فآلتي تكاد أن تتكلم، وكنت أفهم وأحس بعنادها ورفضها وكأنها تقول لي «لقد هرمنا نحن الاثنين!.. كنت مضطراً لأن تكتب كثيراً عندما كنت شاباً، فقد كان لديك الوقت الكافي لكي تعيد أو تصلّح كتاباتك الرديئة، بأمل أن تكتب أفضل منها، وكان مهماً جداً ما كنت تكتبه وأنت شاب، ولكن لم يكن مهماً كيف كُتب!.. أما الآن فلم يعد الزمان زمانك، فلم تعد الأهمية لما كتبت، بل كيف كتبت، ولماذا لم تكتب، بل حتى لماذا سكت، فأنت مضطراً لدفع حساب ما كتبته وما لم تكتبه، لم يعد لك الحق بالكتابة الرديئة بعد أن هرمت».

كانت تقف فجأة أو تتعثر أثناء الكتابة في بعض الأحيان، فاشعر بأنها غير راضية عما أكتبه، كما كانت تصدر أصواتاً وكأنها بحاجة إلى (تزييت)، وتقف حائلاً أمام أصابعي، فيعلق الشريط وأتعذب كثيراً. كان تصرفها معي وكاأنها ناقد لاذع. أما إذا أحبت ما أكتبه فكانت تصدر أصواتاً وكأنها أصوات بيانو، وكنت لا أفرق وأنا عندما اضغط الحروف فيما إذا كنت أعزف أو أكتب، كانت تصدر صوتاً عند كل كتابة حرف، وترف بأجنحتها وكأنها تغرد عندما أنهي كتابة الكلمة. فنعيش نحن الاثنين في حالة من الفرح لا نريد أن تنتهي.

في أكثر الأحيان كنت أستمع إلى الموسيقى من مذياعي القديم،

عندما أكتب على الآلة الكاتبة أشعر وكأنني أعزف، لقد تعلّق كلانا بالموسيقى لدرجة أننا كنا نضبط الإيقاع.. فإذا كان إيقاع الموسيقى الصادر عن المذياع بطيئاً، كانت الآلة تعمل ببطء فاكتب وأنا أتمايل على الطرفين أما إذا كان الإيقاع سريعاً فكانت الآلة تعمل بسرعة، فأكتب عليها وأنا أقفز في مكاني. وحتى إذا كنت لا أرغب في متابعة الإيقاع الموسيقي السريع، فإنها ترغمني على ذلك..! وخشية من أن يرانا أحد ونحن تقفز أثناء الكتابة فيظن بأننا مجانين، كنت أغلق المذياع وأعود إلى وضعي الجدي، وتعود آلتي الكاتبة لجديتها أيضاً.

مسكين ذلك الحرف (هـ) لقد سقط وضاع، كم مرة سقطت الحروف منها وكم مرة تعطلّت!.. ولكن مهما كان الأمر لابد من صمودنا نحن الاثنين أمام القدم وأمام الاهتراء نكافح لكي نتابع مسيرتنا في هذه الحياة، وسوف نصر على تمسكنا بالكتابة الصحيحة والجميلة.

سآخذها غداً إلى التصليح.. هناك معلم ماهر آخذها إليه دوماً وهو يضحك كلما رآني ولسان حاله يقول: لقد اهترأت هذه الآلة كثيراً ولم تعد تستحق التصليح!..

ربما لم تكن مدة التسعة عشر عاماً التي عملت بها على هذه الآلة مدة طويلة. ولكنني عملت على هذه الآلة مايعادل عمل مائة وتسعون عاماً، لقد هرمت وكأنها في المائة والتسعين من عمرها. إيه.. وأنا الآن في الستين من عمري وأشعر أنني تجاوزتها بسنوات أيضاً؟.

كنت أقول للرجل المصلح عندما يسخر من آلتي القديمة نفس الكلام الذي كنت أقوله في كل مرة: لدي آلتان جديدتان.

سوف تتملك الغيرة هذه الآلة إذا كتبت على الآلات الجديدة، وتعتبر ذلك إهانة لها، ولما كنت لم أوجه إهانة لأحد طوال عمري لذلك فلم أعد أشعر بالرغبة في العمل على آلة جديدة.

عمر آلتي الكاتبة من عمر زواجي.. فكلما أخذتها للتصليح تنبري زوجتي قائلة:

ـ انظر حتى الآلة لم تعد تحتملك، فهي بحاجة إلى التصليح دوماً.

لقد تحمّلت هذه السيدة الكاتب الذي لم تتحمله الآلة الكاتبة.. زوجتي على حق لأنها زوجتي.

١٤ تشرين الأول ١٩٧٤.

○ ○ ○

٣ ـ لماذا عاش ذلك الميت ثلاث مرات ولم يعش في المرة الرابعة

هل قرأتم في الصحف خبر ذلك الشرطي المسكين الذي مات ثلاث مرات ثم عاش بعد كل مرة يموت فيها، ولكنه لم يعش بعدَ الميتة الرابعة!.. لو قرأتم ذلك الخبر فلا يعتبر أنكم اطلعتم على الحادثة، لأن الصحف لم تكتب خلفية ما حدث ولم تكتب ما وراء الخبر، أو الوجه الآخر لما جرى، لذلك سأروي لكم قصة هذا الشرطي بكل تفاصيلها.

كانت البلاد تعيش حالة طوارئ. مما اضطر هذا الشرطي للبقاء مناوباً لمدة أسبوع دون أن يتمكن من الذهاب إلى بيته، لم ينم سوى بضع ساعات طيلة هذا الأسبوع بدون أن يخلع ملابسه أو حذاءه.

كان هذا الشرطي، نشيطاً، ناجحاً، يحب وطنه كما يحب وظيفته، ويقوم بتنفيذ كل ما يطلبه رؤساؤه منه بدون أي نقاش، ولم يكن يخشى أية مهمة توكل إليه فأصبح محط إعجاب وثقة رؤسائه، لذلك كانوا يكلفونه بأصعب المهام.

ونظراً لبقائه أسبوعاً كاملاً على رأس عمله ليلاً، نهاراً، فقد مُنح إجازة يومين ليرتاح في بيته، وينام، ويقضي وقتاً طيباً مع أولاده الثلاثة. بنتان وولد. ويسترد قواه. ولكن لسوء الحظ لم يذق طعم الراحة في بيته، لأن إجازته كانت في نهاية الشهر، وراتبه شارف على النفاذ، فازدادت احتياجات البيت، فظل متوتر الأعصاب ويشعر بالضيق،

وبدون سبب يمكن أن يتشاجر مع زوجته، وهذا ما حصل لهذا الشرطي.

كان اليوم أحد، استيقظت الزوجة باكراً، وبدأت بأعمال المطبخ، استيقظ الأولاد بعد قليل وقالوا لأمهم بأنهم جائعون ويريدون أن يتناولوا طعام الإفطار، فقالت لهم انتظروا حتى يستيقظ والدكم من نومه لنتناول طعام الإفطار سوية.. ولكن مهما كان زوجها مرهقاً، فإنه ليس من عادته أن يتأخر في نومه. لذلك أرادت الزوجة إيقاظه فتحت باب غرفة النوم بكل هدوء. ولتنسي زوجها مشاجرتهما ليلة أمس واستهلال يومهما بالفرح والحب، اندست المسكينة بجانب زوجها النائم في سريره، ومدت يدها إلى صدره تداعبه، وحاولت تقبيله...

سمع الأولاد صراخ أمهم المفجع، لدرجة كادت عيونها أن تخرج من محاجرها.

مات الشرطي الموظف، وهذا يعني أن روحه قد خرجت من جسده، ولكنها لم تخرج من الغرفة بعد، ومع هذا كان يسمع نواح امرأة وعويل أولاده، لكنه لم يكن باستطاعته فعل أي شيء ليخفف عنهم. انتشر خبر الوفاة في أنحاء الحي فتوافد الجيران والأقارب والأصدقاء، وهب الجميع كالعادة لتقديم المساعدة، وأول ما قاموا به هو إبلاغ المختار وطبيب الدولة.

عندما تخرج روح الميت من جسده فهي تفارقه بعيداً، أما روح الشرطي فقد خرجت من جسده إلى الغرفة الموجود فيها، ومن الغرفة إلى المنزل، ثم إلى البلد ومنها إلى العالم الآخر، عالم الأرواح. كانت

روح الشرطي على يقين أنها ستدخل الجنة، فهي روح شرطي موظف أحب وظيفته وقام بأداء عمله على اكمل وجه. وفي الوقت الذي يفنى فيه جسد ذلك الشرطي في القبر وتأكله الديدان فإن روحه ستدخل الجنة لتعيش حياة أبدية، لذلك سلكت روح هذا الشرطي طريق الجنة. بعد أن تخلصت من بلاء الجاذبية الأرضية، ومن وزن ذلك الجسد، وبدأت تسبح وتطير بدون أن تستند إلى أي شيء.

ها هي الجنة!.. لقد رأى من بعيد أنوارها وبريقها الذي خطف الأبصار. الحور والملائكة سيطوفون حوله كراقصات باليه بحيرة البجع. فكرت روح الشرطي بأمر هذا التجمع الكبير للحور والملائكة وهل مسموح به في مثل هذه الأحوال الطارئة أم لا..! لكنه لم يتمكن من القيام بأي تصرف لتفريق هذه التجمعات، لأنه لم يتلق أية أوامر من رؤسائه.

وقفت روح الشرطي أمام باب الجنة.. ذلك المكان الوحيد الذي يمكن الدخول إليه بدون بطاقة دعوة، واليدان فارغتان.. وفيما كان يهم بدخول باب الجنة، ذي البواب الباهرة، تصدى له إنسان غليظ لا يشبه الملائكة وشده من يده وقال له بصوت غليظ.

ـ أنت.. إلى أين..؟

فأجابت روح الشرطي. بلا مبالاة وهي واثقة من نفسها..

ـ ما شأنك أنت!.. أنا سأدخل الجنة.. أليست الجنة هنا؟..

ـ إن أمثالك لا يدخلون إلى هنا.. لقد تم حجز مكان لك في الجحيم منذ زمن بعيد.. هيا اذهب من هنا.. جهنم على اليسار!..

دهشت روح الشرطي وقالت باستغراب

ـ أمان.. مستحيل.. لابدّ أن هناك خطأٌ ما!.. إنك تُشبّهني بإنسان آخر.

صرخ ذلك الشخص الغليظ، حاجب الجنة في وجهه قائلاً:

ـ وهل تظن أننا هنا في مديرية الأمن! حتى يكون هناك خطأ. هيا اخرج من هنا.

عندها صرخت روح الشرطي.

ـ ولكنني سأقدم بحقك شكوى!

ـ اذهب واشتكي لمن تريد ولاتنسى أن تهديهم سلامي!..

ـ لكنني سأشكوك إلى الله.

سمع الله صوته، فقال له:

ـ ممن تشتكي يا عبدي الشرطي؟..

ارتجفت روح الشرطي عند سماع صوت الحق، سمعت صوته دون أن تراه فقالت:

ـ يارب!.. لقد أطعت رؤسائي ونفذت جميع أوامرهم، لم أعص أية أوامر. طأطأت رأسي وقمت بكل ما طلب مني. ونفذت جميع المهمات على أكمل وجه.

سمعت الروح صوت الله ثانية

ـ نحن نعلم ذلك.

ـ لقد وضعت روحي على كفي، والموت نصب عيناي، ونفذت كل ما طلبه مني رؤسائي بدون أي نقصان.

ـ يا عبدي الشرطي وهذا نعلمه أيضاً.

حاولت روح الشرطي أن تشرح بالتفصيل كيف أنها أطاعت جميع القوانين والتعليمات ونفذتها بحذافيرها، وكيف أنها لم تعص أوامر أحد من رؤسائها، لكي تثبت أنها جديرة بدخول الجنة.

عندها علّتْ نبرة صوت الإله الرحيم وقال بحزم.

ـ ألم تضرب الطلاّب بالعصي بحجة أنهم يقومون بتجمعات وإضرابات؟.. أخذ الشرطي وضعية الاستعداد وهو يأمل بأن ينال رضى الله، فضرب نعليه ببعضهما بقوة ثم قال:

ـ نعم.. لقد أمرني رؤسائي بضربهم، فضربتهم.

ـ ألم تضرب العمال بالعصا بناء على رغبة أرباب العمل بحجة أنهم أضربوا عن العمل؟..

قالت روح الشرطي بفرح بعد أن ازداد أملها بدخول الجنة.

ـ نعم.. هكذا أراد رؤسائي، فنفذت ما طلبوه مني.

فسأله الله عز وجل.

ـ هل أطلقت النار على الشعب؟..

ـ لقد أمرني رؤسائي..

فقال الحق غاضباً:

ـ إن رؤساءك لن يدخلوا الجنة!..

قالت روح الشرطي متلعثمة:

ـ ولكن هكذا أمرني رؤسائي..

عندها تفضل الحق قائلاً:

ـ لقد وهبناك العقل، وأعطيناك الضمير، فلم تطعنا بل أطعت رؤساءك هيا إذن إلى جهنم، وليعط رؤساءك أوامرهم لكي يخرجوك من جهنم!..

جثت روح الشرطي على ركبتيها وبدأت بالتوسل والبكاء، وسقطت على الأرض مجهشة بالبكاء، وتبللت بالدموع من رأسها حتى أخمص قدميها، ثم تابعت توسلها قائلة:

ـ الآن فهمت الحقيقة يا ربي.. أنا مخطئة.. وأرجو أن تعطيني فرصة لأصحح جميع الأخطاء التي ارتكبتها!..

ناداه الله الغفور الرحيم.

ـ يا عبدي الشرطي.. أهبك فرصة العيش ثانية. هيا عد إلى الدنيا، واستعمل عقلك، واسمع صوت ضميرك، وأطعنا، ليكون مكانك في الجنة!..

عادت الروح إلى الشرطي الموظف وأعطي فرصة العيش ثانية، في نفس الوقت الذي دخل فيه طبيب البلدية إلى الغرفة لكي يفحص جسد الشرطي، ولو تأخرت الفرصة قليلاً، لأعطي طبيب البلدية تقرير (الوفاة)، وعندها سيأخذون الشرطي الموظف إلى المقبرة لدفنه. دبّت الحركة في جسد الشرطي الموظف، ففتح عينيه ثم سعل، كان السعال علامة دخول الروح إلى الجسد بالقوة. وحسب تشخيص طبيب البلدية، فإن ما حصل هو عبارة عن حالة إغماء أصابت الشرطي.

بعد عودة الشرطي الموظف إلى الحياة الدنيا، قرر أن يتصرف هذه المرة أثناء تنفيذه مهمات الشرطة بما يرضي الله، وان يستعمل عقله ويحكم ضميره. لكي يضمن دخول الجنة!..

فكان إذا قال له رؤساؤه:

ـ اقفز.. لم يعد يقفز. كما يقفز الكلب على الأرانب. وإذا قالوا له:

ـ اهجم.. كان يقف ويفكر، ويشاور عقله، ويستمع إلى صوت ضميره.

وإذا قالوا له:

ـ اضرب.. فكان يتصرف وفقاً للقوانين.

أصبح سجل هذا الشرطي سيئاً لأنه لم يطع رؤساءه كما كان يفعل من قبل، فنقل إلى منطقة نائية، ثم سرّح من سلك الشرطة. كل هذا لأنه استعمل عقله واستمع إلى ضميره، وأطاع القوانين، ولم يستطع قبض حقوقه التقاعدية، وأصبح يعيش في حالة من البؤس والحرمان، فأصابه المرض.. ونقل إلى المستشفى، وفي صباح أحد الأيام ذهبت الممرضة إلى الطبيب المناوب وأخبرته بأن الشرطي قد مات.

فارقت روح الشرطي جسده للمرة الثانية، وأصبحت حرة، ولما كانت على معرفة بطريقها، فقد طارت إلى العالم الآخر ووقفت أمام باب الجنة. لم يكن هناك شاب يشبه موظف التشريفات الذي يقف عند مدخل الفنادق السياحية، ليستقبل كبار الضيوف، كانت إحدى يديه خلف ظهره، وأشار باليد الأخرى إلى الباب بعد أن انحنى قليلاً ثم قال:

ـ تفضلوا.

وما أن دخلت روح الشرطي إلى الجنة حتى جثت على ركبتيها وبدأت تبكي وتقول.

ـ ياربي.. ياربي.

سمع صوت الحق الذي يرى ويسمع كل شيء يقول.

ـ يا عبدي الشرطي، لقد استحقيت الجنة، وأنت الآن من أصحاب النعيم، فتمتع بنعيم الجنة كما تريد.

بدأت روح الشرطي بالتوسل.

ـ يارب. أنت تعلم كل شيء. لقد تركت أولادي وزوجتي يعانون من الفاقة والحرمان لأنني لم أحصل حتى على رواتبي التقاعدية بعد أن طردت من الشرطة. فكيف سأتمتع بنعيم الجنة. إن الجنة ستكون جحيماً بالنسبة لي!..

تمنى الشرطي أن يمنح مهلة أخرى لكي يؤمن مستقبل أولاده ويضمن معيشتهم، وليمت بعد ذلك. فمنحه الله فرصة الحياة مرة أخرى، وهكذا عادت الروح التي خرجت من جسد الشرطي المسجى في المستشفى وعادت إليه الحياة من جديد، وعندما دخلت الممرضة مع الطبيب المناوب، كان الشرطي يسعل!.. بعد فترة تعافى وخرج من المستشفى. كان الشرطي قريباً يعمل في وظيفة محترمة، فقصده من أجل العودة إلى وظيفته من جديد. عاد إلى الوظيفة. وبدأ يمارس عمله هذه المرة بشكل يضمن له مستقبل أولاده ومعيشتهم. وبعد ذلك جاء أجله للمرة الثالثة وخرجت روحه من جسده، ورحلت إلى العالم الآخر. بعد أن شبعت من تلك الدنيا.

وبما أن روح الشرطي أصبحت على معرفة تامة بالطريق، فقد ذهبت فور خروجها من جسده ووقفت أمام باب الجنة، وعندما همت بدخولها، تصدى لها ذلك الشخص الغليظ، وكأنه ليس الشخص

الذي انحنى له في المرة السابقة فقال له:

ـ أنت.. إلى أين؟..

أجابت روح الشرطي

ـ لقد كنت هنا قبل ذلك، أنا عندي فيزا للدخول!..

صرخ حاجب الجنة قائلاً:

ـ هيا ارجع.

سمع الحق هذه المناقشة، ونادى روح الشرطي قائلاً:

ـ ياعبدي الشرطي. أنت الآن من أصحاب الجحيم!..

سجدت روح الشرطي وبدأت بالبكاء وهي تدافع عن نفسها.

سأله الحق:

ـ هل ارتشيت؟..أجابت روح الشرطي وهي ترتجف:

ـ من أجل تأمين معيشة أولادي.

ـ ألم ترغم الناس على دفع الأموال؟..

ـ ولكن.. أولادي.. زوجتي.

ـ ألم تقم بأعمال خارجة عن القانون؟..

ـ لقد كنت أفكر بهم.

أجهشت روح الشرطي في البكاء، ترى هل إذا طلبت فرصة أخرى، سيعطى مثل هذه الفرصة؟.

هذا الإله السميع العليم، القادر على كل شيء، علم بما يجول في خاطر الشرطي، فقال له: لقد منحناك فرصة العيش مرة أخرى.

عادت روح الشرطي إلى الجسد الذي خرجت منه.

بعد أن عاش الشرطي للمرة الثالثة. لم يعد يطع رؤساءه طاعة عمياء، ولم يعد يتقاضى أية رشاوى، أو أموال من أحد، ولم يستغل وظيفته، ولم يقم بأعمال خارجة عن القانون، فحكم عقله واستمع إلى صوت ضميره، ولكن ما الفائدة فقد طُرد من وظيفته، وبدأ يعاني مع وأولاده من جديد الفاقة والحرمان.

كل نفس ذائقة الموت، جاء أجل الشرطي ومات، وعندما خرجت روحه من جسده ذهبت إلى العالم الآخر ولم تحاول هذه المرة الدخول إلى الجنة بل كانت تغدو وتروح حائرة بين الجنة والنار.

الإله، الذي يرى ويسمع كل شيء، ويرى النملة السوداء، على الصخرة السوداء في ليلة حالكة السواد. رأى روح هذا الشرطي فسألها لماذا لم تدخل الجنة؟.. فمكانه جاهز، وتم حجز مكان جيد له!.. منزل على شاطئ البحر، وقريب من موقف حافلات النقل وبعيد عن الضجة.

قالت روح الشرطي بأنها تركت الأولاد بوضع أسوأ من ذي قبل وهم يعيشون في ظل الفاقة والحرمان.

تفضل الإله الغفور الرحيم قائلاً:

ـ إذن سنعطيك فرصة العيش مرة أخرى!.. عد إلى الحياة الدنيا وحسّن وضع العائلة والأولاد ثم عد إلى هنا ثانية.

أجابت روح الشرطي:

ـ إن لساني يعجز عن شكرك يا ربي، ولكنني لا أريد العودة ثانية إلى الحياة الدنيا!..

سأله الله عن السبب:

أجابت روح الشرطي قائلة:

ـ لقد أدركت أخيراً يا ربي.. أنه من المستحيل على الشرطي إرضاء رؤسائه، وربه، وزوجته بنفس الوقت، لابد أن يكون أحد هؤلاء الثلاثة غير راضٍ. وبما أنني الآن من أصحاب الجنة، فأرجو أن تفتح لي أبواب الجنة لكي أدخل، خيراً لي من أن أعود إلى الدنيا لأرتكب الجرائم.

دخلت روح الشرطي باب الجنة فعزفت لها الفرق الموسيقية. وفي هذه الأثناء كانت زوجة الشرطي تقف عند جسد زوجها تنتظر، ولم تكن تبكي هذه المرة كما كانت في المرات السابقة. حتى المعزّين كانوا يخففون عنها قائلين:

ـ لاداعي للحزن.. لابد يعيش ثانية.. لقد تعود علي الموت والحياة.

ولكن هذه المرة ذهب انتظارها سدىً، فلم تعد الروح إلى جسد زوجها. لأنه كما قال الشرطي المسكين لربه، إنه فقد أمله من إمكانية إرضاء كل من رؤسائه، وربه، وزوجته بنفس الوقت.

○ ○ ○

٤ ـ لماذا استقال الخضر عليه السلام من وظيفته

في قديم الزمان.. كان سيدنا الخضر يهب لنجدة الناس في البر والبحر والجو وحتى في المحاكم العسكرية، أو الذين يعيشون في حالة طوارئ.. أو في حالة ضيق، أو الذين لديهم مشاكل، وحتى البنات اللواتي تأخرن في زواجهن، أو النساء العاقرات، كان يجلب الفرح للبائسين، والشفاء للمرضى، كما يرشد المدين إلى طريقة يفي بها دينه.. كانت كل فتاة يتأخر زواجها تصرخ من أعماقها «أنقذني يا حضرة الخضر». كان يسمع نداءها ويهب لمساعدتها فتحل عقدة البنت ويأتيها ابن الحلال، وكل امرأة عاقر كانت تطلب العون من الخضر فينتفخ بطنها وتصبح حاملاً.. وأي مريض أو إنسان يتألم، يتوجع. بمجرد أن يقول: « أنقذني يا حضرة الخضر» فكان يهبط إليه الخضر من السماء أو يخرج من باطن الأرض، ويشفي المريض حتى وهو على فراش الموت، وكان يهب لنجدة كل محتاج بمجرد أن يقول أنجدني يا خضر. فيهب الخضر ليفرج الكروب، ويفتح الباب على من ضاقت به الأحوال، ويهب المحروم ويخفف عنه الصعوبات.

هكذا كان الخضر في قديم الزمان. أما الآن فلم يعد سيدنا الخضر يسمع أصوات الألم واستغاثة الملهوفين.. أغلق عينيه حتى لايرى الناس المسحوقين، وأغلق فمه حتى لا يلبي توسلات البشر. لماذا؟... لأن سيدنا الخضر استقال من وظيفته.

لذا فإننا سوف نشرح في درس التاريخ اليوم، لماذا استقال سيدنا الخضر!.. لقد جرت الحادثة كما يلي:

على سطح هذه الأرض، ومن بين ملايين الفتيات القاطنات عليها. هناك فتاة لها أنف طويل ومفلطح كثمرة القرع، حتى غطى فمها، وكانت هذه الفتاة المسكينة عندما تتكلم لايمكن فهم كلامها، لأن الكلام يخرج من فمها ليدخل مرة ثانية في ثقوب أنفها. ووجهها أيضاً مملوءٌ بالحبوب الكبيرة فأصبح شبيهاً بالخرائط النافرة. إضافة إلى أن مؤخرتها كانت قريبة من الأرض لدرجة أنها لم يبق مجالاً لسيقانها لتكون أطول مما هي عليه، كما أن أرجلها قصيرة ومقوسة أيضاً وأشبه بـ (الكلابة). فهي تسير بصعوبة من جراء هذا التقوّس، وصدرها أشبه بلوح الخشب ومؤخرتها أشبه بالبرميل، في عيونها حول، فلا يمكن معرفة الجهة التي تنظر بها إليك أو إلى أحد غيرك أو إلى السقف.. تجاوزت الثلاثين من عمرها منذ زمن طويل ولم تتزوج، ولكنها لم تقطع أملها من الزواج السعيد طالما أن هناك روح في الجسم ودم في الشرايين. وكنت تجد بين يديها بصورة دائمة المجلات والجرائد التي تحتوي على صور نجوم السينما وعارضات الأزياء، وملكات الغناء، فهي تعرف الحياة الخاصة لملكات الجمال بالتفصيل، وكانت تدعو وتتضرع كل يوم لربها فتقول:

«أنت أعظم يا ربي.. إنك تفعل ما تشاء.. أتوسل إليك أن تهبني مرادي لكي أصبح مكان ملكة جمال العالم.. فأنا لا أريد شيئاً آخر..».

على هذه الأرض أيضاً. كان رجل قزم. لايشبه الأقزام التي

يتناسب طولها مع أجسامها.. منظره يبعث الرعب في قلب كل من يراه، رأسه كالحصان وقدماه كخف الجمل، يمشي وكأنه ضفدعة ضخمة، همه الأول أن يصبح مكان الشاب الذي سيفوز ببطولة كمال الأجسام في العالم، لذا كان يبكي ويتوسل ليلاً نهاراً ويقول:

«يارب أنت أكبر من الجميع.. وأنا أعلم أنني أقبح إنسان على وجه الأرض. وأنت لايصعب عليك شيء، والمستحيل عندك سهل.. أريد أن أكون مكان الشاب الذي سيفوز ببطولة كمال الأجسام في العالم..»

وعلى سطح هذه الأرض. رجل أهبل، متخلف، عاطل عن العمل، شبيه بالقرد، يتعثر برجليه أثناء سيره، فمه مفتوح دائماً، وشفتاه غليظتان متدليتان لا يستطيع أن يطبقهما. هذا الرجل أيضاً كان يطمح في أن يكون مكان رئيس الجمهورية، ويتضرع ويدعو ربه ليل نهار ويقول:

«أيها الإله العظيم.. إنك قادر على كل شيء.. أرجو أن أكون مكان رئيس الجمهورية» وعلى سطح الأرض أيضاً امرأة سقطت في درب الرذيلة، وتشردت في الأزقة والشوارع، وباعت جسدها. كانت أكثر قرفاً من أي امرأة أخرى سلكت هذا الطريق، فقد كانت تمضي أوقاتها في النوادي الليلية، ومنها إلى بيوت الدعارة. كانت مصابة بالأمراض الزهرية. هذه المسكينة الساقطة طلبت من ربها أن تكون مكان زوجة رئيس الوزراء التي لا تخرج يدها من الماء الساخن ثم تغمرها في الماء البارد، بل في إحدى يديها عسلاً وبالأخرى سمناً، وكل ما تطلبه مستجاب، وكانت تتضرع ليلاً ونهاراً وتقول:

«لا أطلب منك شيئاً ياربي، سوى أن أكون مكان زوجة رئيس الوزراء».

وعلى الأرض، كان رجل غني جداً، لا يعرف مقدار ما يملكه من الثروات، ولايعرف أين هي أملاكه. ولكن ما الفائدة، كان مريضاً بجميع الأمراض، فاقد الشهية للطعام منذ عدة سنوات، في أحد الأيام شاهد الرجل الغني حمالاً قوي البنية. كأنه قدَّ من صخر شاهدته من نافذة منزله وهو يكسر رأس البصل ويضع قسماً في كسرة خبز ويلتهمها، تمنى أن يكون مثله. فبدأ يتوسل ويدعو ربه:

«يارب السموات والأرض، لا أريد سوى أن أكون مكان هذا الحمال، الذي احمر وجهه ويتمتع بصحة جيدة. أرجوك يا ربي العظيم، أريد أن أكون مكانه».

كان كل واحد يريد أن يكون مكان الآخر والكل يتضرع ويتوسل من اجل ذلك. زاد توسل وتضرع البشر فشعر الله جل جلاله أن عباده ليسوا سعداء فاستدعى سيدنا الخضر وأوصاه بما يلي:

أيها الخضر منذ أن خلقتُ الإنسان وبعد أن هبط آدم وحواء إلى سطح الأرض من مئات بل آلاف السنين. لازال أكثر عبادي غير راضين على أوضاعهم، وكل واحد يريد أن يكون مكان غيره، الغني، المحروم، الجميل، القبيح، المعافى المريض، المعروف، غير المعروف، القوي الضعيف، جميعهم يتضرعون ويتوسلون لكي يكونوا مكان غيرهم».

فقال سيدنا الخضر:

«ياإلهي العظيم، أنت رؤوف رحيم وأنا طوع إرادتك»

«أنا أتألم من أجل عبادي. أريد أن يكونوا سعداء... ألا تسمع صوت استغاثاتهم وتضرعاتهم التي وصلت إلى السماء؟».

عند ذلك قال سيدنا الخضر:

«يا إلهي إن هؤلاء العباد يتضرعون ويستغيثون بشكل لاحاجة فيه للإذن لتسمعهم فالجبال والحجارة تسمعهم»

عندها أمر الله سيدنا الخضر بما يلي:

«اهبط أيها الخضر إلى سطح الأرض وحقق رغبات وتوسلات كل من الفتاة القبيحة التي ترغب في أن تكون مكان ملكة جمال العالم، والقزم الذي يريد أن يكون مكان بطل العالم في كمال الأجسام، والإنسان الدميم الذي يريد أن يصبح مكان رئيس الجمهورية والعاهرة التي تريد أن تكون مكان زوجة رئيس الوزراء، والغني الذي يريد أن يكون مكان ذلك الحمال القوي البنية ذو الشهية الجيدة. هيا اهبط أيها الخضر على سطح الأرض، وحاول أن تساعد عبادي ليكونوا سعداء. لبي استغاثاتهم وحقق رغبة كل من يريد أن يكون بديلاً عن الآخر.. أريد أن يكن عبادي سعداء».

ولتكن الفتاة القبيحة مكان ملكة جمال العالم، والقزم مكان بطل العالم في كمال الأجسام، والغني الذي لا يعرف أين يضع أمواله مكان الحمّال القوي البنية، والإنسان الدميم مكان رئيس الجمهورية، والمرأة العاهرة مكان زوجة رئيس الوزراء.. نفذ رغبات هؤلاء أولاً، ثم نفذ رغبات الآخرين.

أجاب سيدنا الخضر، والذي يهبُّ دوماً لنجدة كل شخص يقع في ضيق والذي يعتبر بمثابة رسول لله:

«سأنفذ أوامرك بكل دقة» ثم هبط إلى سطح الأرض واختار من بين مليارات البشر أكثر الناس تضرعاً واستغاثة ذهب أولاً إلى الفتاة القبيحة التي لا نظير لها في القبح وقال:

«أنا الخضر اطلبي مني ما تشائين»

قالت له الفتاة:

«كيف لي أن اعرف إذا كنت أنت الخضر، أم اللص، إذا كنت حقيقة أنت الخضر فلا بد أن تعرف ما هو طلبي!..»

أجابها سيدنا الخضر:

«طبعاً إنني أعرف أنت تريدين أن تكوني مكان ملكة جمال العالم، غداً ستكونين ملكة جمال العالم وترك الخضر الفتاة القبيحة وهي تذرف دموع الفرح من عينيها وكأنها حبات اللؤلؤ وذهب إلى مكان القزم وقال له:

«أيها القزم، لقد وصلت دعواتك واستغاثاتك إلى السماء العليا. واستجاب الله لدعواتك. أنا الخضر اطلب مني ما تريد»

«من أين لي أن اعرف إذا كنت أنت الخضر أم شخص محتال؟.. إذا كنت حقيقة أنت الخضر فلابد أن تعرف ما هو طلبي!..»

أجابه الخضر:

«طبعاً إنني أعرف فأنت تريد أن تكون مكان بطل العالم في كمال الجسام، ستكون مكانه اعتباراً من الغد».

بعد ذلك ذهب الخضر عليه السلام إلى الرجل الدميم الذي يريد أن يكون مكان رئيس الجمهورية، وعاهرة الشوارع التي تريد أن تكون

مكان زوجة رئيس الوزراء، وإلى الغني الذي يريد أن يكون مكان ذلك الحمال القوي، ولم يترك مكاناً لم يذهب إليه.. الأطفال الذين يريدون أن يصبحوا كباراً.. والكبار الذين يريدون أن يعودوا شباباً. والمحرومين بدل الأغنياء، والأميين بدلاً عن المتعلمين، والسياسيين بدلاً عن الصناعيين، والعازبون الذين يريدون أن يحلوا مكان أزواج النساء الجميلات..

وفيما كان سيدنا الخضر يتجول بين الناس ويقوم بأداء مهماته سمع أصوات بكاء ونحيب واستغاثة. فهرع باتجاه تلك الأصوات فشاهد شاباً ربطت يداه وقدماه بالجنازير، يحيط به ثلة من الجنود، وكان هذا الشاب يتوسل ويتضرع إلى ربه وهو يتمرغ بالوحل ويقول:

«يا إلهي العظيم: أرجو أن تكون هذه الساعات هي الساعات الأخيرة التي أعيشها وأرجو أن تسمع دعائي، أتوسل إليك أن أكون مكان رئيس البلدية، وأنجو من الموت».

سأل الخضر القائد رئيس الجنود عن الذنب الذي اقترفه هذا الشاب فأجاب القائد العسكري:

إنه قاطع طريق من أصحاب السوابق، دخل بيت امرأة يقوم زوجها بأداء الخدمة الإلزامية، كما دخل بيت امرأة أخرى قصد الاعتداء عليها ولما حاولت المرأة منعه قتلها، وخنق طفلها الرضيع، كما قتل أربعة أشخاص.. فأصدرت المحكمة عليه حكماً بالإعدام، وسيعدم غداً.

فكر سيدنا الخضر في طلب هذا الإنسان المحكوم بالإعدام، هل ينقذه من الإعدام ويحل مكان رئيس البلدية.. إنها أوامر الله ولابد من

تنفيذها وكل إنسان سيكون في المكان الذي يريد...»

فقال للشاب الذي سيذهب إلى الإعدام:

«أنا الخضر، اطلب مني ما تشاء».

فقال له الشاب:

«إذا كنت حقيقة أنت الخضر، فلا بد أن تعرف ما هو مطلبي»

عندها قال الخضر:

«سوف ألبي طلبك وستكون رئيس البلدية».

كان سيدنا الخضر يتحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء بآلاف المرات فطاف في أرجاء المعمورة، ولبى جميع طلبات كل من يريد أن يكون مكان الآخر، ثم صعد إلى السموات العليا لكي يخبر الله بأنه نفذ الأوامر.. في الوقت الذي كان ينتظر فيه رضى الله عليه ولكن خاب ظنه فقال له عز وجل:

ما هذه الصيحات والاستغاثات والتوسلات والولاويل التي تأتي من سطح الأرض إنها أكثر من ذي قبل، ألم يصبح كل واحد في المكان الذي يريده!.. فلماذا لا أرى عبادي مسرورين؟.. هيا اهبط إلى الأرض وأخبرني عنهم».

هبط سيدنا الخضر إلى الأرض ولم يلاحظ أي فوضى أو شيء غير عادي. فقصد أولاً الفتاة القبيحة التي أصبحت مكان ملكة جمال العالم. فقد أصبحت ملكة جمال حقيقية، اختفى الأنف الطويل الذي كان يغطي فمها، وأصبح انفها جميلاً بمقاس مناسب جداً. كما ذهبت تلك البدانة وأصبح جسمها نحيفاً، واختفت تلك الحبوب

المتقيحة التي كانت تغطي وجهها، واصبح لون وجهها زهري مضيء. ولم تعد سيقانها جزءاً من مؤخرتها بل أصبحت كأرجل الغزال، الصدر ممتلئ، الخصر نحيف، والمؤخرة مقاسها مناسب. ولكنها تذرف الدموع ولا تتوقف عن البكاء والنحيب.

فسألها الخضر:

«ماذا تريدين أكثر من ذلك؟.. ها قد تحقق ما كنت تدعين إليه، وها أنت الآن مكان ملكة جمال العالم».

فقالت الفتاة:

«أريد أن أكون كما كنت.. كما كنت.. أين وجهي القديم؟. أين سيقاني؟..

فقال لها الخضر مندهشاً:

«ألست أنت التي كنت تودين أن تكوني مكان ملكة جمال العالم؟..»

فأجابته الفتاة:

«صحيح، ولكن كما كنت أنا.. أريد أن أبقى كما كنت وأحلّ مكان ملكة جمال العالم!..

أما الآن أنا لست أنا.. أنا لم أعد كما كنت!» وأجهشت في البكاء.

احتار سيدنا الخضر في أمر هذه الفتاة التي تريد أن تكون ملكة جمال العالم بدون أن يتغير شكلها.

ترك تلك الفتاة، تبكي وتنوخ وتتضرع إلى الله لكي تعود كما

كانت عليه، وذهب إلى القزم الذي أراد أن يكون مكان بطل العالم في كمال الأجسام. رأى ذلك القزم المخيف وقد أصبح رجلاً قوياً ذو قامة ممشوقة تشبه أجسام المصارعين اليونانيين القدماء. جسمه متناسق جداً لقد أصبح بطل العالم في كمال الأجسام كما كان يتمنى ولم يعد ذلك القزم القبيح، ولكنه لايتوقف عن البكاء والنواح فقال له الخضر:

«ها أنت الآن مكان بطل العالم في كمال الأجسام فماذا تريد أكثر من ذلك، ولماذا هذا البكاء والنحيب؟..» فقال القزم:

«وماذا يفيدني هذا بعد أن فقدت كياني؟.. أنا أريد أن أكون مكان بطل العالم في كمال الأجسام على أن أبقى كما أنا!..»

لم يستطع الخضر عليه السلام أن يمسك نفسه عن الضحك.. معنى ذلك أن هذا القزم القبيح يريد أن يكون مكان بطل العالم في كمال الأجسام دون المساس بشكله وهيئته الأصلية..!»

ترك القزم يبكي وينتحب وذهب إلى الرجل الدميم الذي أراد أن يصبح مكان رئيس الجمهورية. لقد بدا الرجل وكأنه رئيس جمهورية حقيقي غابت عنه مظاهر الذل. والدمامة والقبح، ولكنه يضرب نفسه ويبكي ويقول:

«ماذا يفيدني أن أكون رئيساً للجمهورية بعد أن أضعت نفسي، أنا أريد أن أكون كما كنت».

بعد ذلك ذهب سيدنا الخضر إلى المرأة التي كانت تريد أن تكون مكان زوجة رئيس الوزراء المرأة التي كانت تسرح في الشوارع، والتي كانت تبكي وتتوسل لتصبح مكان زوجة رئيس الوزراء. فأصبحت

كما تمنت، يد في السمن ويد في العسل. فسألها الخضر:

«ولماذا تبكين أنت أيضاً. يا سيدة الشوارع؟..»

فقالت السيدة:

«أين أنا.. بعد أن فقدت كياني، مافائدة أن أكون مكان زوجة رئيس الوزراء؟..» بعد ذلك. ذهب سيدنا الخضر إلى الرجل الغني الذي لا يعرف مقدار أملاكه. فلم يعد ذلك الرجل العجوز المريض، بل كان رجلاً صحيح الجسم وكأنه قدّ من صخر. بعد أن حل مكان الحمّال. وكان يمسك بيده رغيف خبز كبير يأكله بنهم ومع ذلك كان يصرخ ويبكي قائلاً:

«أين آلام الأعصاب التي كنت أعاني منها.. أين قرحتي، أين ضيق النفس؟.. أمان يا ربي، ماذا سأفعل بكل هذه الصحة؟.. لا أريد.. أريد إلا أن أكون كما كنت.»

ذهب سيدنا الخضر إلى واحد تمنى أن يكون مكان واحد آخر ورأى أن الجميع يطلبون أن يكونوا في المكان الذي يرغبون دون أن يتغير منهم أي شيء، لا أحد يريد أن يتخلى عن صفاته، الأقرع، الأعمى، الأعرج، القزم، المتشرد، المحروم، وحتى المجنون، ورغم أنهم كانوا يعانون من حياتهم الكثير ويتمنون شغل المكان الذي يريدون.. إلا أنهم رغبوا البقاء في مكانهم الجديد دون أي تغيير في شكلهم الأصلي.

حسناً: ماذا عن الشاب الذي كان يتمنى أن يكون مكان رئيس البلدية لكي ينجو من الإعدام؟..

ذهب سيدنا الخضر إلى الشاب فوجده يبكي وينوخ أكثر من

الجميع، وقد وصلت تأوهاته وتنهداته ودعواته إلى السماء. فسأله الخضر: ألست أنت الذي تمنى أن يكون مكان رئيس البلدية لينجو من الإعدام؟

ـ أجاب الشاب: نعم.

قال له الخضر:

«هاقد تحقق لك ما تمنيته وأنت الآن مكان رئيس البلدية.. ماذا تريد بعد؟..

ولماذا كل هذا البكاء والنحيب حتى ملأت بأصواتك الأرض والسماء؟..»

أجابه الشاب:

«بعد أن تخليت عن ذاتي، ماذا يفيدني أن أكون مكان رئيس البلدية.. لقد انتهيت أين أنا الآن..؟ أنا لست أنا.. أنا أردت أن أكون مكان رئيس البلدية كما أنا».

قال له الخضر:

«أنت!.. كما كنت أنت!.. كيف يمكن أن تكون مكان رئيس البلدية؟.. فأنت قاتل من أصحاب السوابق، ومن يدري كم شخصاً قد قتلت؟..»

فقال الشاب:

«أنا لا أريد أن أكون مكان رئيس البلدية، إذا لم ابق كما كنت عليه.. أريد أن أكون كما كنت، وأريد أن أكون في مكاني كما كنت أيضاً».

انزعج سيدنا الخضر ودهش بنفس الوقت فقال له:

«هل جننت أم طار عقلك؟.. لو عدت كما كنت.. وذهبت إلى المكان الذي كنت فيه فسوف توضع الأصفاد والسلاسل في يديك ورجليك ثم تُعدم»

قال الرجل الشاب:

«..ليكن.. الأفضل للإنسان أن يموت، من أن يعيش بديلاً عن غيره، ليشنقوني ولكن يكفي أن أكون أنا.»

بعد ذلك عاد سيدنا الخضر إلى السماء ووقف بين يدي الله تعالى حزيناً وقال:

«سامحني ياربي فهذه هي المرة الأولى منذ أن خلقتني لم أتمكن من تنفيذ أوامرك».

سأله الله:

«لماذا؟»

أجاب الخضر لأنني لم أجد أحداً يريد أن يبدل نفسه بغيره، كل واحد لا يرضى عن نفسه بديلاً، مهما كان وضيعاً، أو محروماً أو عاجزاً.

فقال تعالى:

«نحن خلقناهم على هذا الشكل، وأكثر الناس تذمراً من حياتهم، هم الذين لايريدون بغير أنفسهم بديلاً».

عندها قدم سيدنا الخضر استقالته وخر ساجداً وقال:

«سامحني ياربي».

وهكذا ومنذ ذلك اليوم، وبعد أن قدّم سيدنا الخضر استقالته لم يكلف أحد بالمهام التي كان يقوم بها الخضر، لذلك لم تعد تتحقق أمنيات الناس. لكن هناك حقيقة اتضحت، ألا وهي أن لا أحد يريد أن يتخلى عن نفسه».

○ ○ ○

٥ - إصبع القدم على حق

كان يمضي معظم أوقاته وسط الزحام، في تلك المدينة الكبيرة، وكاد أن يفقد أعصابه من جراء ما تعرض للدفع، والضرب. وكم من مرة ساقه هذا الزحام وأرغمه على الذهاب إلى أماكن لم يكن يود الذهاب إليها، وكم من مرة تعرض للاختناق والضغط من شدة الزحام في الحافلة التي استطاع الركوب فيها بعد طول انتظار. وكم تعرض للإهانة والتوبيخ من قبل صغار الموظفين، والخدم، والحجاب، عندما كان يقصد بعض الدوائر الحكومية لقضاء بعض الأعمال.

كان شبيهاً بكيس الرمل، الذي ينهال عليه الملاكمون ضرباً بدون توقف من أجل التمرين. فقد تعرض هو أيضاً وباستمرار لشتى أنواع، الأذى، والدفع والجذب في طريق تقدمه نحو مرتبة هامة عالية، ومن أجل تحقيق هذا الهدف تجده يتصرف وكأنه في سباق مع كل شخص يحاول التلاعب معه بنوع من الخبث والذكاء.

ذات مساء رجع إلى بيته وهو على هذه الحالة من التوتر، لم يكن البيت أرحم من الزحام وقلة الاحترام التي يتعرض لهما في المدينة، فأحس بالاختناق وشعر بضغط شديد على صدره، فأراد الهروب من هذا الجو الخانق ليستمتع بنسمات الليل العليلة. ورغب بتناول طعام العشاء قبل خروجه، فدسَّ في فمه بضع لقمات على عجل وخرج إلى الشارع. كان الظلام يسدل ستاره على ذلك الزحام البغيض.. لقد آوى الجميع بيوتهم. فلم تعد ترى في الشارع الرئيسي سوى بعض

العربات. أراد الرجل الابتعاد عن العالم والبقاء وحيداً، فانسحب من الشارع الرئيسي ودخل إحدى الطرق الفرعية التي خلت من المارة.. لم ينقطع تفكيره عن العمل، لكنه بماذا.. يفكر؟..

كانت تلك ليلة حالكة السواد.. والظلام دامس، والسماء خالية من النجوم، والقمر محتجب في ظل الأرض والطريق مقفر خال من المصابيح. وبينما كان غارقاً في التأمل، صدمت قطة ساقه وولت هاربة.

تابع سيره متأملاً في الشريط النباتي الممتد على يساره، فشاهد جسماً يلمع ويطير بين هذه النباتات. كان الجسم يطير على ارتفاع قليل ثم يهبط وسط النباتات. بعد قليل عاد ليقفز من جديد، وسط النباتات، مخلفاً وراءه خطاً مضيئاً عند كل قفزة. ربما يكون ضفدعة صغيرة! لكن الضفادع لا تضيء.. انحنى نحو تلك الأعشاب فرأى أن الذي كان يقفز قد بدأ يسير. لكنه لم يتعرف على ماهيته!.. راقب هذا المخلوق فرآه يقفز لارتفاع بسيط ولمسافة قصيرة جداً في كل قفزة. بمعنى أن سيره كان بطيئاً، استغرب كثيراً من أمر هذا المخلوق فمد يده لإمساكه فسمع صوتاً، كصوت إنسان يقول:

ـ أرجوك أن تتركني ولا تزعجني.

شعر بالخوف فسحب يده.. ما هذا الجسم الذي تنبض فيه الروح؟.. تابع الجسم قفزاته من جديد.. فازداد استغراب الرجل فمد يده مرة أخرى ليمسكه فسمع صوتاً يقول:

ـ لا تلمسني!..

من هذا المتكلم؟.. هل هو ذلك الجسم الذي لا يتجاوز حجمه

حجم الحصاة.. ارتعب وسحب يده، لكنه سأل بصوت الضعيف الخائف.

ـ من المتكلم؟..

ـ أنا.

ـ من أنت؟..

ـ أنا الإصبع الكبيرة لأحد الأقدام.

ـ إصبع كبيرة في قدم؟..

ـ نعم.

ـ هل إصبع القدم تتكلم؟..

ـ معك حق في أن تستغرب.

ظن الرجل أن هناك أحد يسخر منه فنهض من مكانه وبدأ يتلفت حوله، وينظر إلى الطرف الآخر ولكنه لم ير أحداً.

ورغم أنه لا يصدق الخرافات وقصص الجن والعفاريت، لكن الخوف انتابه، فهمّ بالذهاب رغم أنه كان يريد معرفة سر هذا الصوت. لكن الصوت استوقفه قائلاً.

ـ وأنا أيضاً عندما كنت إنساناً مثلك، لم أر، ولم أسمع أن الإصبع الكبيرة في القدم يمكن أن تتكلم!..

التفت الرجل إلى الخلف وتسمر في مكانه بدون أن يخطو خطوة واحدة. ولم ير من اللائق أن يدعه ويمشي، حتى ولو كان المتكلم إصبع القدم.

ـ هل ترغب في أن أزيل استغرابك؟

لم يشأ الرجل أن يكون فظاً فلا يجيب الإصبع على سؤاله، فقال من باب رفع العتب.

ـ يعني.. مثلاً.

روى إصبع القدم الكبيرة قصته فقال:

ـ كانت لدي رغبة حقيقية في رواية إحدى القصص التي مرت معي، فأنا لم أكلم أحداً منذ ستة أشهر، ومن الصعب جداً أن يبقى الإنسان كل هذه المدة صامتاً. فمثل هذا الإنسان لابد وأن يتمزق حتى لايبقى منه سوى إصبع القدم مثلي.

فسأله الرجل بدهشة:

ـ هل تتحدث عن إنسان؟..

قالت إصبع القدم الكبيرة

ـ نعم لقد كنت في أحد الأيام إنساناً كاملاً كما أنت عليه ألان.

تعجب الرجل:

ـ يا..

ـ هيا بنا.. دعنا نذهب إلى هناك.. إلى حديقة الأطفال التي لا يزورها أحد في الليل لكي نتكلم بعيداً عن الفضوليين، وسأقص عليك هناك ما مر على رأسي.

كانت إصبع القدم تسير قفزاً، والرجل يسير خلفها.

وصلا إلى حديقة الأطفال، فدخلت الإصبع وسط الحديقة بينما جلس الرجل على العشب، وتبلل بنطاله من العشب الندي، سألته الإصبع الكبيرة:

ـ هل أبدأ الحديث؟

ـ تفضلي.

لم يعد خائفا، وكأنه اعتاد على سماع إصبع القدم وهي تتكلم.

ـ قبل عامين تقريباً، كنت مثلك إنساناً طبيعياً أملك جميع الأعضاء، رأسا وَجسماً ويدين!..

ثم روت إصبع القدم الكبيرة مامر معها على النحو التالي:

في إحدى الأمسيات ركبت الباخرة متوجهاً إلى بيتي الكائن في الطرف المقابل، جلست على المقعد في الصالون الخلفي للباخرة، وماهي إلا لحظات حتى امتلأت الباخرة بالركاب، ولم يبق هناك مكان فارغ، كان يجلس بجانبي ثلاثة ركاب، الراكب الجالس على رأس المقعد من طرف اليمين أخذ راحته بالجلوس فاستحوذ مكاناً يكفي لراكبين.

وقد غطى جسمه الضخم الطرف اليمين من المقعد فلم يعد بإمكان أحد رؤية المكان الفارغ بجانب الرجل. كان الركاب فور دخولهم إلى الصالون يفتشون عن مكان يجلسون عليه، ثم يغادرونه عندما لايجدون مكانا. ازدحمت الباخرة بالركاب وبقي أكثر من نصفهم واقفين. انزعجت كثيراً من رؤية جمع الناس الواقفين، بينما صاحبنا الأناني عديم الاحترام مضطجعاً على المقعد. انتظرت أن يرى أحد الركاب الداخلين ذلك المكان الفارغ، ولكن المقعد ظل محجوباً، لأن هذا الأناني غطى بجسمه ما بقي من المقعد بشكل لايمكن لأحد رؤيته. دخل راكب آخر. فانتظرت أن يستيقظ ضمير هذا الأناني، ويرى الراكب المكان الفارغ، لكن لم يحصل ما انتظرته، كان المكان

مزدحماً بالنساء والعجائز والأطفال الواقفين، فلم أعد أستطيع الاحتمال فقلت لذلك الرجل الأناني بمنتهى الرقة والهدوء.

ـ من فضلك أيها السيد، أفسح قليلاً لكي يتمكن أحد هؤلاء الركاب من الجلوس في المكان الفارغ!..

ما أن قلت هذا الكلام حتى فتح فمه وأغمض عينيه وبدا يصرخ بأعلى صوته. كان الجميع يسمع، ولكن لم ينطق أحد بكلمة ثم قال لي وهو يصرخ:

ـ هيا تعال اجلس، إذا كان المكان فارغاً!..

ـ إنني أجلس في مكاني يا سيدي، وأنا لا أتكلم عن نفسي، أنا أفكر بالآخرين.

ـ انظروا إلى هذا الرجل!.. إنه يفكر بالآخرين.. معنى ذلك أنه شيوعي!..

ـ انظر إلى هؤلاء الناس الواقفين.

ـ ولكن ما دخلك أنت ما دمت قد وجدت مكاناً وجلست!.. ماذا تريد أكثر من ذلك؟.

ـ هناك سيدات عجائز يقفن على أقدامهن.

ـ إذا كنت تتألم إلى هذه الدرجة، فانهض أنت وأعطهم مكانك!.

كلما تمادى الرجل الأناني بالصراخ تماديت أنا بالتواضع، والحقيقة أنني انتظرت أن يدعمني بعض الناس الموجودين في الصالون.

كنت أعلم أنني على حق، واعتقدت لو أن المفتري قد سمع صوت أي واحد من الركاب سيضطر للسكوت، لكن أحداً لم يتدخل في

النقاش الدائر بيننا وكلهم آذان صاغية يستمعون لحديثنا، كان الرجل يصرخ (شيوعي) لأنني فكرت بباقي الركاب الواقفين.

أنا أدرك أنكم تتساءلون لماذا لم أسكت وأنهي الحديث مع هذا الرجل الأناني المتسلط؟.. لماذا لم أسكت؟.. لأنني كنت أرى في عيون الركاب نظرات التأييد حتى أن بعضهم كان يهز رأسه تشجيعا لّي. لذلك لم اسكت، بل رفعت نبرة صوتي قليلاً وقلت له:

ـ أليس من العيب أن تأخذ مكان راكبين في الوقت الذي يقف كل هؤلاء الركاب على أقدامهم؟..

أخرج كلامي هذا المتسلط عن طوره تماماً فقفز من مكانه وهجم عليّ، انتظرت تدخل أحد الركاب، الذين كانوا ينظرون إلي نظرات التأييد والذين كانوا يشجعوني بل يحرضوني وهم يهزون رؤوسهم. ولكن لم يحدث ما تأملته. لو أن أحدهم احتج بلسانه ونطق بكلمة (انهض، انهض).. انهال علي ضرباً فخلت أنهم سوف لن يسمحوا له بضربي وسيبعدوه عني، ولكن لم تهتز شعرة واحدة منهم. حاولت الدفاع عن نفسي أمام هذا الضرب المبرح. وضعت يدي اليمين على وجهي لأحتمي من لكماته. لكن الرجل مسك يديَّ وجرهما خلف ظهري وبدأ يقتلها، سمعت صوت (طقطقة) عند كتفي يشبه صوت المفصل عندما يخرج من مكانه. في هذه الأثناء وصلت الباخرة إلى الميناء، وبدأ الركاب بالنزول، أما أنا فلم أعد أستطيع التحرك من شدة الألم، وكان الركاب يمرون أمامي ويكملون طريقهم مرددين بعض الكلمات مثل:

ـ الحق معك..

يحدث أن يبدل أحدهم هذه الكلمة فيقول:

- الحق معك من الأرض إلى السماء

وبعضهم يقول:

- أهنئك لقد وقفت في وجه الباطل.

ورغم الألم الذي لا يطاق وما كنت أعانيه في كتفي فقد شعرت بالفرح لأنني نلت تأييد جميع من في صالون الباخرة. جميعهم أعطاني الحق!.. ولكن ماذا كنت سأفعل لو لم يجدوني على حق؟.. الألم يزداد، فأغمي علي فور وصولي إلى البيت فنقلت إلى المستشفى فوضعوا ذراعي حتى الكتف بالجبس، بقيت على تلك الحال ثلاثة أشهر ودون أن تتحسن حالتي، فقطعوا ذراعي اليمين من الكتف وهكذا فقدت ذراعي في سبيل نصرة الحق.

وفي صباح أحد الأيام الباردة ركبت الباخرة للذهاب إلى بيتي الكائن في الطرف الثاني من الشاطئ نزلت إلى الصالون السفلي للباخرة وكان قد علق على جدران الصالون أربعة إعلانات كتب عليها «يمنع تدخين السكائر في هذا الصالون».

صادف أن يجلس أمامي رجلاً يدخن سيكارة، وينفث دخانها في وجهي. سكت فترة لم أنطق بكلمة، ولكنني لم اعد أطيق السكوت فقلت له:

- التدخين ممنوع هنا أيها السيد.

قلت ذلك بصوت مرتفع ليسمعني باقي الركاب فيؤيدوني.

سألني الرجل باستهزاء بعد أن نفخ دخان سيكارته في وجهي.

ـ لماذا؟.

ـ لأنه ممنوع.

ـ من وضع ذلك الإعلان؟..

ـ البلدية.

استمر بالتدخين بدون أي خجل.. نظرت إلى وجوه الركاب فأحسست وكأنهم يقولون لي (برافو!.. أنت على حق) شجعتني نظراتهم المؤيدة لي فقلت لذلك الرجل المدّخن.

ـ هل تقرأ؟..

فسألني هو أيضاً.

ـ لماذا تسأل هذا السؤال؟..

فأشرت إلى اللوحة المعلقة على الجدار والتي كتب عليها (ممنوع التدخين) وقلت:

ـ اقرأ ما هو مكتوب..

فقال بلا مبالاة.

ـ إن السيكارة التي أدخنها مجهزة بمصفاة.. وأشار بيده لأرى الكتابة الموجودة على الإعلان الذي أمامه. وقال:

ـ أنت انظر أيضاً واقرأ ما هو مكتوب.

كان أحد السفلة قد كتب بجانب جملة (ممنوع تدخين السكائر) كلمة (بدون مصفاة) فأصبح الإعلان «ممنوع تدخين السكائر بدون مصفاة».

انزعجت كثيراً. ولكنني كنت افهم مدى تأييد الركاب لي من

خلال نظراتهم. وقلت في نفسي لابد وأن يناصرني واحداً أو اثنين على الأقل، عند ذلك سيضطر ذلك الرجل على إطفاء سيكارته. حتى لو وقف شخص واحد بجانبي فإنه يكفي. فقلت للرجل:

ـ أرجو أن تطفئ سيكارتك، فليس لك الحق في إزعاج الآخرين.

فأجابني:

ـ لم ينزعج أحد غيرك.. لماذا لم يتكلم أحد غيرك؟..

وصلت الباخرة إلى الميناء وبدأ الركاب بالخروج من الصالون، وسرت أنا باتجاه الدرج لأتخلص من هذا الفاجر، لكن الرجل استوقفني قائلاً:

ـ انتظر.. لاتهرب.. سوف نتحاسب.

مسكني من ياقتي، حاولت الإفلات منه، ولكنني لم أتمكن، انتظرت أن يتقدم أحدهم وينزع يده عن عنقي، لكن الجميع ظلوا واقفين يتفرجون على الرجل وهو يشدني، وبينما كانت الباخرة تلتصق برصيف الميناء، دفعني الرجل بقوة فسقطت في الفراغ بين رصيف المينا والباخرة، وبقيت عالقاً في تلك الفجوة، والباخرة تقترب أكثر من رصيف الميناء، حاولت إنقاذ نفسي بالتسلق إلى أعلى فعلقت رجلي اليسار ولم أتمكن من سحبها، بدأت أصرخ بأعلى صوتي. وعلت أصوات الركاب وهم ينادون على القبطان ليبعد الباخرة عن رصيف الميناء. تناهى إلى سمعي في هذه الأثناء الدردشة التي حصلت بين الركاب.

ـ أنا سأكون شاهداً في هذا الحادث، فهذا الرجل على حق..

ـ أي رجل يا سيد؟..

ـ هذا الرجل الذي سحقت رجله، والذي يصرخ بأعلى صوته.

ـ لقد رأيت كل شيء. إنه محق تماماً.

ـ من الطبيعي أن يكون تدخين السكائر ممنوعاً في الصالون السفلي.

ـ وقعت براس هذا المسكين.

ـ إنه على حق.

لقد أغمي علي عندما أخرجوني وابتعدت الباخرة عن رصيف الميناء، ونقلت فوراً إلى المستشفى، وأدخلت غرفة العمليات، وعندما فتحت عيناي لم تكن ساقي اليسرى موجودة. خرجت من المستشفى بعد بضعة اشهر، وأنا اتكئ على العصا. وفي أحد الأيام بينما كنت أتمشى في الطريق بادرتني إحدى السيدات بالتحية وقالت:

ـ أنا أعرفك..

فسألتها كيف تعرفنا على بعض؟.. فقالت

ـ أنت الذي كنت تلفت انتباه الرجل الذي كان يدخن سيكارة، في الصالون السفلي للباخرة أليس كذلك؟.. حتى أن الرجل دفعك من الباخرة إلى الأسفل.. كلنا أعطيناك الحق. تابعت حديثها قائلة: لقد نقلوك إلى المستشفى بسيارة الإسعاف. وكنت محقاً جداً.

وهكذا بقيت بيد واحدة ورجل واحدة.

وفي أحد الأيام أيضاً خرجت من المسرح في ساعة متأخرة من الليل، وبينما كنت متجهاً إلى بيتي مررت في النفق الذي يقطع الشارع، كان النفق مزدحماً بالباعة على اختلاف أنواعهم. منهم من يبيع المأكولات ، وآخرون يبيع الألبسة، والسكائر المهربة، والبضائع

المسروقة، والرسوم المستهجنة، وآخرون يبيعون أوراق اليانصيب. وأمام أحد الأعمدة يقف ولد جميل الهيئة لا يتجاوز عمره الخامسة عشرة. كان يبيع حلوى أشبه بالبسبوسة الموضوعة وسط صندوق زجاجي محمول على قاعدة خشبية. كان واضحاً أن الولد غريب.. ويقف إلى جانبه رجل سافل في الثلاثين من عمره.

كان الرجل يتكلم مع هذا الولد محاولاً إرغامه على تعاطي أمراً سيئاً. بدأ الولد بالبكاء والدموع تنهمر من عينيه، لم يستطع أحد من المارة تجاهل هذا المنظر، فتجمع الناس حول الولد البائع، وبلغوا حوالي أربعين شخصاً، وبما أنني كنت قريباً من هذا الرجل السافل فقد كنت أسمع ما يقوله. يريد أن يقاسم الولد أرباحه. ويطلب منه ممارسته بعض الأمور الدنيئة. مسكين هذا الطفل. قلت: أليس من المفروض أن يكون الأطفال في مثل هذه الليلة الباردة في فراشهم ينعمون بالدفء، لا أن يكافحوا من أجل لقمة العيش في هذه الدنيا الغادرة؟ انتظرت أن يتدخل أحد هؤلاء الفضوليين الواقفين ليخلصوا الطفل من يد هذا السافل. لم أعد أحتمل فقررت التدخل ضد هذا السافل الذي مسك الطفل من يده وبدأ يجره ليأخذه معه فقلت:

- لماذا ترغم الطفل على الذهاب معك؟

قد تقولون ألم يكفه هذا البلاء الذي مر على رأسه حتى يثوب إلى رشده!.. معكم الحق... انتظرت أن يوافقني على كلامي أحد الموجودين بعد أن قلت هذا الكلام، يعني لو أيدني أحد من الموجودين، كنت أجبرت هذا السافل على ترك الولد وشأنه... ولكن عندما لم يبادر أحد إلى تأييدي قال لي بأعلى صوته وهو يجر الولد:

ـ ولك ما علاقتك أنت، هيا امض في سبيلك وإلا.

كان الولد يقاوم هذا السافل ويبكي وقد حمل ذلك الصندوق الزجاجي على كتفه فصرخت بأعلى صوتي:

ـ ألا يوجد شرطي هنا؟..

نظرت إلى الناس لعلّ أن يسمع أحدهم ندائي فيهب ليخبر الشرطة، رغم أن نظراتهم لي كانت تنم عن التأييد. شعر الولد أنني أريد حمايته فتخلص من ذلك السافل وتشبث بثيابي.. إنسان بيد واحدة ورجل واحدة ماذا باستطاعته أن يفعل؟.. استندت على ظهري ومسكت الطفل بيدي الوحيدة. انتظرت حتى يساعدني أحد من هذا الجمع عندما يراني بيد واحدة ورجل واحدة، ولكن أحداً لم يهتم بالأمر. لمحت بريق السكين التي استلها ذلك الوغد!.. وبادرني بطعنات وقعت من جرائها على الأرض مضرجاً بدمائي. وأخذ السافل الولد ومضى.. مال بعض الأشخاص عليّ وقالوا لي:

ـ الحق معك.

ـ أنت على حق.

فقدت يدي اليسرى بعد أن طعنت بالسكين، فتصوروا الحال التي أصبحت عليها!.. إنسان فقد ذراعه ورجله.. كنت وأنا برجل واحدة أشبه ما يكون بجذع شجرة بدون أغصان. لم اعد أستطيع السير بمفردي، فاستأجرت رجلاً براتب شهري يقوم بمرافقتي ويدفع عربتي. شعرت بالضيق فذهبت في أحد أيام الصيف إلى إحدى المقاهي المنتشرة على شاطئ البحر، وأنا في عربتي رأيت رجلاً يقوم بضرب إحدى السيدات بمنتهى القسوة.. لو رأيتم حال تلك المرأة كيف تتلوى

من الألم؟.. لم يهب أحد لنجدتها.. ولم أعد أحتمل، فأشرت على الرجل الذي يقود عربتي أن يأخذني إليه. كنت أصرخ في الرجل ليترك المرأة وشأنها. وبنفس الوقت كنت أدخل بعربتي بين الرجل والمرأة. سمعت صوت مسدس!.. من المؤكد أن هذا المتسلط لا يقصدني أنا.. لكن الرصاصة اخترقت صدري، تفرق جميع الناس من خوفهم وهربوا حتى الرجل الذي أطلق علي الرصاص، والرجل الذي يقود عربتي. كانت الدماء تنزف من صدري، وتلطخت ثيابي. تجمع الناس حولي فترة. وكانوا هم نفسهم الذين هربوا قبل قليل، ورغم عدم قدرتي على الكلام، لكنني كنت أسمع حديثهم.

ـ هذا الرجل على حق.

ـ لو أن كل واحد منا يتصرف مثله.. عندها سيقضى على الباطل.

بقيت عدة أشهر في المستشفى. لقد أصبح عجزي كاملاً بعد أن فقدت إحدى عيناي.

ولعلكم عرفتم الآن كيف كانت قامتي تصغر تدريجياً، حتى لم يبق مني سوى هذا الإصبع!..

وفي أحد الأيام خرجت إلى الشارع.. وكان السائق يدفع عربتي. فرأيت سيارة خصوصي تسير بسرعة جنونية وكأنها تطير عن الأرض. فاصطدمت ببعض السيارات مما سبب جواً من الفوضى، ثم توقف المرور بعد حادث الاصطدام. كانت السيارة فاخرة جداً يقودها شاب في السابعة أو الثامنة عشرة من عمره. وبطريق الصدفة كنت بجانب السيارة عندما توقفت فسمعت سائقي السيارات الأخرى يشتمون هذا الشاب.

لو كان الطريق مفتوحاً أمام هذه السيارة الفاخرة. لأخذت عربتي في طريقها ومزقتني إرباً وقضت على ما تبقى مني.. فقلت:

ـ الذنب ليس على الشاب. بل على الأهل الذين يسلمون مثل هذه السيارة التي تساوي ملايين الليرات لولد مراهق في مثل هذا العمر!..

كان هناك أصواتاً مؤيدة لكلامي!..

ـ معك حق.

ـ أنت محق للغاية.

عندها التفت إليّ الشاب المدلل الذي يقود تلك السيارة الفاخرة وهو جالس في مكانه وقال غاضباً.

ـ سأريك الآن.. وقاد سيارته بسرعة في اتجاهي. محطماً عربتي، أما أنا فلم يبق مني شيء لم يتحطم. مرّت السيارة فوق رأسي وهشمتني.

في أحد الأيام أيضاً.. نعم.. نعم.. كل الناس يؤيدونني ولكن لم يبادر أي واحد منهم للوقوف في وجه ذلك القبضاي الذي بقي لفترة طويلة وهو يسعل ويتفل البلغم في حديقة الأطفال. لو أن أحداً ممن كانوا في الحديقة قال للقبضاي ما قلته أنا له.. إن ما تفعله يعتبر عملاً فظاً ومقرفاً بنفس الوقت.. استل هذا القبضاي سكينه وبدا ينهال علي طعناً حتى كاد أن يفرمني.

بعد هذا الهجوم لم يبق في جسمي شيء ولم يمت، لم يبق سواي أنا الإصبع الكبيرة في القدم. ظنوا أنني مت فأخذوا ما تبقى من جسمي ودفنوه، لكن أحداً لم ينتبه عند الدفن أن الإصبع الكبيرة لقدمي اليمين لم تمت.. وهكذا فأنا أعيش لوحدي كأصبع منذ ستة

اشهر.. ولكن لا يراني أحد فأنا لا اخرج في النهار أبداً واكتفي بالتجول ليلاً عندما تخلو الشوارع من المارة. فأنا أشكرك شكراً جزيلاً لأنك استمعت إلي، فقد ارتحت كثيراً بعد أن فتحت لك قلبي وأفرغت ما بداخلي.

سكتت أصبع القدم الكبيرة. فمدّ الرجل الذي كان يريد أن يسألها أسئلة أخرى، يده على العشب ومسك الإصبع. كان ما مسكه هو الإصبع الكبيرة في قدمه اليمين. أما ماكان يلمع في الليل كالفوسفور فهو ظفر الإصبع الكبيرة وقد ظهر من الصندل الذي كان يلبسه في قدمه بدون جوارب!.. بعد ذلك تفقد وهو جالس في مكانه كل أعضاء جسمه، رأسه، وذراعه، ورجليه، فوجدها سليمة، فنهض من فوق العشب الندي، وسار منتصباً لا ينظر إلى الأرض لكي لا يرى إصبع قدمه.

○ ○ ○

٦ ـ عند تشييع الجنازة

بعض الناس لهم هوايات لا تخطر على بال أحد، وهي ليست شائعة مثل هواية جمع الطوابع أو الفراشات، أو جمع بطاقات المعايدة القديمة. كما أن البعض لديه هواية جمع الغلايين (مفردها غليون)، أو علب الكبريت، أو علب السكائر، كما أن هناك عادة جمع المناديل الورقية الموشومة بشعارات الفنادق أو المطاعم، وهناك هواية أخرى لا نستطيع أن نعتبرها هواية نوعية.. وهي هواية جمع المعالق رغم عدم شيوعها كثيراً إلا أنها موجودة نوعاً ما.

نقول عادة عن شخص ما، أن لديه هواية جمع، إذا كان هذا الشخص يقوم بجمع عدة أشكال أو تصاميم لنوع معين، لتواريخ وأماكن صنع مختلفة.

أنا لست من هواة جمع أباريق الشاي، لأني لا أدخل مهنة الهواة المختصين.. ولكن لماذا يقومون مثلاً بجمع أغلفة شفرات الحلاقة؟.. لقد تعرفت على واحد من هؤلاء الأشخاص وكان يفتخر بأنه الوحيد في هذا العالم. كما تعرفت على شخص لديه هواية جمع قطع أطقم موائد الطعام التي يسرقها من الفنادق المحلية والأجنبية. ومرد ذلك لهوايته السابقة!.. وهي السرقة؟. تعرفت أيضاً على أحد الهواة كان مختصاً بجمع ألبسة النساء الداخلية، ولكي يعطي أهمية أكبر لهذه الهواية، كان يصر على جمع الألبسة الداخلية المستعملة!.. وحسب رأي الأطباء النفسانيين فإن أمراض النفس والأعصاب تنتقل بالعدوى،

بل هي موجودة بالأصل لدى الإنسان.

وبناء عليه فإن معظم هواة جمع الأشياء يُعتبرون مرضى نفسيين!..

كما أن هناك بعض الأخصائيين في الأمراض النفسية لهم هوايات أيضاً كهواية «التخلص من الوحدة» أو «القضاء على العزلة» ويقولون أن مثل هذه الهوايات لابد وأنها تنبع من شعور داخلي لدى هؤلاء الأخصائيين!..

ففي الولايات المتحدة مثلاً، في عصر الأغنياء الكبار، وحالة الجنون التي وصل إليها هؤلاء وهم يقومون بجمع المال، كتب مارك توين بسخرية عن هذا الموضوع فتحدث عن الأميركي الحديث النعمة الذي جمع أموالاً طائلة دون معرفة أين وكيف سينفق هذه الأموال. فقام بهواية جمع صدى الأصوات! وقد انفق أموالاً طائلة على شراء الجبال والوديان لأنها الأكثر انعكاساً للصوت. مثل هذا النوع من الهوايات كونها تتسم بالجنون فهي لاتوجد إلا في الروايات الضاحكة.

لابد أنكم تعرفتم على بعض الهواة النادرين. لكنني سأعرفكم الآن على شخص لديه هواية خاصة جداً نادرة. منذ مدة تقاعد هذا الهاوي من وظيفته، كان معلماً ولا أدري كم يبلغ من العمر الآن، ولكن من المؤكد أنه تجاوز السبعين من عمره، وضعه الصحي جيد بالنسبة لعمره، ولعل تلك الهواية جعلته يحافظ على حيويته.

اقتصرت هواية هذا المعلم القديم على تشييع الجنازات، فكان يذهب إلى أماكن العزاء ويسمع أحاديث الناس ثم يقوم بتسجيلها دون علم أحد.

وهكذا تمكن من جمع مئات بل آلاف أشرطة التسجيل. هذا الهاوي

الخاص يسكن بيتاً صغيراً في إحدى ضواحي استنبول، وكان يتحمل عناء الطريق ليحضر جنازة أو جنازتين في اليوم، ويواظب على عمله هذا وكأنه موظف. يذهب لحضور تشييع الجنازة بمنتهى الدقة. كانت مجموعته تزداد يوماً بعد يوم، عند الصباح يقرأ صفحة الوفيات في الصحف. فيختار حادثة أو حادثتي وفاة. يحمل آلة التسجيل على كتفه وينطلق إلى مكان الجنازة، ولم يكن يأبه إذا كان الإنسان مهماً أو عادياً. فقد احتوت مجموعته على أناس مهمين، وأقل أهمية، حتى وغير مهمين أبداً. أنا أعتقد بأن هذه المجموعة هي الوحيدة من نوعها في العالم.

لم يتسنى لي الاستماع مع الأسف سوى إلى العدد القليل من أشرطة التسجيل التي حوتها مجموعته. حسناً فعلت عندما كنت اترك عملي في بعض الأحيان لأستمع إلى هذه الأشرطة. فالأحاديث المسجلة جذابة، ومشوقة، وباختصار عميقة جداً، مضحكة، مسلية، مؤلمة نوعاً ما، ومحزنة، وذات مغزى كبير وتافهة إلى حد ما.

سأنقل بعض الأحاديث الطريفة التي سمعتها من خلال بعض مجموعات أشرطة التسجيل لهذا الرجل العجوز، عملية النقل لم تكن سهلة فقد أخذت مني وقتاً طويلاً، ومع هذا فالعمل يستحق العذاب والتعب.

هذه الأحاديث التي سجلتها والتي أقدمها لكم الآن وبدون أية إضافات، هي لأشخاص كانوا يحضرون تشييع الجنازة. جنازة عادية، وقد تكون جنازة واحد مثلي، أو مثلكم، المهم أنها جنازة عادية وإليكم الأحاديث التي تجري أثناء مراسيم تشييع الجنازة.

* * *

ـ الطقس سيء للغاية، والمطر غزير يكاد يدخل إلى جسم الإنسان.

ـ إضافة إلى المطر فالطقس بارد جداً.

ـ ألم يجد صاحبنا.. وقتاً آخر ليموت في غير هذا الجو البارد؟ (ضحكات خفيفة جداً)

ـ لا أريد أن أغضب الله، لكن تصرفات المرحوم كانت سيئة في حياته.

ـ ربما أراد الإساءة إلينا الآن، لكي نتبلل، فاختار الموت في مثل هذا اليوم. (ضحكات)

ـ الجو صحو عندما خرجت من البيت. ولو علمت أنها ستمطر وقت خروجي من البيت لما حضرت هذه الجنازة.

ـ بدأ المطر ينهمر لدى وصولنا.

ـ إيه.. إنه لا يستطيع أن يسيء إلينا إلا بهذه الطريقة.

(ضحكات)

ـ لم أعد قادراً على العودة إلى البيت بعد الآن فقد شاهدني جميع الأقارب عند حضوري.

ـ حسن أنك فكرت بحمل ممطرة..

ـ المرحوم صديق قديم لي، وأنا اعرف جميع مقالبه لذلك أتصرف تجاهه بمنتهى الحيطة والحذر. حتى وهو ميت. لأنه لا أحد يدري ماذا يمكن أن يحصل. فرأيت من الأفضل اصطحاب ممطرتي معي.

(قهقهة)

ـ حسناً أنه فكر فينا بعض الشيء ومات في جو ماطر، ولكن كيف

ستكون الحال لو مات في جو ثلجي عاصف؟..

ـ إنه لم يفكر بنا، بل فكر في نفسه كعادته، لو مات في جو عاصف ثلجي، فلن يحضر أحد لجنازته وسيبقى بلا دفن.. من جهتي لا يمكن أن أحضر في هذا الطقس البارد.

ـ بعد أن يموت الميت ماقيمة حضورك ، أو عدم حضورك؟..

ـ لاتقل ذلك ، فعائلته لا زالت موجودة.

ـ كلامك سليم، فعندما استيقظت في الصباح شعرت بوعكة عافاكم الله. ولم يكن لي القدرة على حضور جنازة أحد حتى لو كانت جنازتي، فما بالك إذا كانت جنازة أحدهم (ضحكات). لكن لايمكن إلا أن تحضر، وكما تفضلت، صحيح أنه مات، ولكن عائلته موجودة، وسوف يقولون (انظروا) كل هذه الصداقة الحميمية ولم يحضر الجنازة..

ـ سيقولون طبعاً.

ـ مع الأسف هذه هي الحقيقة، ليس من أجل الميت، بل من أجل عائلته.

ـ انظروا إلى زوج البنت، عيونه على الجميع وكأنه يتفقد جميع الحاضرين ليعرف من حضر ومن لم يحضر.

ـ دع عنك زوج البنت وانظر إلى زوجة المرحوم، وقد أمسكت منديلها بيدها وكأنها تمسح دموعها. ولكنها في الحقيقة تحاول قراءة ماهو مكتوب على أكاليل الزهور لتعرف أسماء مرسليها!.

شيء يدعو للعجب، كيف يفكرون بمثل هذه الأمور في هذا الوقت!.

ـ على كل لقد قلت للزوجة وأقارب الميت (لكم طول البقاء).. يجب أن تقام صلاة الجنازة لكي ننصرف.

ـ ادعوا إلى الله أن ينجينا من آثار هذا البرد.

ـ وأنا أيضاً أنتظر خروج الجنازة من الجامع، لأذهب على الفور إلى بيتي.

* * *

ـ انظروا إلى قضاء الله يا أخواني. فأنا قد خاصمته منذ عشر سنوات، فمن كان يصدق أنني سأحضر جنازته.

ـ هل صحيح ما تقوله؟ لماذا تخاصمتم؟

ـ ألا تعرف أنت كيف كان هذا الرجل؟..

ـ أعرف.. أعرف جيداً.

ـ وأنا أيضاً لم تكن علاقتي معه على مايرام، ولكننا لم نكن متخاصمين.. إلا أننا لم نكن نرى بعضنا البعض كثيراً كما كنا في السابق.. كنا نلتقي بالسلام من بعيد.

ـ حتى هذا كثير عليه.

ـ أما أنا فقد جئت لأقوم بأداء واجبي ولن أحاسبه على ما فعله بي.

ـ الله يرضى عليك.

ـ خلينا نكون أحسن منه.

ـ سامحه الله على عمله، ألم يقولوا، اعمل عملاً طيباً والق به في البحر، فإذا لم يعرفه السمك سوف يعرفه الخالق.

ـ وأنا أيضاً ورغم كل تصرفاته السيئة معي، فقد تركت عملي

وجئت لأقوم بأداء الواجب الأخير وأحضر الجنازة.

ـ تقبل الله.

ـ منا جميعاً.

ـ كلنا على هذا الطريق، فنحن لم نحضر من أجله، لقد حضرنا لكي نرضي ربنا.

ـ على كل سوف لن يعلم أننا حضرنا.

ـ لكن الله يعلم.

ـ نحن أظهرنا إنسانيتنا أيضاً.

* * *

ـ هل شاهدتم ذلك الفيلم الذي قامت القيامة من أجله!..

ـ شاهدته.. إنه فيلم بذيء.

ـ لا ياعزيزي، لقد مدحته الصحف كثيراً حتى كادت أن توصله إلى السماء.

ـ من جهتي أحببت هذا الفيلم.

ـ ما الذي أعجبك فيه؟.

ـ يا عزيزي إنه يعرض منذ ثلاثة أسابيع، وفي أربع دور عرض في آن واحد.

ـ إنه فيلم إيطالي أليس كذلك؟

ـ كلا إنه فيلم أمريكي تم تصويره في إيطاليا.

ـ أفكر بالذهاب اليوم إلى السينما لمشاهدة هذا الفيلم، وقد

حضرت الجنازة الآن ولدي الوقت لموعد حفلة بعد الظهر، وأكون بذلك قد اصطدت عصفورين بحجر واحد. لأنني حضرت الجنازة واستفدت من الوقت الضائع.

ـ إنك مصيب جداً.. وأنا أفكر بمشاهدة هذا الفيلم أيضاً، لنذهب سوية إذن.

ـ كم كان جميلاً تصادفنا مع بعضنا هنا.

ـ هل لديك سيارة؟.. معنى ذلك أنني سأحضر معكم أيضاً. أرجو أن تنتظروني دقيقة واحدة لكي اقدّم العزاء لزوجته ونذهب سوية.

* * *

ـ اعتقد أن صحيفة (الميلليت) كانت على حق في هذا الموضوع.

ـ من الواضح أنكم من المؤيدين.. هل قرأت ما كتبه (متين)

ـ دع عنك هذا.. إن قلمه مأجور..

ـ عفواً أنا لا أفكر كما تفكرون انتم..

ـ طبعاً لا أنت غير ملزم بأن تفكر كما أفكر أنا، ولا أنا كما تفكر أنت. وكما قال (فرتر) أنا ضد أفكارك، ولكن من أجل أن تفصح عنها.

ـ ليس (فرتر) من قال هذا الكلام.. إنه فولتير..

ـ فرتر أو فولتير نفس الشيء.

ـ فرتر هو اسم (غوته) ياسيدي.

ـ دعونا من هذه المناقشة، أين تابوت الميت؟.

ـ إنه الثاني على اليمين.

ـ يا أخي ما أكثر الموتى في هذه الأيام؟

- إنه أمر غريب.

- ما وجه الغرابة؟..

- بالأمس كان يعيش بيننا، واليوم هو ميت!..

- لايمكن أن تكون الأمور إلا بهذا الشكل فلا يمكن أن يموت البارحة ويعيش بيننا اليوم. (قهقهات)

- معك حق يا عزيزي.. ما قلته أنا عبارة عن كلام..

(ضحكات)

* * *

- هل عرفتم أسماء الذين أرسلوا أكاليل الزهور؟..

- لقد تم إرسال اثنتين من قبل البنوك.

- وهل ترسل البنوك أكاليل زهور؟..

- لا ادري.. ربما لأنه زبونهم..

- إذا كانت البنوك سترسل أكليلاً من الزهور لكل زبون يموت، فسوف تعلن إفلاسها بعد فترة قصيرة.

- لأدري لماذا أرسلوا له.. ربما كان أحد شركاء البنك!..

(ضحكات باردة)

- لم نعد نتمكن من قراءة الكتابة فمعظم الأكاليل بقيت في الأسفل.

- هل قرأتم إعلان النعي؟. لقد نشر في أربع صحف في آن واحد.

- أنا شاهدت الإعلان في صحيفتين، ولم أشاهد باقي الصحف.. ولكن أعتقد أن هذا كثير.. إنهم حديثو نعمة!..

ـ الآن سيبدأ الصراع على الميراث.

ـ معظم الميراث سيكون من نصيب زوجته.

ـ زوجته الجديدة؟..

ـ انظروا إلى حظ هذه المرأة.

ـ لا تنظروا إلى حظها. بل إلى حظ زوجته الأولى، مسكينة لقد تحملت هذا الرجل الغليظ مدة عشرين عاماً.

(أصوات غير مفهومة.. همسات)

* * *

ـ أعرف أن المكان غير مناسب.. ماذا سأقول لك. لا أدري.

ـ ما الأمر؟.

ـ إنه مدين لي.. وكان من المفروض عليه أن يقوم بتسديد الدين في مثل هذه الأيام.

ـ يجب أن تطالب الورثة بالدين.

ـ هل لديك سندات؟.

ـ كلا.. هناك كلام وعد!..

ـ إذن سيكون الأمر صعباً.

(ضحكات)

ـ هل تعرفون سبب الوفاة؟

ـ كان مدعواً إلى أحد الولائم فأكل كثيراً.

ـ إنه مغرم بالأكل.

لابل هو مغرم بكل شيء. ليس بالأكل فقط..

ـ كيف سيموت إذن، إذا لم يكن مغرماً بكل شيء.

(ضحكات)

ـ أنا أتمنى من الله، أن لا تكون نهايتي بهذا الشكل.

ـ إن شاء الله

(قهقهات)

* * *

ـ رحمه الله فقد كان إنساناً مرحاً.

ـ لا يكترث بشيء.

ـ نعم.. صحيح.. ماذا سأقول لكم؟..

ـ قل.. قل ما تريد.

ـ كان يحب النميمة.

ـ لايقال عنها نميمة.. يقولون أنها كلام في الظهر.

ـ على أية حال. فهذا التراب سوف يستر كل شيء.

ـ كان لطيفاً، ممتازاً ولكن (حزامه فلتان) لم يترك سيدة تعمل عنده بدون أن يتحرش بها.. هل تتذكرون تلك المرأة البدينة التي كانت تعمل عنده،، كيف هربت واختبأت في خزانة الأوراق المهمة. عندما كان زوجها يلاحقها!..

(قهقهات)

ـ اذكروا محاسن موتاكم..

ـ ماذا تقصد بهذا الكلام؟..

ـ يعني يجب أن نتذكر محاسن هذا الميت.

ـ نحن لم نتكلم عنه بسوء.

ـ ياهو.. إذا تكلمنا عنه وهو حي يعتبر نميمة، وإذا تكلمنا عنه بعد مماته فيعتبر حرام، إذن متى يجب أن نتكلم؟

(ضحكات)

* * *

ـ إن الله يعلم كل شيء.. لقد تحملت منه الكثير عندما كنت في الوظيفة.. انظروا لايوجد بجانبه أحد رغم أنه ميت.

ـ لقد حضرت أنا لأجل الثواب فقط.

ـ لنا نصيب في حضور جنازته.

ـ الثواب ليس في حضور الجنازة، بل في حمل النعش.

ـ ليتركوه لي.. فأنا مستعد لأن أحمله حتى الوصول إلى المقبرة.. لا من اجل شيء!.. بل من أجل الثواب!..

ـ ولكي تكسب ثواباً أكثر يجب أن تلقي على قبره بعض ذرات التراب.

ـ سألقي عليه التراب.. لأجل الثواب.. ماهذه الدنيا؟ من كان يظن أنني سأدفن هذا الرجل والقي عليه التراب.. إيه ياربي ما أعظمك.

* * *

ـ ما الخبر؟. هل سيفوزوا بهذه الانتخابات؟.. أنا أتحداهم.

ـ التحدي موجه لك بالأصل.

ـ يا هو.. دعونا من حديث السياسة فالوقت ليس مناسباً لمثل هذه الأحاديث!..

أين ابنته؟..

ـ إنها تنلك السيدة التي ترتدي معطفاً ياقته من الفرو.

ـ هم.. م. م. إنها امرأة جميلة.. أظن أنها أرملة، أليس كذلك؟..

ـ لقد تطلقت من زوجها الثاني.

ـ لماذا ما الذي جرى.

ـ أبداً لا شيء..

* * *

ـ في مثل هذه الأيام تغيب الشمس باكراً.

ـ سأذهب بعد أن أخرج من هنا إلى شارع الخمارات، لأشرب قدحين وأتذكر المرحوم.

ـ إيه.. إن ذكرياتنا معه لا تنسى. لقد ذهبت إلى بيته في أحد الأيام فلم يكن موجوداً، فقالت لي زوجته تفضل فهو على وشك الحضور.. المهم جاء صاحبنا في الليل وكان ثملاً.. لم يراني، سألته زوجته وهي تؤنبه، أين كنت؟. فقال لها أنه كان عندي وأرغمته أن يشرب قدحاً فلم يشأ أن يكسر خاطري.. (قهقهات)

ضج جميع الحاضرين بالضحك حتى كدنا أن نموت.

ـ أ. أ. هل أنت هنا أيضاً؟.. قبلاتي يا سيدي العزيز.

ـ لقد سعدت كثيراً لرؤيتك ياسيدي.

ـ متى تقابلنا آخر مرة؟..

ـ على ما اذكر كان ذلك في جنازة أحد الأصدقاء أيضاً.

ـ لم نعد نشاهد بعضنا سوى في الجنازات، يعني. إذا لم يمت أحد الأصدقاء فلن نشاهد بعضنا.

ـ لم أكن أنوي الحضور، ولكنني حسناً فعلت. فقد رأيتك.

ـ لايمكن أن لا تأتي. فلنا صداقات مشتركة مع جميع الموجودين.. لذا فمن العيب أن لا تحضر.

ـ مسكينة تلك المرأة.

ـ أية امرأة؟..

ـ زوجته.

ـ أي واحدة، الجديدة أم القديمة؟

ـ الجديدة وأمورها جيدة.

* * *

ـ الحياة أكذوبة كبرى.. أكذوبة.

ـ سوف تحل عليك العاقبة. آجلاً أم عاجلاً.

ـ تذكرت يشار عندما أتيت على ذكر الحياة. ماذا حل به يا ترى؟.

ـ عن أي يشار تتحدث؟..

ـ عن الذي كان يلعب طاولة زهر مع المرحوم ثم تشاجرا. لم يكن اسمه يشار.

ـ ما اسمه إذن؟

ـ تورغوت.

ـ مهما كان اسمه فهذا لايهم. فأنا لم أر هذا الرجل سوى مرة واحدة. ولكنني تذكرته عندما ذكرت أنت ذلك الشيء. هل فهمت ما أقصده.... هذا يكفي.. (قهقهات).

* * *

إلى هنا تنتهي الأحاديث السرية التي تم تسجيلها بواسطة آلة التسجيل أثناء تشييع الجنازة، وفي أحد الأيام سألت ذلك الرجل العجوز المتقاعد كيف خطر على بالك القيام بعمل مثل هذه المجموعة، فأجابني بأنه كثيراً ماكان يحضر تشييع جنازات، وكان يجلب انتباهه حديث المعزّين، فخطرت له فكرة تسجيل هذه الأحاديث لأنها ستكون مثيرة للدهشة، وقد تفرغ لهذا الموضوع عندما اصبح متقاعداً. وكنت قد سألته أيضاً.

ـ ألا تفكر بنشر كتاب يضم كل هذه الأحاديث المسجلة على أشرطة التسجيل؟ لاشك أنه سيكون كتاباً جميلاً..

ـ كلا أبداً لا أفكر بمثل هذا الموضوع، حتى أنني فكرت بحرق كل هذه التسجيلات قبل موتي، وعندما تحين الفرصة لذلك.

ـ لماذا؟..

ـ لأن كل من سيقرأ هذه الأحاديث سوف يوصي بعدم تنظيم جنازة له بعد وفاته. ولكن لو كنا نعيش في بلد غني حيث تجد التجار الذين يبيعون لوازم الجنازات والشركات التي تنقل الجنازات، يحققون أرباحاً طائلة. فلا شك انهم سيدفعون لي أموالاً كثيرة لكي يمنعوا نشر مثل هذا الكتاب، لذلك فإنني سأقوم بحرق هذه الأشرطة بنفسي، وقبل أن أموت.

ـ إذن لماذا تبذل كل هذا المجهود لكي تسجل هذه الأحاديث السرية؟ مافائدة ذلك؟..

ـ الفائدة تعود علي وحدي. فأنا أسمع هذه الأشرطة الواحد تلو الآخر، وأفكر بأن أوصي بعد مماتي بدفني من دون تشيع أو جنازة. دائماً أتصور هذا الأمر، كما أتمنى أن لا يتسع قبري سواي، وأن لايعرف مكانه أحد غيري، وأن أذهب بمفردي لأدفن فيه، وأداري نفسي بنفسي، ثم ألفظ أنفاسي الأخيرة.. هذه هي كل آمالي.. وهذا أجمل موت.. حيث تموت بدون مراسم تشييع أو جنازة. فلا تسبب أي إزعاج لأحد.

لم أستطع أن أفهم منه لماذا كل هذا الجهد المبذول إذا لم يكن الهدف منه نشر الكتاب. فسألته صراحة عن السبب فقال لي.

ـ لقد استفدت كثيراً..

ـ وماذا استفدت؟..

ـ لقد علمني مرة ثانية تلك الحقيقة المعروفة جداً، والتي كنت أظن أنني أعرفها جيداً.

ـ أية حقيقة؟..

ـ حقيقة الموتى الذين يفتقدهم الناس؟

مرّ وقت طويل لم اعد أرى فيه ذلك المعلم المتقاعد، ولكنني شاهدت صورته في أحد الأيام منشورة على أحد أعمدة الصحف الواسعة الانتشار وقد كتب فوقها (البحث عن مفقود).. لقد خرج هذا المعلم المتقاعد من بيته قبل عشرة أيام ولم يعد..

○ ○ ○

٧ ـ الإضراب الكبير

كما يقول المدّاحون
«الأسماء، والأماكن تتشابه
وبعض الرجال والنساء يتشابهون
والأشياء تتشابه»
لا تعتبروا كلامي موجهاً إلى أحد.
في هذه القصة التي سأرويها
لن أذكر أسماء الأماكن والأشخاص
فاللبيب من الإشارة يفهم
أما إذا كان اللبيب غبياً
وقلت أن هذا أسبوع العيد،
سيفهم أنك تقول أرضية المنقل
وأترك الباقي لفهمكم أنتم أيها السيدات والسادة.
نحن نقول،
وانتم،
إذا أردتم أن تفهموها قضامة،
أو أرضية للمنقل..
على كل ماذا كنا نقول: الطقس في آيدن.

لنذهب إلى قونيا،
ليس في قونيا يا سيدي، قونيا، قونيا..
قونيا فين، هونيا فين
القبلة شيء، والسكَّر شيء آخر. والعصا شيء، والقش شيء آخر.
يعني حسب كلامنا القديم
لنأت إلى بيت القصيد
في إحدى البلاد..
أي بلد؟
أرجوك يا سيدي،
لقد قلت لك منذ البداية،
عندما سألتني عن الأسماء،
لا تتلاعب بالألفاظ، وتنصب لي فخاً مشبوهاً،
ولا تضع في إصبعي خاتماً مرصّعاً.
في إحدى البلاد، في أحد الأزمنة..
أي زمان؟
الله. الله!
تفهيم الكلام لصاحبنا،
أشبه بإجبار الجمل على القفز فوق الخندق،
مهما يكن الزمن،
ماذا يهمكم أنتم يا سيدي؟

هل تريدون أن نشعر، وكأن المدعي العام.
يسأل هذا السؤال؟..
في إحدى البلاد، في أحد الأزمنة.
كان هناك رجلاً غنياً جداً.
من هو؟.
لا والله!.. إنه ليس شيخ الكار.
لقد أفسدتم حكايتي الجميلة.
وكأنكم أضفتم الماء بعد أن نضج الطعام.
أو كأنكم تنامون في الوحل حتى الأذن الطويلة.
صدّقوني. سأتوقف عن سرد الحكاية.
أرجوكم كثيراً.
لا تظهروا أمامي وكأنكم عراة.
في أحد الأزمنة، في إحدى البلاد.
من زمان.. من زمن بعيد.. زمن بعيد جداً.
كان هناك رجل صناعي غني.
لا تتسع الخزائن لأمواله،
لأن المال كثير، والخزائن ضيقة.
وكان همه.
لكن انتظروا دقيقة!
همه.. هذا هو همه.

«نهضة البلاد!..

وما يخصني، أو ما يخص الشعب، شيء واحد..

يجب أن يأخذ الشعب ما يخصني.

ويكون ملكي.

ما يملكه الشعب.

حتى تنهض البلد».

وهكذا من زمان.. من زمان بعيد.. زمان بعيد جداً، قام أحد الأغنياء الذين يحبون وطنهم بإنشاء المصانع في جميع أنحاء البلاد، وأقام مؤسسات لتوزيع ما تنتجه مصانعهم من بضائع. وكان يتبعها شركات لبيع هذه البضائع. وكذلك بنوك وشركات مساهمة، وشركات محدودة وأشياء أخرى لايعلمها أحد.

وكان هذا الغني يصون حقوق العمال الذين يعملون في مصانعه، كما كان حريصاً على أن لا يذهب من حقه ولو شعرة واحدة لأحد من العمال. كان حريصاً أيضاً على أن لا يذهب أي من حقوق العامل إلى عامل آخر. وحتى لا يضيع حق أحد. كان لا يعمل في مصانعه أحد اسمه حقي، لأنه لايريد أن يأكل حقوق أحد، ولا أن يخسر أحد حقوقه، كان يطلب تغيير اسم العامل إذا كان اسمه حقي ليقبله بالعمل في أحد مصانعه، إنه صاحب حق ورجل شريف إلى أبعد الحدود.

ولكي يضمن تشغيل العمال بأقصى طاقة ممكنة، فقد وظف في مصانعه خبراء مختصين، وعلماء اجتماع، وعلماء نفسانيين، وإداريين، واقتصاديين ومهندسي تشغيل، ومهندسين اقتصاديين،

ومفاوضين، وباعة، وآخرين.. وآخرين..

إذا كان الإنسان يعرف الحب، فإنه يحب كل شيء.

يكفي أنه إنسان.

حتى يعرف الحب.

وأنت إذا كنت أيضاً إنساناً.

ستحب الناس جميعاً.

حتى يقوم مصاصو دماء البشر.

بمص دماء أصدقائهم بشكل أفضل.

وحتى هذا الغني، رب العمل.

كان يعرف الحب.

ولأنه يعرف الحب.

فلم يكن يحب وطنه فحسب.

بل كان يحب فعل الخير.

ويحب الحيوان أيضاً.

ولأنه يحب عمل الخير، فقد مدّ يد المساعدة إلى الشبان الأذكياء، المتفوقين الفقراء ليكملوا تعليمهم. فأرسلهم إلى البلاد المتقدمة على نفقته الخاصة. وحتى لا يلتحقوا بجيش المثقفين العاطلين عن العمل في الوطن.. كان لا يترك هؤلاء الشبان الجدد المتفوقين يلمعون وكأنهم خرجوا الآن من المخرطة بدون عمل، بل كان يوظفهم في مصانعه، ومصارفه، وشركاته، ومؤسساته كخبراء، ولأن هؤلاء الشبان بشر وليسوا حيوانات، فكانوا يشعرون بأنهم مدينون لهذا الرجل الطيب

القلب الذي يحب عمل الخير بالعرفان والجميل طوال حياتهم لأن ما فعله معهم هذا الإنسان لم يفعله آباؤهم معهم، وكل دين يسهل تسديده مهما كبر ماعدا دين العرفان بالجميل فتسديده صعب للغاية!..

قال أجدادنا «الكلب رغم أنه كلب فإنه يهرع إلى المكان الذي يرمى فيه الخبز» لماذا؟.. لكي يشكر سيده الذي رمى له بالخبز.. إيه.. إذا كان هذا هو فضل الكلب!.. فماذا يفعل إذا كان كلب ابن كلب؟.. ثم مابالك بأولاد الناس الذين شربوا حليب بقر غير مخلوط بالماء.

كان جميع الخبراء الذين تأهلوا بفضله مدينون لرجل الأعمال الكبير بالعرفان بالجميل، وذلك الدين الذي يصعب تسديده، كانوا يضعون أرواحهم بين أسنانهم ويعملون كالكلاب عسى أن يتمكنوا من تسديد ذلك الدين. نعم إنهم جميعاً متشابهون يلمعون وكأنهم خرجوا من المخرطة.

أتذكرون أنه في أحد الأزمنة

كان هناك عمل كثير في المصانع

والعمال يبذلون كل طاقاتهم في ذلك الوقت

يعملون ثلاث ورديات في اليوم..

العمال يعملون... ويعملون..

والمصانع تنتج البضائع.

والشعب

يتهافتون على هذه البضائع

ويتخاطفونها

ويستهلكونها بدون توقف.

وهكذا مضت السنون سنة. تلو أخرى.. ولكن كيف مضت؟.. فلكي يقولون انك عندما تشرب العرق، تكون قد أفرغت الزجاجة، وملأت بطنك.. لذلك فإن الصناعة يجب تطويرها وتنميتها باستمرار وإلا انقرضت، يجب أن تكبر وتنمو وتتطور باستمرار لتضمن البقاء.

زاد إنتاج مصانع رجل الأعمال الكبير.. فتلك التي كانت تنتج مائة، أصبح إنتاجها ألفا، والتي كان إنتاجها ألفاً أصبح مائة ألف.. لا تظنوا أنه اكتفى!.. لقد زاد إنتاجه من المائة ألف إلى المليون.. والشعب يستهلك ويستهلك، ورجل الأعمال يستمر في مضاعفة إنتاجه.. ولا تظنوا أنه اكتفى.. لقد أصبح إنتاج المعامل مائة مليون بدلاً من المليون. ولكن الشعب!.. اكتفى، لم يعد يستهلك ما تنتجه المصانع فأصبح إنتاجها يفوق الاستهلاك.. لم يتوقف إنتاج المعامل ولكن استهلاك الشعب يتضاءل مع الأسف.. بناء عليه فكر هؤلاء والخبراء الذين درسوا وتعلموا في البلاد الراقية على نفقة ذلك الرجل والذين كانوا في ذروة نشوئهم وكأنهم قد خرجوا الآن من المخرطة فكروا بطريقة للخروج من هذه المشكلة فقرروا ما يلي:

عدم توقف الإنتاج.

زيادة استهلاك الشعب.

كانت الأسواق الخارجية مغلقة في وجه تلك البضائع، والحكومة لا تستطيع القيام باتصالات جديدة لفتح أسواق جديدة. وكأن عمل

هذه الحكومات من أجل أصحاب المصانع فقط!.. سنريهم.. نعم سوف يرون.. دعهم يرون.

امتلأت المستودعات والمخازن بالبضائع التي لم تسوّق ولم تباع.

يمكن البيع بالتقسيط.. وهذا من شانه تصريف قسم ضئيل من البضائع.. جيد، ولكن وفقاً للإحصائيات التي أجريت من قبل خبراء رجال الأعمال، فإن كل بيت من بيوت هذا الوطن يحتوي على قطعتين من إنتاج مصانع رجل الأعمال الكبير، ما العمل؟.. فكروا في الأمر فقرروا أن يطوروا النموذج ليلزموا الناس والبيوت الصغيرة على شراء قطعتين من كل نموذج منتج. حسناً ولكن أين سيضع زبائننا الكرام القطعة الثالثة؟..

فكروا بتخفيض الأسعار، ولكن هذا غير ممكن فأسعار المواد الأولية بارتفاع مستمر. بالإضافة إلى أن تخفيض الأسعار سوف يؤثر كثيراً على العمال في المجالات الأخرى وخفض الأسعار هنا، سوف يفسد العمل في الطرف الآخر. ثم إن بيع البضائع بأسعار مخفضة مقبول، ولكنه مؤقت. لأنه لايمكن الاستمرار في تخفيض الأسعار.

امتلأت المستودعات، والأقبية، والمخازن. البضائع بدأت تفقد قيمتها ورجل الأعمال الغني يتألم.

كان الخبراء قد أوجدوا اسماً لهذه البضائع المكدسة

ذلك الداهية ذو اللحية ماركس،

كان يقول عن هذه الحالة «فائض الإنتاج»

هل هو فائض الإنتاج؟.. أمان انتبهوا فهناك قول آخر لذلك الداهية

ذو اللحية، ماهو؟.. إنه يشبه ذلك الكلام!.. هه إنها القيمة المضافة.. أمان دعونا من القيمة المضافة. فأنا راض بفائض الإنتاج.

كان كل ما يخشاه رجل الأعمال الكبير أن يصبح مثل الملك «ميداس» بمعنى أن كل ما يلمسه يصبح ذهباً. فكان يخشى من التبول، ومات بعد أن خنقته كتل الذهب. كذلك فإن رجل الأعمال الكبير كان يخشى من الموت وسط فائض الإنتاج.

إضافة إلى فائض الإنتاج، بدأ العمال بالاحتجاج، فهم يطالبون زيادة أجورهم وتنظيم عقد اجتماعي جديد. لم يكن التوقيت مناسباً لمثل هذه الطلبات. فموقف الرجل كان ضعيفاً.. عليكم اللعنة أيها العمال.. يا خسارة التعب!.. كبرّنا الغراب، ففقأ أعيننا.

بدأ رجل الأعمال الكبير يضرب صدره بقبضته ويقول «هل هذا جزائي.. أنا الإنسان الذي يحب عمل الخير والذي فتح لكم أبواب مصانعه لتعملوا؟.. أيتها الكلاب الجائعة» كان يقول هذا الكلام لنفسه، ويقول أيضاً، لابد من أن يجد الخبراء والمختصون مخرجاً لهذه الأزمة «لقد صرفت بوزنكم مالاً حتى تخرجتم.. أمن أجل هذا.. لم أستفد منكم بشيء، فالوضع سيء للغاية والبضائع تكدست وأصبحت بالية».

لم يتأخر الخبراء عن دفع حقوق العمال حتى لا يقوموا بالإضراب.

وكما قال أجدادنا: «اليد العليا خير من اليد السفلى».. هناك رجال أعمال أكبر بكثير من هذا الرجل في البلاد المتقدمة والمتطورة والتي درس فيها خبراءه. اتصل رجل الأعمال الغني جداً بكبار رجال

الأعمال في تلك البلاد وأرسل لهم برقية عاجلة يقول فيها: «الحقونا فنحن نغرق».

كان رجال الأعمال في تلك البلاد المتقدمة لايريدون لرجل الأعمال أن يغرق فهو مدين لهم. وهم شركاؤه.. أخذ منهم قروضاً. بالإضافة إلى أن لديه ارتباطات كثيرة معهم. لذلك أرسلوا له كبير الخبراء لديهم حيث وضعت أمامه جميع الوثائق والأرقام، والبيانات، والجداول وقالوا له «سنغرق إذا زاد الإنتاج) وسوف نغرق أيضاً إذا لم يزد الإنتاج، وسنغرق إذا أقفلنا أو لم نقفل المصانع. وإذا أعطينا العمال حقوقهم سوف نغرق، وإذا لم نمنحهم حقوقهم فإنهم سيقومون بالإضراب وعندها سوف نغرق تماماً.

بعد أن أعطى خبراء الرجل الكبير الغني هذا التقرير، التفت رجل الأعمال الغني جداً وسأل الخبير «قل لنا من فضلك.. ماذا علينا أن نفعل؟..»

كانت جميع المعلومات والوثائق، والخلاصات والبيانات أمام ذلك الخبير الأجنبي وعندما كان الخبراء المحليون يقومون بشرح الأوضاع كان الخبير الأجنبي يدخن غليونه بمنتهى برودة الأعصاب لدرجة تجعلك تنفجر، ثم بدأت خطوط الدم الباردة التي تذوب كالزبدة عندما تتعرض للحرارة، فانفرجت أساريره، وابتسم، مظهراً عدم المبالاة، بعد ذلك بدا بالضحك ثم بالقهقهة، ثم مسك خاصرته واستمر في الضحك حتى كادت الدموع تنفر من عينيه. دهش رجل الأعمال الكبير وخبراؤه من منظر هذا الخبير الأجنبي، الذي كاد أن يموت من الضحك، ولم يعرفوا ماذا أصابه هل جن؟.. تابع الضحك

ثم ألقى بنفسه على المقعد ومسح دموعه بمنديله، ثم توقف عن الضحك وقال:

«حسناً ماذا تريدون مني الآن؟.. ولماذا استدعيتموني دون نتيجة؟.. إن المخرج الذي تبحثون عنه هو بين أيديكم فأنتم لا تعلمون..» وبعد ذلك التفت إلى الخبراء الشباب وأضاف:

(لقد درّسنا لكم كل هذه الأمور، معنى ذلك أن جهودنا ذهبت هباءً. مع الأسف لم تفهموا ما درستموه في بلادنا عن تاريخ العمال والنقابات.. يعني أن عمالكم يرغبون في الإضراب أليس كذلك؟..»

فقال رجل الأعمال الكبير وهو يلعن ويشتم العمال بأقذع الكلام.

«نعم هؤلاء السفلة يريدون الإضراب عن العمل في الوقت الذي نحن فيه على وشك الغرق ورغم كل هذه الظروف الصعبة التي نعاني منها».

عند ذلك قال كبير الخبراء الأجنبي:

«أنا لم أر في حياتي العملية، عمالاً يحبون رب عملهم إلى هذه الدرجة!.. إن عمالكم يريدون مساعدتكم..»

عند ذلك تذكر الخبراء المحليون، واستغربوا كيف أنهم لم يفكروا بهذا الأمر من قبل حتى لا يكلفوا هذا الخبير الأجنبي عناء السفر. لم يُضع الخبير الأجنبي أكثر من خمس دقائق من وقته فركب الطائرة وعاد في نفس اليوم. لقد ذهب لنجدة رجال أعمال آخرين يعانون من مشاكل مع العمال في بلاد أخرى.

تذكر الخبراء المحليون الدروس التي تلقونها في الخارج: مادام العمال يريدون الإضراب إذن لابد من دس بعض المحرضين لتشجيع العمال

على الإضراب على أن يكون هؤلاء العمال من أكثر العمال حماساً، فيجب أن تنطلق أصواتهم كما تنطلق القذيفة، وان تخرج كلمة «إضراب» من فمهم كالشرر المتطاير، ويجب أن يكون هؤلاء في المقدمة.

النقابة تريد الإضراب، والنقابيون يقولون أن «الإضراب هو سلاح العمال الوحيد».

في هذه الأثناء خرج أحد الصحفيين المساكين ليقول:

«أمان.. لا تقوموا بالإضراب.. فهذا الوقت غير مناسب أبداً. فكيف ستقومون بالإضراب في الوقت الذي تُخلع في أسنان أرباب العمل!.. إنكم تغامرون، تغامرون بأنفسكم.. صحيح أن الإضراب هو سلاح العامل الوحيد ولكن ليس من أجل أن يقتل نفسه».

ولكن النقابيين أسكتوه بعد أن أخذ ما فيه النصيب.. أيها الخونة.. يا أعداء العمال. يا من تريدون القضاء على الإضراب!..

كان رجل الأعمال الكبير يصدر أوامره إلى جميع المصانع ليتصرف ممثلوا أرباب العمل وكأنهم لا يريدون هذا الإضراب. ولكن من طرف آخر كان رجل الأعمال الكبير: يعطي التعليمات اللازمة للصحف، والإذاعة، والتلفزيون، ليقوموا بدعم وتأييد الإضراب وتأييد حقوق العمال.

وأخيراً انتصرت النقابة وبدأ الإضراب.. شيء عظيم ومشهد رائع، فالشبان الصغار والفتيان، والفتيات، وضعوا شارات على صدورهم، تفيد بأن مهمتهم هي حفظ النظام، وكل فئة اختصت بقسم من الإضراب لتكون مسؤولة عنه. وكان العمال الشجعان في المؤخرة،

متكاتفين متضامنين، اختلطت أصوات الطبول والزمور بأصوات الأغاني والرقصات الشعبية. بعد ذلك قام العمال بوضع حلل الطعام على النار ليعدوا الطعام لأنفسهم. وكانت المشرفات على الإضراب يجلبن الأكل للعمال وزوجاتهم وأولادهم، كما كانوا يحملون إليهم المحبة ويرفعون من معنوياتهم وكنت ترى في بعض الأحيان عاملاً وزوجته مناوبان في نفس الوقت، وأحياناً تكون المرأة حاملاً أو على صدرها طفلاً. كانت إحدى المناوبات تقول لزوجها: «اصمد أيها الرجل، قاوم، فأنا اقف وراء ظهرك».

أما النساء الغنيات في هذه المدينة الكبيرة فقد ركبن سياراتهن الخاصة وذهبن ووقفن أمام المصانع لكي يشاهدن منظر الإضراب الرائع. وقد أجهش بعضهن بالبكاء من جراء تأثرهن بمنظر الإضراب، فمنهن من أخرجت منديلها الحريري، ومنهن من أخرجت منديلاً ورقياً ليمسحن دموعهن، وكم كان الموقف محزناً فقد أفسدت الزينة وجوههن، واختلطت الدموع باللعاب، والمخاط. كما تجمع الصحفيون وبدأوا بالتقاط صور الإضراب، وكان في تلك البلاد شعراء فطاحل جاؤوا إلى هذه المدينة الكبيرة تأييداً للإضراب. وليستلهم العمال من أشعارهم ما سوف يكتبونه على (اليافطات) كشعارات. أما الكتّاب فحدث ولاحرج. فقد جاءوا أيضاً تأييداً للإضراب. وكانوا يقرأون القصص والأشعار الحماسية على العمال المضربين. في مثل هذا الجو الحماسي لابد أن يخسر أرباب العمل المعركة.

لنترك هذا المشهد الرائع الذي تدمع العيون لمشاهدته، ولنذهب لنرى رجل الأعمال الكبير.. حيث جلس خلف مكتبه وقد أحاط به

الخبراء والإداريون منذ أسبوعين يراقبون الوضع بصمت. وكانت مهمتهم الانتظار فقط!.. لكنهم لم ينتظروا طويلاً، لأن الحياة يجب أن تستمر، فقد بدا الناس إقامة منشآت جديدة ومن أجل إقامتها كانوا يحتاجون إلى البضائع التي تنتجها هذه المصانع التي شلّها الإضراب.

الناس يتزوجون، ويفتحون بيوتاً جديدة، لذلك هم بحاجة إلى البضائع التي تنتجها هذه المصانع التي شلّها الإضراب.

الحياة لا تتوقف، والناس يعيشون وينتقلون من مكان إلى آخر، يأكلون، يلبسون، ولأجل أن يقوموا بكل هذه الأمور فإنهم يحتاجون إلى السلع التي تنتجها تلك المصانع التي شلها الإضراب.

كانت جميع السلع التي وزعت في السوق قبل الإضراب، قد نفذت من الأسواق خلال أسبوعين، وبدأ أفراد الشعب يبحثون بلهفة عن تلك السلع فلا يجدونها.

كان رد الفعل الذي جاء على لسان مديروا هذه المصانع هو كما يلي:

«تعلمون أن مصانعنا مضربة عن للعمل، لذلك فلا نستطيع آسفين أن نخرج أي بضاعة..».

مضى أسبوع آخر. والأسواق خالية من البضاعة.

عندها دعا خبراء المصانع المضربة عن العمل. الوكلاء والموزعون الرئيسيون وأبلغوهم بمنتهى اللطف بأنهم سيعطونهم جزءاً من فائض الإنتاج لمواجهة احتياجات السوق.. ولكن بما انهم لا يمكنهم التكهن عن مدة استمرار الإضراب، وبما أن ليس لديهم سلعاً كامنة، لذلك

لابد من زيادة الأسعار. فقد طلبوا من الموزعين الرئيسيين أن يبلغوا الموزعين في المحافظات وبدورهم يبلغون بائعي الجملة، ومن ثم بائعي المفرق بالحقائق التي أدت إلى ارتفاع الأسعار.

كان رد فعل الوكلاء والموزعون الرئيسيون كما يلي:

«الشعب ينتظر وجود السلع في الأسواق، ونحن أيضاً مللنا من فقدانها ثم إن الزبائن تريد الحصول على قطعة من هذه السلع مهما كان الثمن، فالأسعار ليست مهمة، لذلك فإن زيادة الأسعار هو من حقكم ومن حقنا والشعب يعلم ذلك».

بدأوا تفريغ فائض الإنتاج الذي ملأ العنابر والمستودعات، وزادت الأسعار بنسبة مائة في المائة، فرح الموزعون والوكلاء والباعة وفرح الشعب أكثر عندما وجد البضاعة في الأسواق، أما رجل الأعمال الكبير فقد فرح أكثر من الجميع، لأن الأموال كانت تأتيه كالمطر بدون تشغيل مصانعه. وكان يتوقف بين الحين والآخر عن تزويد السوق بالبضاعة حين تنفذ الأسواق، فيقوم بزيادة الأسعار من جديد، ومن ثم إغراق السوق بالبضائع.

قام الخبراء بحساب كمية البضائع المكدسة في العنابر والمستودعات فوجدوا أنها تكفي حاجة السوق لمدة ثلاث سنوات على الأقل، حتى ولو قاموا بزيادة الأسعار كل ستة أشهر.

إنها ثلاث سنوات.. النقابة لا يمكن أن تصمد لمدة ثلاث سنوات، أما رجل الأعمال الكبير فقد حقق مكاسب عديدة.. أهمها بيع جميع البضائع المكدسة، ثانياً زادت أرباحه، ثالثاً منح الآلات استراحة للتخفيف من تكاليف الصيانة والإصلاح. رابعاً: تخلص من دفع أجور

العمال. خامساً وهو الأهم: غرق النقابة وإفلاسها لاتخاذها قرار الإضراب. وهي مضطرة لدفع أجور العمال المضربين.. كان الخبراء على إطلاع تام بالأحوال الموجودة في صندوق النقابة، ويعرفون أن هذه الأموال لا تكفي إلا لسنة واحدة. لذلك فإن هذه النقابة لابد أن تنهار بإذن الله وكرمه.

كاد رجل الأعمال الكبير أن يطير من الفرح.

أما في الطرف المقابل فقد كان رئيس النقابة يصرخ للصحفيين قائلاً:

«سنجعل أصحاب المصانع يركعون، وسوف ننتزع حقوقنا».

أصبحت الساحات أمام المصانع المضربة أماكن للنزهة، فكان الناس يتدفقون إليها ليشجعوا العمال الأبطال ويصفقون لهم. وفي نفس الوقت يشترون البضائع التي أنتجتها هذه المصانع والتي تضاعف سعرها خمس مرات. كانوا يقولون للعمال (يعيش) نحن معكم ونؤيدكم من قلوبنا. يصفقون لهم فيرد العمال عليهم بالمثل. كان أكثر ما يلفت النظر هو أن ابنة رجل الأعمال وزوجها كانا من بين الناس الذين يزورون العمال المضربين، كانوا يذهبون باستمرار ليتفقدوا العمال ويتألمون لأحوالهم، إنهم مهذبون جداً، ولطفاء، ومميزين، يشجعون المشرفين على الإضراب ويزرفون الدموع في بعض الأحيان. لكنهم كانوا يخشون من أن يعلم رجل الأعمال الكبير بمجيئهم إلى هنا، وقد كانت خشيتهم في محلها فقد علم رجل الأعمال الكبير بمجيء ابنته وزوجها إلى مكان الإضراب. علماً بأنهما من أصحاب الشركات ضمن مجموعة هذا الغني الكبير.

وفي أحد الأيام وبعد تناول طعام العشاء اجتمعت العائلة فقال لهم رجل الأعمال الكبير «لقد علمت أنكم تزورون العمال المضربين باستمرار!..»

احمر وجه الابنة واصفر لون زوجها.

تابع رجل الأعمال حديثه «لقد فرحت كثيراً لهذا التصرف.. حسناً فعلتم.. كنت أنتظر منكم مثل هذا التصرف».

هل كان يسخر منهم؟.. أبداً فقد قال لهم أيضاً: «ذلك العمل شيء وهذا العمل شيء آخر.. فالإنسان يحتاج في بعض الأحيان للحزن، أو التأثر، أو حتى البكاء. فنحن أيضاً لنا قلوب.. وكثيراً ما خطر لي أن أقوم بنفسي بزيارة مكان الإضراب لأقوم بتشجيع للعمال والتصفيق لهم، ولكنني أخشى أن يتعرفون عليّ.

فصاحت ابنته قائلة «لا.. أرجوك يا أبي.. إياك أن تفكر بالذهاب!..» كانت تخشى من ذهاب والدها الى مكان الإضراب لأنه سوف يسمع هناك الألفاظ البذيئة والهتافات المضادة، أو يقرأ اليافطات المعادية، وهي لا تريد أن يرى والدها هذه الأشياء. لكن رجل الأعمال الكبير أجابها بطريقة تتناسب مع رحابة صدره فقال لها:

«من احترق قلبه فله العذر فيما يقول يا عزيزتي. وهؤلاء قلوبهم محروقة فلهم الحق في أن يقولوا ما يشاؤون لكي يفرجوا عما يجيش في صدورهم.

تعجب زوج الابنة من تفكير عمه الهادئ فقال: « أ. أ... ماهذا التسامح؟..» مضى الصيف، وجاء البرد، وبدأت الأمطار تتساقط، ولم

تعد النقابة قادرة على دفع أجور العمال كاملة فأصبحت تدفع لهم نصف أجورهم.

أصبح الجو بارداً، وبدأت الثلوج بالتساقط، وأصبحت خيام المشرفين على الإضراب أشبه بخيام جيوش نابليون المقهورة بعد انسحابها من موسكو. كما اهترأت واتسخت تلك الأقمشة التي كتب عليها الشعارات والهتافات.

لم تعد النقابة قادرة على أن تدفع حتى نصف الأجرة. وحسبما كتبت الصحف فإنهم لا يمكنهم أن يدفعوا أكثر من ثلث الأجور. علم رجل الأعمال الكبير هذا الخبر الحزين فسأل ابنته وصهره.

«هل تتبرعون للعمال عندما تذهبون إلى مكان الإضراب؟..» يجب أن تتبرعوا لهم.. إنهم عمالي المساكين.»

أخيراً حضر بعض العمال إلى المشرفين على العمل وطلبوا منهم العودة إلى العمل، كما انسحب بعض العمال من النقابة وانضم إلى نقابة أخرى مضادة.

وقع المشرفون على النقابات في حيرة. فالنقابات تتمزق، وهذا يجعلهم يخسرون كل شيء، حتى رواتبهم الشهرية.

لم يعد بإمكان النقابة دفع أجور العمال المضربين، لكن النقابيين كانوا يأخذون رواتبهم بشكل كامل.. فهم يعتقدون أن هذا الرجل الكبير سوف يعلن إفلاسه إذا توقفت مصانعه عن العمل.. لكنه صمد.. كيف؟.. لابد أن خسارته قد تجاوزت المليارات. فليس بالأمر السهل، أن تتوقف كل هذه المصانع، دون أن ينهار هذا الرجل.. ولكنهم لم يستطيعوا التحمل والصمود أكثر من ذلك،

حتى وإن تحمل هو. لذلك قاموا بالبحث عن وسطاء.

كان الخبراء قد أعطوا تقريراً لهذا الرجل الغني، انه لازال لديهم بضائع في المستودعات لذلك قالوا للوسطاء:

«لازال الوقت مبكراً..»

مضى فصل الشتاء القارس، وبدأت أمطار الربيع، فأرسل رجل الأعمال الكبير خبراً للوسطاء يقول فيه:

«أنا على استعداد لأن أدفع لهم ثلث أجرهم السابق، فإذا كانوا موافقين فلينهوا إضرابهم وليجلسوا لكي نقوم بتنظيم اتفاق جماعي معهم».

هرع الخبراء مجدداً إلى رب العمل عند سماعهم هذا الخبر وقالوا له:

«أمان يا سيدي. إن البضائع لم تنته بعد، فكيف تقوم بتنظيم اتفاق جماعي؟..»

عندها قال رجل الأعمال الكبير:

«ياهو.. هل ماتت الإنسانية، لتبقى بعض البضائع في المستودعات..»

يا له من رجل يحب الإنسانية!..

ثم أضاف رجل الأعمال:

إذا انتظرنا حتى انتهاء البضائع، فإن النقابة ستكون قد انتهت قبل ذلك بكثير.. فكيف سأجد مثل هذه النقابة فيما بعد؟.. أنا سأحتاج لمثلها عندما يصبح لدي فائض إنتاج.

اجتمع ممثلوا النقابات مع ممثلي أرباب العمل، وجلسوا على طاولة التفاهم الجماعي وتفاهموا، وعاد العمال فرحين إلى مصانعهم ودارت الآلات.

بعد ذلك أرسل رئيس النقابة بياناً للصحف جاء فيه:

«نتيجة للإضراب الكبير الذي ضم أكبر حشد من العمال في تاريخ هذا الوطن، فقد حقق العمال نصراً كبيراً وأخذوا جميع حقوقهم.

أما رجل الأعمال فلم يصرح بكلمة للصحف!.. لأن الكلام إذا لم يكن محله فلا لزوم له.. لقد تم كل شيء على ما يرام.

فهم رب العمل الدرس، وعرف كيف يجب أن يتصرف في المرة القادمة عندما يصبح لديه فائضاً في الإنتاج، أما النقابة فلم تأخذ درساً.. لكنها انتصرت.

فاللبيب من الإشارة يفهم
إلا إذا كان غبياً
وقلت أن هذا أسبوع العيد
سيفهم انك تقول أرضية المنقل
نحن نقول
واترك الباقي لفهمكم أنتم أيها السيدات والسادة

○ ○ ○

٨ ـ الدخول في الحكومة

في قديم الزمان كانت هنالك بلاد. ومازالت موجودة حتى الآن وفيها حكومة كما في البلاد الأخرى. ومازالت الحكومة موجودة حتى الآن. بعض الحكومات في هذا العالم تغرق في الديون وليس لديها المال. مشاريع كثيرة ولا تجد قروضاً لتنفيذها. تملك الفحم والماء ولكن لا تملك الطاقة. لديها وسائط نقل وليس لديها طرقات، لديها مرضى، ولاتملك العلاج. لديها عاطلون عن العمل، وليس لديها فرص للعمل. عندها مدارس. ولكن دون معلمين. بعض البلاد فيها تلاميذ ولكنهم لا يتعلمون. ولم نر على مر العصور أن بلاداً بدون حكومة، ولها حكومة وعاصمة أيضاً. وحتى الآن مازالت عاصمتها قائمة.

في تلك البلاد شخصية عظيمة لامثيل لها في سائر البلاد. هذه الشخصية هي عظيم العظماء، هذا العظيم بنى لنفسه مسكناً بعيداً عن العاصمة. على إحدى قمم الجبال العالية التي يصعب الوصول إليها. الصخور في تلك القمم تبدو وكأنها واقفة تشمخ برؤوسها إلى السماء. تحيط بها الغابات. ويلفها السحاب والضباب. وعظيم العظماء يعيش وحيداً على هذه القمة الشاهقة، لاولد ولا أحد معه، يقوم بكل أعماله بنفسه. لا يحب الذهاب إلى المدينة أو الاختلاط بزحامها. كان قوياً رغم تقدمه في السن، لايمكن تقدير عمره. ربما مائة، أو مائتين، أو ثلاثمائة. فهو بحالة جيدة في عهد هذه الحكومة. كذلك في عهد الحكومة السابقة، والحكومة التي قبلها، والحكومات

التي سبقتها أيضاً. ولازال يعيش حتى الآن. ولنأت على سبب ذكر تاريخ حياة هذا الرجل!.. فالسبب هو أن جميع الحكومات في هذه البلاد عندما كانت تفشل في حل مشاكل المواطنين. ومشاكل البلاد. ويفقد المواطنون جميع آمالهم، وتضيق بهم الحال ويشعرون بالضغط كانت الحكومة تلجأ إلى عظيم العظماء الذي يعيش فوق تلك القمة العالية. لتطلب منه النصح والإرشاد فيقوم هذا الرجل بإيجاد الحلول لأصعب المشاكل فيرشدها إلى الطريق الصحيح. استمرت الأمور على هذا المنوال سنوات طويلة ولا زالت مستمرة على نفس الأساليب.

كانت البلاد في ذلك الزمان تعاني من الضيق كما أقدم الحكومات. فقد أصبحت الحياة لا تطاق، ولم تتمكن الحكومة من إيجاد المخرج اللازم لحل المشاكل التي تعاني منها. لذلك قررت الذهاب إلى عظيم العظماء كما كانت تفعل الحكومات السابقة ليرشدها إلى الطريق الصحيح. لم يكن اتخاذ القرار بالذهاب أمراً سهلاً فالذهاب إلى عظيم العظماء فيه مشقة عظيمة. حين يتطلب الأمر شهوراً لقطع الصحارى الطويلة، وهبوط المنحدرات العالية، وتسلق الجبال. وصعود القمم العالية. للوصول إلى تلك القمة الشامخة في ذلك الجبل الشاهق، ولكن مهما كانت الصعوبات فهم مرغمون على الذهاب إلى ذلك العظيم للحصول منه على النصح والمشورة، لذلك أخذوا تلك المشقة في عين الاعتبار وانطلق الموكب المؤلف من رئيس الوزراء والوزراء بأسرع وسائط النقل، وحسب قول البعض فان وسائط النقل قطعت الطريق في ثلاثة أيام وثلاث ليال، وقال البعض أنها سبع ليال، والبعض الآخر أربعين يوماً وأربعين ليلة. حتى وصلوا إلى أماكن لم تطأها عجلات من قبل ولا أثر فيها لطريق، هناك ركبوا

على ظهر الخيول. ثلاثة أيام، وثلاث ليال وحسب قول البعض استمروا على ظهر الخيل سبعة أيام، وسبع ليال، والبعض قال أنهم استغرقوا أربعين يوماً وأربعين ليلة وهم يتسلقون السفوح العالية والجبال، حتى وصلوا إلى مكان مليء بالنباتات الشائكة فلم تعد الخيل قادرة على متابعة سيرها لأن نعالها ذابت، وأظافرها تقصفت. وسقطت على الأرض. عند ذلك نزل رئيس الوزراء والوزراء من على ظهر خيولهم وركبوا على ظهور البغال. ثلاثة أيام وثلاث ليال وحسب قول البعض أنهم بقوا سبعة أيام وسبع ليال. وحسب قول البعض أربعين يوماً وأربعين ليلة. بعد ذلك توقفت البغال عن المسير لأنها وصلت إلى مكان مليء بالنباتات الشائكة. وإلى حدود السفوح العمودية التي لا تستطيع تسلقها. عند ذلك ترجل رئيس الوزراء والوزراء من على ظهور البغال وبدأوا السير في الجبال في أماكن لم تطأها قدم إنسان واستمروا في سيرهم حتى ذابت أحذيتهم وتقطعت ألسنتهم، وأصبحوا شبه عراة. وحسب قول البعض فقد استغرقوا في سيرهم ثلاثة أيام وثلاث ليال. وحسب كلام البعض الآخر سبعة أيام وسبع ليال. وحسب قول البعض الآخر أربعين يوماً وأربعين ليلة. ساروا في أماكن خطرة مسكونة بالجن والشياطين، وصعدوا الجبال وتسلقوا الأماكن الوعرة حتى وصلوا إلى تلك القمة العالية التي يسكنها عظيم العظماء بمفرده ومثلوا أمام حضرته وهم حفاة عراة. وقفوا باحترام. وشرحوا وضع البلاد السيء وقالوا كل ما يجول في رؤوسهم. ثم سألوه النصح والإرشاد، عندها قال لهم عظيم العظماء:

«يجب أن تسرعوا لتلحقوا الزمن. يجب أن تكونوا كالزمن، تتسابقون معه. لاتنسوا الماضي أبداً ولكن اتركوا مامضى للماضي.

وخذوا منه دفعاً للتقدم نحو المستقبل. اتركوا العمل اليدوي الذي تجاوزه الزمن، وانتقلوا إلى عصر الآلة يجب أن تضيفوا قوتكم إلى قوة الطبيعة... يجب أن لا تكونوا تحت إمرة الطبيعة بل يجب أن تذللوها لتكون طوع إرادتكم. وعليكم أن تستثمروا الطبيعة بدون أن تستهلكوها. ويجب أن يتم ذلك بالتخطيط والدراسة. وإلا فسوف تكونوا كالعبيد المتمردين فتنتقم الطبيعة منكم. لاترغموا الخروف أن يصبح ذئباً. لأن الطبيعة بقدر ما هي رائعة محبوبة بقدر ما يكون انتقامها قاسياً. لا تذبحوا الدجاجة التي تبيض ذهباً، ولاتربوا دجاجاً لا يبيض. لا تعضوا الأيادي التي ستقبلونها. ولا تقبلوا الأيادي التي ستعضونها. لا توسخوا في الطبق الذي تأكلون منه. ولا تأكلوا من الطبق الذي سوف تنجسونه.. يجب أن تتخلصوا من مخلفات الماكينات التي ستعملون عليها لأن هذه الماكينات كالإنسان والحيوان لها فضلات. وكلما عملت هذه الماكينات زادت فضلاتها. لذا يجب عليكم أن تطمروا نفاياتها. وإذا لم تفعلوا كما أقول لكم. فسوف تنتقم الطبيعة منكم. وسيكون انتقامها قاسياً جداً.. لأنكم ستدفنون وسط القاذورات والنفايات حتى أنوفكم وتموتوا خنقاً.

قبّل رئيس الوزراء والوزراء يدي عظيم العظماء وغادروا المكان. وكما تحملوا المشقة والصعاب عند مجيئهم تحملوها في العودة أيضاً إلى أن وصلوا إلى العاصمة. وأرادوا أن ينفذوا كل ما أوصاهم به عظيم العظماء. ولكنهم فعلوا كما فعلت الحكومات السابقة. فلم ينفذوا من كلام عظيم العظماء سوى النصف. فكانوا ينفذون ما يروق لهم ويحجمون عن تنفيذ الباقي. فمثلاً فعلوا مثلما قال لهم ذلك الرجل «اتركوا العمل اليدوي، وانتقلوا إلى عصر الآلة» ولكنهم لم

يصدقوا أن الماكينات تترك فضلات فهي ليست إنسان وليست حيوان حتى تترك مخلفات. نهضت البلاد كثيراً وتطورت.

مضى زمن وجاء زمن آخر. وتغيرت عدة حكومات في تلك البلاد. تضايق رئيس الوزراء الجديد فتوجه مع وزرائه في نفس الطريق الذي سلكته الحكومات السابقة. ساروا الطرقات وتسلقوا الهضاب والجبال العالية حتى وصلوا إلى تلك القمة العالية وطلبوا النصح والإرشاد من عظيم العظماء. فقال لهم عظيم العظماء:

«يجب أن تنتجوا بقدر ما تستهلكون. ولا تستهلكوا أكثر مما تنتجون. يجب أن يكون هناك توازناً بين الإنتاج والاستهلاك. يجب أن تشيّدوا مدناً ضخمة وتزينوها بالمصانع.

وعليكم أن لاتنقلوا القرية إلى المدينة، بل يجب أن تنقلوا المدينة إلى القرية.

وإلا فستغرقون في أقذاركم وتسممون أنفسكم.. يجب أن لا تنسوا أن مصانعكم قد تفسد الطبيعة.. فحافظوا على نظافة الوديان والبحار والبحيرات، والشواطئ، يجب أن تحافظوا على نظافة الآبار.. حاولوا التخلص من الفضلات التي تخلفها المعامل إما بحرقها أو دفنها في الأعماق. وإلا فإن النفايات التي ستتراكم في الوديان سوف تملأ البحار والبحيرات وتقضي على الثروة السمكية نهائياً».

قبّل رئيس الوزراء والوزراء يدي عظيم العظماء وغادروا المكان، وقاموا بتنفيذ نصف ما أوصاهم به عظيم العظماء، فنفذوا ما يتفق مع أهوائهم، فشيدوا المدن الجديدة وزينوها بالمصانع، ووسعوا المدن القديمة وتدفق القرويون على المدن.

مضى زمن وجاء زمن آخر، وكما سبق فقد وقعت حكومة ذلك الزمان في مأزق فأخذت صعوبة الطريق نصب أعينها، وصعد رئيس الوزراء الجديد إلى تلك القمة العالية في ذلك الجبل الشاهق ووصلوا إلى عظيم العظماء، وبعد أن عرّفوا بأنفسهم قال لهم عظيم العظماء:

«لكي تحلوا أزمة المواصلات يجب أن تستعملوا وسائط نقل متنوعة، وتقوموا بفتح الطرقات اللازمة. ولكن احذروا فكما أن الإنسان والحيوان يصدر غازات كذلك وسائط النقل تصدر غازات وروائح كريهة فيتلوث الجو. لذلك يجب أن يتلاءم عدد وسائط النقل مع عدد السكان وإلا سوف تتعرضون للزحام حتى لايبقى لديكم مكان لتقفوا عليه. ولن تستطيعوا الحركة من المكان الذي وقفتم عليه لتذهبوا إلى مكان آخر. لا تقيموا مدنكم في أجود المناطق الزراعية لكي لا تقضوا على الطبيعة ولن تقدروا على تمييز ظلام الليل من ظلام الدخان والغبار. ولن تنتج بعد ذلك أراضيكم اي محصول، وسوف تغرقوا في القاذورات. وتعمى عيونكم من المرض».

كانت كل حكومة يتعرض رئيسها ووزراؤها إلى مشاكل تذهب إلى عظيم العظماء لتأخذ منه النصح والإرشاد وتعود بعد ذلك لتنفذ الأمور السهلة من التوصيات وتترك الصعب منها كان عظيم العظماء يقول لهم ناصحاً:

«وإلا سوف يخرج من صدور الأمهات سماً بدل الحليب. وسوف ترضع الأمهات أطفالها سموماً بدلاً من الحليب. وسوف تتنشقون الدخان عوضاً عن الهواء. وستتدفق القاذورات وتصبح الأزقة

كالوديان. يجب أن تقيموا المنشآت من أجل معالجة فضلات الإنسان. ولكن انتبهوا أولاً إلى البنى التحتية، فيجب أن تكون متناسبة مع حاجة المجتمع. وإلا فإن المساكن التي أقمتموها من الكتل الإسمنتية سوف تمتص البرد في أيام الشتاء، والحر في أيام الصيف، فتهب عليكم الرياح الساخنة في ليالي الصيف والرياح الباردة في الشتاء. وسوف يمتص ذلك الحزام الإسفلتي الذي يكسو الطرقات بحرارته برودة الجو. فيشوي جلودكم بحرارته في الصيف. ويجمدكم في الشتاء. يجب أن تتركوا أماكن للتنفس في المدن.. ساحات فارغة، حدائق. وإلا سيأتي يوم تتسلقون فيه قمم الأعمدة لتجلسوا عليها من أجل التخلص من أقذار المدينة. يجب أن تدركوا أن الأمور تكون سهلة في بدايتها ولكن لابد أن تخلف المشاكل في النهاية. حتى أشجار الفاكهة التي سوف تزودونها بالسماد الصناعي رغم كبر أثمارها، ومنظرها الجميل إلا أنها ستفقد طعمها ونكهتها. والدجاج الذي سيتغذى بالعلف الصناعي، سوف يبيض أكثر، والبقر سيدر حليباً أكثر، ولكن البيض سيفقد لونه، والحليب طعمه. حتى الشباب الذين يتغذون بالفيتامينات الصناعية سيكونون أطول وأعرض ولكنهم سوف يصبحون كالفاكهة التي تتغذى بالأسمدة الصناعية أو كحليب أو لحم الأبقار التي تعيش على العلف الصناعي، بدون طعم أو نكهة».

كانت كل حكومة تنفذ بعض مايقوله عظيم العظماء وتحجم عن تنفيذ الباقي. وقد تبين لهم في نهاية الأمر أن جميع ما قاله عظيم العظماء المتربع على تلك القمة العالية في ذلك الجبل الشامخ، صحيح. فالعيش أصبح مستحيلاً في المدينة، والطرقات لا يمكن السير عليها. كثرت وسائط النقل حتى اشتد زحامها وضعفت حركتها، ولم يعد

بالإمكان تمييز الأبيض من الأسود من كثرة الغازات المنبعثة من وسائط النقل. وأصبح حليب الأمهات الذي يرضعه الأطفال كالسم. وأصبحت الطرقات الإسفلتية والأبنية الأسمنتية مصدراً لضخ الحرارة المحرقة، والبرد القارس، فلا يسبح السمك في البحار. ولا يطير الطير في السماء. وسوف يصنع الأغنياء أعمدة ويغرسونها في الأرض كي يتسلقوا فوقها ويعشعشوا فوق رؤوسها كالطيور ليتخلصوا من قذارة المدينة. وسوف يشدون الحبال بين تلك الأعمدة ليتنقلوا بينها وسيصبح ما كان سهلاً في زمن ما صعباً للغاية. وأخيراً تضطر حكومة ذلك الزمن برئيسها ووزرائها لركوب أسرع وسائط النقل ثلاثة أيام وثلاثة ليال وحسب قول البعض سبعة أيام وسبعة ليال. وحسب قول البعض الآخر أربعين يوماً وأربعين ليلة. وبعدها يركبون على ظهر الخيول. ثم على ظهر البغال وأخيراً سيراً على الأقدام حتى تذوب أحذيتهم وتتقطع ألبستهم ويصبحون شبه عراة. حتى يصلوا إلى تلك القمة العالية في ذلك الجبل الشامخ فيدخلون إلى عظيم العظماء لكي يقولوا له يا مستشارنا العظيم. لقد جئنا إليك، كما كان يأتي إليك من سبقنا من الحكومات وبعد أن ضاقت بنا الأمور طالبين منك النصح والإرشاد، لقد تجشمنا الأهوال والصعاب و عبرنا الوديان والسهول والهضاب والجبال حتى وصلنا إليك. وأنت لا زلت تسكن لوحدك في هذه القمة العالية. على هذا الجبل الشامخ!.. ألم يصبك الملل من هذه الحياة... بدون أن يكون لديك حتى من يرعى شؤونك. لقد فكرنا وتشاورنا في الأمر وقررنا أن نأخذك لتعيش بيننا. عندها سيصبح الوصول إليك سهلاً. وسوف تسير الأمور في البلاد بشكل أفضل!.. لنذهب معاً إلى العاصمة. سنشيد لك قصراً ضخماً فيها. وسيكون

بإمرتك عدد كبير من الفتيات والغلمان. هيا بنا.. تفضل. لنذهب سوية!..

وبعد أن فكر عظيم العظماء قال لهم:

«دعوني استشير. وبعد ذلك سأعطيكم قراري!».

نظر رئيس الوزراء والوزراء في وجوه بعضهم باستغراب فمن هو هذا الشخص الذي سوف يستشيره هذا العظيم. في الوقت الذي يتحملون كل تلك الأعباء والصعاب لكي يستشيروا هذا الإنسان العظيم. لينصحهم ويرشدهم إلى الطريق الصحيح.

سأله رئيس الوزراء:

«كيف يمكن لسيادتكم أن يستشير إنساناً آخر».

فأجاب الرجل العظيم:

«نعم أنا أستشير..»

رجع رئيس الوزراء والوزراء من نفس الطريق التي أتوا منها إلى العاصمة، ثم عادوا بعد مدة ليعرفوا قرار عظيم العظماء، وبعد أن مثلوا بين يديه سألوه عن قراره.

رفع عظيم العظماء رأسه إلى الأعلى إشارة إلى الرفض وقال:

«لايمكن» لقد استشرت، فجاء الجواب بالرفض.

عندها سأله رئيس الوزراء:

«نرجو المعذرة.. إنسان عظيم مثلك من يمكن أن يستشير؟..»

عندها قال لهم ذلك الرجل العظيم:

«أنا لدي قوى خارقة. أستطيع أن أكلم الأشياء التي ليس لها روح

وأسألها. فتنطق هذه الأشياء ويصبح لها لساناً وتتكلم معي وتعطيني الجواب»

فأجاب عظيم العظماء على سؤال رئيس الوزراء على الشكل التالي:

«هذا الصباح دخلت بيت الخلاء.. فتذكرت موضوع دعوتكم لي إلى العاصمة عندها سألت ما خرج مني وقلت له «إن الحكومة تريد أن تأخذني إلى العاصمة لكي أعيش بينهم. ما رأيك هل أذهب لأنضم إليهم؟..»

فتح رئيس الوزراء عينيه وسأل بدهشة:

«معنى ذلك أنكم استشرتم الغائط!.. وماذا قالت لكم الغائط!..»

أجاب عظيم العظماء:

قالت لي ما يلي: إنك تراني الآن وأنا على هذه الحالة، ولكنني لم أكن كذلك قبل أن ادخل في جوفك، كنت عنباً قطفت عناقيده من أجود الكروم. فأكلتني.

فانظر إلى الحال الذي أصبحت عليه. كنت شراباً معتقاً من أجود الأصناف فشربتني وهكذا كانت النتيجة. كنت سنابل ذهبية في الحقل جمعتني وطحنتني وصنعت من الطحين خبزاً ثم أكلت الخبز. فانظر كيف أصبحت آخر الأمر.. كنت ماءً صافياً كالزلال، شربتني وهكذا أصبحت. وكنت سفرجلة أو رمانة أو تفاحة أو برقوقاً في البستان لا نظير لمذاقي فأكلتني، فانظر في أي حال تركتني. وبعد ذلك تأتي لتسألني عن رأيي في ذهابك إلى المدينة ودخولك في الحكومة أو انضمامك إلى الوزراء!.. إذا كنت أنا الماء الزلال الصافي،

والسنابل الذهبية، والتفاح والسفرجل، والرمان أصبحت على هذا الوضع بعد أن دخلت جوف إنسان عظيم لذلك فكر بما قلته لك واتخذ قرارك بنفسك».

ثم سكت عظيم العظماء برهة وأضاف:

«لن انضم إليكم. لأنكم توسختم لدرجة يصعب فيها العيش معكم، أو في مدينتكم. لذا لن أدخل بينكم».

○ ○ ○

٩ ـ يوميات سفير في سَدُوم

يعتبر السفراء ممثلين لبلادهم في الدول الأخرى. وهذا التمثيل هو العمل الرسمي الواضح لهم. لكن معظمهم لديه أعمال سرِّية، وهو عمل مخابراتي أو ما يعرف بالجاسوسية. وخارج نطاق هذين العملين هناك بعض السفراء يزاولون أعمالاً ثقافية. فهم يُعرّفون سكان البلاد التي يعملون بها، عن حضارة بلادهم وعاداتها، وتاريخها، كما يقومون بتنظيم أياماً ثقافية. ويقومون بعمل أبحاث وكتابة مقالات. وأحياناً ينظمون الرحلات.. بعض السفراء يقومون بهذه الأعمال رغم انهم غير موظفين في الأصل، وإنما يقومون بها كهواية. لشعورهم بأن شيئاً ما يشدهم نحو ذلك العمل، أما أهم عمل يمكن أن يقوموا به خارج نطاق وظيفتهم فهو جمع الوثائق التاريخية. هذه الوثائق تشكل دوماً إضاءات على التاريخ.

ولقد اكتشفنا أثناء عملنا في الأرشيف واحدة من الوثائق النادرة والقيمة. والتي بقيت سراً طوال هذه المدة. الوثيقة عبارة عن يوميات كتبها أحد السفراء أثناء وجوده في سدوم. ولأنه لم يكن للآلات الكاتبة وجود في ذلك الزمان فقد كتب السفير تلك المذكرات بخط يده. ولكن مع الأسف لم يكشف لنا ذلك السفير في مذكراته أية دولة كان يمثل!... وهذا أمر طبيعي لأن اليوميات التي كتبها هي يوميات خاصة به. لذا فإن الأمر سيبدو سخيفاً لو كتب إلى أي دولة ينتمي. وهانحن نسلط الأضواء الآن ولأول مرة على يوميات السفير

في سدوم. ورغم أن اليوميات طويلة جداً إلا أننا اخترنا لكم الأقسام التي رأينا فيها ما يشد الانتباه وهي كما يلي:

التاريخ: الأول من آذار عام ١٩٧ قبل الميلاد(**).

كنت مهتماً منذ مدة ببلاد سدوم وعمورة. لكثرة ما سمعت عنها من قصص وخرافات، هذه الخرافات التي ملأت مسامع الناس، وصلت إلى بلادنا. لذلك كان لدى جميع موظفي وزارة خارجيتنا يرغبون العمل في إحدى سفارات بلاد سدوم وعمورة. وكانوا يبذلون جهدهم لتمثيل بلادهم هناك. وبالأخص في السفارة. حتى أن البعض كان يدخل في صراع غير شريف مع وزير الخارجية من أجل أن يكون سفيراً في سدوم.

وأخيراً تم تعييني في سفارة سدوم، لذلك كانت الغيرة خفيفة الوقع على الكثيرين، ويعود الفضل لزوجتي في الحصول على هذه الوظيفة. ولأن زوجتي ساعدتني!.. فقد كثرت الوشايات ضدي. فأرى أن من واجب كل إنسان عامل أن يأخذ من التاريخ دروساً وعبراً، فعندما أرسلتُ زوجتي إلى وزير الخارجية من أجل تعييني في سفارة سدوم، كنت بدأت بقراءة عدة صفحات من التاريخ القديم لأكون على دراسة ومعرفة وأستقي منه الدروس والعبر(**).

«..لما كان سام ابن مائة سنة ولد ارفكشاد. لسنتين بعد الطوفان وعاش سام بعدما ولد ارفكشاد خمس مئة سنة بنيناً وبنات. وعاش أرفكشاد خمساً وثلاثين سنة وولد شالح، وعاش أرفكشاد بعدما ولد شالح أربعمائة سنة وثلاث سنين ولد فيها بنين وبنات. وعاش شالح ثلاثين سنة وولد عابر وعابر ولد فالج، وفالج ولد رعو ورعو ولد سروج،

وسروج ولد ناحور، وناحور ولد تاراح، وتاراح ولد أبرام وناحور وهاران. وهاران ولد لوطا واتخذ ابرام وناحور لهما امرأتين، اسم امرأة أبرام ساراي واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران، أخذ تارح أبرام ابنه ولوط ابن هاران وخرج بهم من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. وكان جوع في الأرض. فهبط أبرام إلى مصر لينزل هناك، إذ اشتد الجوع في الأرض، فلما قارب أن يدخل مصر قال لساراي امرأته: أنا أعلم أنك امرأة جميلة المنظر. فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويشبقونك. فقولي إنك أختي. وحتى يُحسن إليّ بسببك وتحيا نفسي من أجلك. ولما دخل أبرام مصر رأى المصريون أن المرأة حسنة جداً. ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأخذت المرأة إلى بيته. فأحسن إلى أبرام بسببها. فصار له غنم، وبقر. وحمير. وعبيد وإماء وأتان(*) وجمال. فضرب الرب فرعون وأهله ضربات عظيمة، بسبب ساراي امرأة ابرام فاستدعى فرعون أبرام وقال له ماذا صنعت بي لماذا لم تعلمني أنها امرأتك؟ لم قلت هي أختي حتى أخذتها لتكون لي امرأة. والآن ها امرأتك خذها وامض.».

هذا طبقاً لما جاء في الكتاب المقدس، وهذه أول حادثة قوادة يسجلها التاريخ. ربما حصلت قبل ذلك حوادث مماثلة إلا أن التاريخ لم يذكرها بمثل هذا الوضوح. فإذا كان إبراهيم ذلك النبي العظيم، قد قال عن زوجته أنها أخته. مقابل أن يأخذ الغنم والبقر والحمير والعبيد والجواري والأتان. وتركها تذهب إلى أحضان فرعون، فلماذا لا أرسل إذن أنا العبد المسكين زوجتي إلى وزير الخارجية. فأنا العبد الصغير لا أساوي شيئاً بالنسبة إلى النبي إبراهيم. لذلك فليمت في غيظه من يغار مني. قد تم توقيع قرار تعييني في سفارة سدوم من قبل أعضاء

الحكومة. وسوف نسافر قريباً.

التاريخ: ٦ أيار عام ١٩٧ قبل الميلاد.

استغرقت رحلتنا أكثر من شهرين أمضينا قسماً منها ونحن نركب في عربات البريد أو على ظهور الخيل، أو البغال، أو الحمير، وأمضينا الخمسة عشر يوماً الأخيرة من رحلتنا على ظهور الجمال مع إحدى القوافل. وصلنا إلى سدوم التي تقع في أغوار الأردن. كان بناء سفارتنا في موقع جميل في سدوم. غداً سوف نذهب إلى القصر لكي نقدّم أوراق اعتمادنا إلى ملك سدوم.

كنت قرأت قبل المجيء إلى هنا كتباً كثيرة عن سدوم وعن ملكها. حتى عن النبي لوط الذي عاش في سدوم. لقد عرّفَتْ كتب التاريخ سدوم ولوط على النحو التالي(*):

«فشخص إبرام من مصر هو وامرأته وكل ما له ولوط معه إلى الجنوب. وكان إبرام غنياً جداً في الماشية والفضة والذهب.. وكان أيضاً للوط السائر مع إبرام غنم وبقر وخيام. فلم يحتمل ضيق الأرض أن يقيما معاً. إذ كان مالهما كثيراً. فكانت خصومة رعاة ماشية إبرام ورعاة ماشية لوط. فقال إبرام للوط لا تكن خصومة بيني وبينك ولا بين رعاتي ورعاتك إنما نحن رجلان إخوان. أليست الأرض كلها بين يديك اعتزل عني إما إلى الشمال فأتماين عنك وإما إلى اليمين فأتياسر.

(*) نلاحظ أن اليوميات التي كتبها سفير سدوم تتمتع ببعد النظر، فقد أرخ السفير مذكراته بقبل الميلاد أي في القرن التاسع عشر ق.م بمعنى أنه كان يعلم بمجيء المسيح قبل تسعة عشر قرناً.

(**) الإصحاح الحادي عشر والثاني عشر من يفر التكوين العهد القديم.

فرفع لوط طرفه ورأى كل بقعة الأردن فإذا جميعها سقي قبل أن دمّر الرب سدوم وعمورة كجنة الرب مثل أرض مصر. فاختار لوط لنفسه كل بقعة الأردن، وارتحل إلى المشرق واعتزل كل واحد صاحبه فأقام ابرام في أرض كنعان، وأقام لوط في مدن البقعة وخيم إلى سدوم.

لقد تعلمت الكثير من الكتب التي قرأتها عن النبي لوط وعن سدوم التي كانت موطناً له. لأن الشرط الأول لأي موظف يريد أن يصبح سفيراً في دولة ما. هو قراءة تاريخ تلك البلاد جيداً.

التاريخ: ٤ حزيران عام ١٩٧ قبل الميلاد.

علمت قبل المجيء إلى هنا. أن اللواط والفحش قد عمّ سدوم وعمورة. لكنني لم اكن أتصور انه بالدرجة التي شاهدتها. لذلك كانت وحشتي كبيرة جداً لما رأيته. كانوا قد منعوا تصوير الأفلام الإباحية. كي لا تنحدر أخلاق الشعب، وأقاموا رقابة صارمة على ذلك. مع هذا فإن أكثر الأفلام إباحية المصورة سراً كانت متوفرة في تلك البلاد.. وأشهر مطرب نال إعجاب جماهير سدوم، وطبعت صورته على بطاقات، هو شاب أجرد لاتعرف إن كان رجلاً أم امرأة. وكان جميع أفراد الشعب رجالاً ونساءً في سدوم. معجبين بهذا المطرب وجميعهم يبدي تأسفه ويقول: «لقد ضاعت الأخلاق». ذات مرة كتبت الصحف أن ملك سدوم قرر إيفاد هذا الشاب الأجرد إلى بلاد ثانية كسفير للثقافة و«فنان الشعب». كان الجميع يتذمر من

(*) أتان هي أنثى الحمار، لماذا أتى على ذكر أنثى الحمار عندما ذكرت الحمير في الوقت الذي لم يذكر فيه اناث باقي الحيوانات البقر، الغنم، الظاهر أن هناك حكمة من ذكر كلمة أنثى الحمار.

تدهور الأخلاق. وخاصة اللواطة، ولم تكن اللواطة عادة فردية. بل كانت شائعة في أوساط المجتمع. كلما تقدم ذلك المطرب في العمر. كانوا يجدون مكانه صبياً آخر حتى ولو لم يكن ذا صوت جميل. فينشرون صورته في الصحف وهو يرتدي لباس النساء العاريات. لقد كان وجود صبي مطرب في سدوم مطلباً جماهيرياً. كانوا يستبدلون المطرب عندما يكبر بصبي آخر يلبسونه الألبسة النسائية المغرية. ليظهر في التلفزيون بعد انتهاء برنامج الواعظ الديني وهو يتمختر في مشيته ويسير بغنج ودلال حانياً رأسه. ثم يبدأ بهز مؤخرته وينطلق في الغناء.

كان في وسط المدينة ساحة يتوسطها تمثال، القوادون يقفون هناك ويعترضون المارة ويحسبونهم من الأمريكان فيقولون «سير.. ووديو لايك نايس كيرل» وهم يروحون عن الفتيات. وإذا فهموا أنهم ليسوا أميركان كانوا يبدلون كلامهم. فيقولون «لدينا غلمان كالفستق..».

رغم جميع هذه الرذائل والفحشاء واللواط. التي سيطرت على الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون، والسينما، إلا أن الشعب كان لايتوقف عن إبداء أسفه على الشرف والأخلاق. وكنت تجد في سدوم أكثر الناس شذوذاً على سطح الأرض. وأكبر مثال على ذلك ما كنت تراه وأنت تمر في شارع اسمه «شارع الاستقلال» حيث جميع المحلات وأماكن التسلية، والنوادي الليلية. تحمل أسماء أجنبية.. كتبت من اليسار إلى اليمين. فجاء الاستقلال معكوساً!.. لكنهم كانوا لا يتوقفون عن ترديد كلمات العفة والشرف والأخلاق. وفي الأزقة الجانبية لشارع الاستقلال كنت ترى بعد منتصف الليل المتسولين من

(*) الإصحاح الثالث عشر من سفر التكوين. العهد القديم ١.

الأطفال الصغار بعمر ثلاثة عشر عاماً يطلبون النقود من الرجال المتقدمين في السن والذين يصادف مرورهم من هناك. فإذا لم يحصلوا على النقود التي يرغبونها كانوا يصرخون «الحقونا إن هذا الرجل يريد الاعتداء علينا» فيهب الشرطي أو الحارس القريب من المكان. ويأخذ الولد والرجل إلى المخفر ليتقدم الولد بالشكوى اللازمة.. يشعر الرجل بالموقف الحرج فهو رب عائلة وأب لعدة أولاد ومن اجل أن يتخلص من هذا الافتراء الذي يمكن أن يلطخ سمعته يقوم بدفع الرشوة إلى الشرطي أو الحارس. وبعد أن يضع الشرطي الرشوة في جيبه يعود الصبي من جديد إلى المكان الذي كان يقف فيه لينصب كميناً لصيد آخر.

كنت ترى الفتيات والفتيان في كل مكان في سدوم يتنزهون بمفردهم. ويحضنون بعضهم ويرددون الأغاني الشعبية

يقبلني بقبل فيه

فإن حبك أطيب من الخمر

اجذبني وراءك فنجري

قد أدخلني الملك أخاديره فتبتهج بك

ونفرح ذاكرين حبك الذي هو أطيب من الخمر

إن المستقيمين يحبونك

...

إذا كان الملك في مُتكأه

أفاح نارديني عُرْفه

حبيبي باقة مرّ لي
بين ثديي سبيتُهُ
حبيبي عنقود فاغية لي في كروم عين جدي
جميلة أنت يا خليلتي
جميلة أنت وعيناك كحمامتين
كالسوسنة بين الشوك كذلك خليلتي بين النبات
كالتفاحة في أشجار الغابة كذلك حبيبي بين البنين
قد اشتهيت فجلست في ظله وثمره حلو في حلقي
أدخلني بيت خمره ورأيته عليّ المحبة
اسندوني بأقراص من الزبيب قووني بالتفاح فقد أسقمني الحب
شماله تحت رأسي
ويمينه تعانقني
جميلة أنت يا خليلتي جميلة أنت وعيناك كحمامتين من وراء نقابك
شفتاك كسمط من القرمز خداك لفلقة رمانة من وراء نقابك
ثدياك كخشفي ظبية توأمين يرعيان بين السوسن
شفتاك تقطران شهداً أيها العروس وتحت لسانك عسل ولبن

كنت ترى جميع أهالي سدوم. الكبار والصغار، والفتيان والفتيات، وحتى الأطفال الصغار يرددون مثل هذه الأغنية. في كل مكان وفي كل الأوقات.

التاريخ: ١٩ تموز عام ١٩٧ قبل الميلاد.

مما يدعو للدهشة أن جميع الناس الذين يعيشون في سدوم كانوا غارقين في الملذات والمسرات حتى آذانهم، ولكن ما كان يدعو للحيرة أكثر هو تعودهم على هذا النمط من الحياة حتى أصبحوا يرونها أمراً طبيعياً جداً.. ولكن مما لاشك فيه أنك هنا سوف تشعر بالدهشة في كل شيء تقع عليه عيناك. فمثلاً أنك ستندهش عندما ترى السيارات تقف على الأرصفة والناس يسيرون وسط الشارع. مكان السيارات. لكن أهالي سدوم لايرون في هذه المخالفة ما يستحق الدهشة ويرون أنها أمر طبيعي.

كانت دولة سدوم غارقة في ديونها الخارجية حتى رأسها. وبينما كانت الدول تقوم بشراء الجرارات والشاحنات، والأوتوبيسات من الخارج. قامت بإنشاء عدد من مصانع السيارات في البلاد بآن واحد، ولكي تبيع إنتاجها من السيارات. فقد نجحت في جعل الشعب مهووساً باقتنائها، فأصبح كل فرد من سكان سدوم حريصاً على شراء سيارة من تلك السيارات التي استوردت قطعها من الخارج وتم جمعها في مصانع البلاد.

أنتجت تلك المصانع سيارات كثيرة لدرجة أن طرقات سدوم لم تعد تتسع لكل هذا العدد. لكن أهالي سدوم لم يعد بإمكانهم التخلي عن اقتناء سيارة خاصة. وأصبحوا يشعرون بالحاجة الماسة إليها. فحتى السيدات كنّ يخرجن بسياراتهن الخاصة للقيام بنزهات. وكانوا يقولون أن السيارة الخاصة هي من ضرورات الحياة وخاصة بالنسبة للإنسان المتمدن، يتجولون بها في الأزقة حتى وإن لم يكن لديهن رغبة بالنزهة. وكأنهن اصطحبن كلابهن في نزهة!.. فالسيارة يجب

أن لا يطول وقوفها وإلا فإنها ستتعطل. فهم يقومون بعمل نزهة لسياراتهن الخاصة.

كان أول مصنع للسيارات أنشئ في سدوم، من مدخرات الهنود ويعتقد الشعب بأن رأسمال هذا المصنع هو «رأسمال وطني» لكن الشركات الأجنبية دخلت شريكاً في هذه المؤسسة الوطنية ليزيدوا من هوس أهالي سدوم في السيارات.. فأنشأوا مصنعاً آخر للسيارات بحيث اصبح العرسان الشباب يتوقفون عن إنجاب الأطفال ويعملون ليلاً ونهاراً ليوفّروا ثمن السيارة. وكانت السيارات التي تنتجها المصانع لا تباع نقداً!.. يبيعونها بالتقسيط وبأسعار غالية جداً ليستفيد الوسطاء والوكلاء.

لكن أهالي سدوم لم يأبهوا لهذا الجنون بل على العكس فكانوا ينظرون لمن يقول «أن على المصنع التوقف عن إنتاج السيارات الصغيرة وتحويل إنتاجه إلى جرارات وشاحنات وحافلات للنقل» على أنه إنسان مجون. لم تعد طرقات سدوم تستوعب هذا العدد من السيارات الخاصة. وفي الوقت الذي كانت السيارة تفيد في اختصار الزمن عندما ترغب في الذهاب إلى مكان ما بسرعة، أصبحت مدعاة للتأخير من شدة الازدحام حيث تفضّل في أكثر الأحيان عدم الذهاب بالسيارة!.. بالأمس ركبت سيارة أجرة وقلت للسائق «ألا تستطيع أن تسرع أكثر ؟..» فقال لي يمكننا أن نصل أسرع ولكن لمن سأترك السيارة» لم يستطع أهالي سدوم المجانين أن يفهموا أن حافلة نقل واحدة يمكنها أن تحل مكان عشرين سيارة خاصة تقف خلف بعضها، إضافة إلى أن حافلة النقل تعطي راحة أكبر للركاب. وتصبح الشوارع

أقل ازدحاماً.

من المعروف أن سدوم تنتج أجود أنواع التبغ في العالم، وتعتبر في مقدمة الدول المصدرة له، إلا أنك لا تجد في سدوم سكائر محلية الصنع. ولا يعتبر أهالي سدوم أن هذا غير طبيعي ويشكل خللاً في البلاد.. بالمقابل كنت ترى دخان التهريب يباع علناً في الشوارع. وفي بعض الأحيان يتم القبض على البائعين من قبل رجال الشرطة الذين يدخنون سكائر التهريب. ويساقوا إلى المدعي العام الذي يدخن سكائر التهريب، ثم إلى قاضي التحقيق الذي يدخن سكائر تهريب. ويلقى بهم في السجون التي يتعاطى فيها مدراء السجون سكائر التهريب ليتم إصلاحهم. أما سكان سدوم الذين فقدوا عقولهم فلا يعتبرون أن هنالك مشكلة وأن الأمور عادية وطبيعية جداً.

التاريخ: ٢٦ حزيران عام ١٩٧ قبل الميلاد.

رغم أن بعض سكان سدوم يفضلون البضاعة الوطنية على البضائع المهربة. إلا أنهم تعودوا على شراء البضائع المهربة. لدرجة بدأوا فيها بوضع علامة أجنبية على البضائع المنتجة محلياً ليتمكنوا من بيعها. لقد تعود أهالي سدوم على شراء البضائع المهربة لدرجة أنك لو بعت غائطاً مغلفاً بغلاف أنيق على أساس أنه غائط أجنبي مهرب فسوف يهرع الناس لشرائه حتى بدون أن يعرفوا ماذا سيفعلون به، وقد يأكلونه، ومن ثم يعتادون عليه. وعندها سوف تنشأ أزمة عدم توفر الغائط في الأسواق، ويعانون من هذه المشكلة.

البارحة كنا نتحدث مع أحد سكان سدوم العاملين في السفارة. وكنا نقول له إن سدوم هي من أكثر البلاد التي تباع فيها بضائع

مهربة، يعلن المهربون عن مصدر البضاعة المهربة بأعلى أصواتهم، فقال لي ذلك السدومي، إن المهربين غشاشين، يخدعون أفراد الشعب لأنهم يبيعون البضائع المحلية على أنها بضائع مهربة.. وهكذا فلا يمكنك أن تسمع مفهوماً عن الغش مغايراً لكل المفاهيم في أي مكان آخر!..

لا أستطيع أن أفهم لماذا يصر بعض الآباء على إرسال أطفالهم إلى المدارس، علماً بأن هؤلاء الأطفال الذين هم في سن الطفولة يمارسون أعمال التهريب والسوق السوداء. ويربحون في اليوم ما يفوق الراتب الشهري للمعلم، أو القائم مقام، أو حتى القاضي.

التاريخ: ١٤ تموز عام ١٩٧ قبل الميلاد

رجال سدوم يفتخرون برجولتهم ويتحدثون عنها دائماً، وهم لا يعتبرون أن عرض مظاهر الرجولة أمر سخيف. وأن الرجل غير مضطر لأن يثبت رجولته أو يشهرها أمام الملأ. كان هذا شيئاً غير مفهوم بالنسبة لي. ولكن بعض الأجانب يقولون إن مرد ذلك هو الشبق الجنسي الذي زاد عن حده لديهم.

كان مقياس الرجولة هو أن لا تترك رماداً في المنقل، وهم يقولون بافتخار أن الرجل الفحل «لايترك رماداً في المنقل» لم أكن اعرف ما هو المقصود بـ «لا يترك رماداً في المنقل» ولكنني فهمت ذلك فيما بعد.

قوة رجال سدوم لها مقياس خاص لدى حكماء سدوم، يؤخذ الرجل الذي ستقاس رجولته إلى غرفة المعاينة، ويطلب إليه أن يخلع بنطاله، ثم يضعون في أرض الغرفة منقلاً مملوءاً بالرماد، ويطلب من الرجل الذي يريدون معاينة فحولته أن يأخذ وضعية الجلوس فوق

المنقل، وبمجرد أن يقول له الحكيم.

ـ اضرط.. يجب أن يضرط.

والرجال الأقوياء عندما يضرطون يتطاير الرماد من المنقل حسب شدة الضرطة. وكلما كان الرجل قوياً زادت كمية الرماد المتطاير من المنقل. أي أن تطاير الرماد يتناسب طرداً مع درجة الفحولة. وعندما أرادوا فحص بعض الفتيان. كان معظم الذين تقدموا إلى الفحص إما أن (ضرتهم) لم تُسمع، أو أن شدة الصوت الذي كانوا يصدرونه لا يكفي لتطاير الرماد من المنقل، وهكذا يفهمون بأنهم لم يصبحوا رجالاً بعد. بعض الرجال كان يأخذ علامة تامة نتيجة المعاينة لأن الرماد الذي كان في المنقل يتطاير كله. لهذا السبب يمتدحون مثل هؤلاء الرجال ويقولون عنهم أنهم «عندما يضرطون لايتركون رماداً في المنقل» بعد ذلك حذفت كلمة «الضرطة» لأن تداول هذه الكلمة غير لائق وبدأوا يكتفون بالقول حين يمتدحون الرجل: «لايترك رماداً في المنقل».

كان الحكماء يقومون بوزن الرماد المتطاير بعد إجراء فحص الرجولة. ويعطون تقريراً بذلك.

ولكن معظم سكان سدوم لايعرفون من أين أتى هذا التعبير «لايترك رماداً» ولكنهم كانوا يستعملونه مؤخراً من أجل السخرية فقط.

كان يتوجب على كل من يرغب في إثبات فحولته ورجولته وشجاعته في سدوم عليه.أن يجتاز اختبار الرماد في المنقل، حتى أن ملك سدوم، والمدعي العام، وكبار رجال الدولة. اجتازوا بنجاح هذا الاختبار وتبين انهم أصحاء. إلا أن هناك البعض يقومون بإجراء بعض

العمليات قبل إجراء فحص الرجولة لكي يضمنوا نجاحهم!..

التاريخ: ٤ أيلول عام ١٩٧ قبل الميلاد.

كان المسؤولون في سدوم متمسكون بالفضيلة إلى أبعد الحدود. وكانوا يؤيدون (النهضة المعنوية) لذلك منعوا بشدة دخول المطبوعات الخلاعية. وقد ظهرت آثار هذا المنع فوراً. لم تعد الصحف والمجلات تنشر صور الفتيات العاريات!..بل كانت تنشر صورهن بعد أن تضع خطوطاً سوداء عريضة فوق الثديين وأعلى الفخذين. لقد جلبت هذه النقاط السوداء نظر الرجال إلى جسم المرأة اكثر من ذي قبل. وكأن هذه الخطوط السوداء التي وضعت لتغطي هذه الأماكن، عبارة عن الأسهم التي تكتب على الطريق لكي تشير إلى اتجاه السير وعليها عبارة «الاتجاه من هنا».

كما وُضعت رقابة شديدة على الأفلام الإباحية محافظة على الأخلاق. الرقابة أصبحت صارمة في سدوم وهي أكثر صرامة من أية رقابة في بلد آخر. ورغم ذلك كان تعرض في دور السينما في سدوم أرذل الأفلام. بالإضافة إلى أن كثيراً من البيوت تقتني مثل هذه الأفلام.

بالأمس شاهدت أحد أعضاء لجنة الرقابة ممن اعرفهم. فسألني هل ترغب في أن تحضر مع لجنة الرقابة عرض أحد الأفلام؟.. فقلت له أتمنى ذلك. ذهبت معه لمشاهدة أحد الأفلام التي كانت تعرض عرضاً خاصاً أمام اللجنة. كانت لجنة الرقابة مؤلفة من سبعة أشخاص. وكنت أنا بمثابة ضيف على اللجنة. كان من بين أعضاء هذه اللجنة شاب عمره بين ستة عشر وسبعة عشر عاماً. استغربت وجود هذا

الشاب بين هذه اللجنة واعتبرت أن ذلك أمراً غير طبيعي. ولكن الأمور مختلفة في سدوم، فهم يرون أن جميع الأمور طبيعية، حتى وإن بدت غير طبيعية للآخرين.

أطفئت الأنوار وبدا عرض الفيلم. بعد قليل ظهرت امرأة نصف عارية، فمدّ أحد أعضاء اللجنة يده إلى ما بين فخذي الشاب. ثم سحب يده بعد قليل بدأت المرأة تقبل الرجل، فمد هذا الرجل الذي تجاوز الستين من عمره يده مرة ثانية إلى ما بين فخذي الشاب، ثم سحبها. كان هذا الرجل يمد يده بين فخذي الغلام كلما ظهر منظر فاضح على الشاشة.

ورغم أن مثل هذه الحركات شائعة في سدوم إلا أنني انزعجت لرؤيتها. فسألت عضو لجنة الرقابة التي ستعطي قرارها بالسماح بعرض الفيلم والذي اصطحبني معه، عن ذلك الرجل الذي كان يدس يده بين فخذي الفتى. فقال لي: إن هذا الرجل هو رئيس لجنة المراقبة، ولما سألته إذا كان لدى هذا الرجل شذوذ جنسي فأجابني:

ـ أبداً إنه رجل شريف، فهو لم يترك ذرة رماد في المنقل عندما خضع للمعاينة.

فسألته:

ـ إذا كان شريفاً لهذه الدرجة فلماذا كان يدس يده بين فخذي الفتى أثناء عرض الفيلم.؟؟ فقال لي الرجل الذي جاء بي إلى هنا.

لقد سألتني في السابق عن الطريقة التي نختبر فيها الفيلم، لكي نعرف فيما إذا كان فيلماً مستهجناً أم لا. إن رئيس اللجنة لايريد أن يعطي قراره على غير وجه حق، لذلك وكما تقاس درجة الحرارة

(بالترمومتر) والضغط (بالبارومتر) والرطوبة (بالهكتومتر) والطول (بالمتر) فإن رئيسنا يفضل قياس الاستهجان قياساً ملموساً. أي أن يقيسه بشيء يلمس باليد.. لا أدري إذا كنت قد استطعت أن اشرح لكم الأمر..؟ فأنت ترى أن الزئبق في مقياس الحرارة يهبط كلما برد الجوويرتفع مع ارتفاع حرارة الجو.. ومايقوم به رئيس اللجنة هو من اجل هذا الغرض. فعندما يظهر في الفيلم منظر فاضح، يمد رئيس اللجنة يده بين فخذي الشاب ليعرف درجة حرارته ويكون قد عرف درجة الاستهجان في الفيلم.. إنها ليست قلة أخلاق من رئيس اللجنة أبداً.. فإذا اشتعل الشاب كالكبريت فإن رئيس اللجنة يعطي قراره بمنع عرض الفيلم.. وهكذا يكون رئيس اللجنة قد تجنب الوقوع في الخطأ وقلة الحق، لأن لديه قياس ملموس.. يقيس به.

ـ حسناً ولكن إذا استمريتم باستعمال مقياس هذا الشاب فسوف تصبح جميع الأفلام مستهجنة ويمنع عرضها. لماذا لا يستعمل رئيس اللجنة مقياسه بدلاً من أن يستعمل مقياس الشاب؟..

ـ لأنه إذا استعمل مقياسه فلن يبقى هناك فيلماً مستهجناً.

استغربت كثيراً الطريقة التي تتبعها لجنة الرقابة في سدوم لقياس درجة الاستهجان.

التاريخ: ١٨ تشرين الأول عام ١٩٧ قبل الميلاد

لا أستطيع أن اشرح لكم إلى أي درجة انحدرت الأخلاق في سدوم. ولكن من حسن الحظ أن النبي لوط كان يعيش في تلك المدينة.. مسكين سيدنا لوط لقد حاول جهده توجيه أولئك المنحرفين إلى جادة الصواب، فشرحت الكتب السماوية المحاولات التي بذلها

سيدنا لوط من أجل ذلك.

كذبت قوم لوط المرسلين* إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون* إني لكم رسول أمين* فاتقوا الله وأطيعوه* وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلا على رب العالمين* أتأتون الذكران من العلمين* وتذورون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون* قالوا لئن لم تنته بلوط لتكونن من المخرجين*.

ولما يئس لوط من قومه. شكا أمره إلى الله وتضرع ليساعده. لأن الله كان يهب دوماً لمساعدة شعب سدوم، وقد حدث أثناء الحرب العالمية الثانية أن استغاثت الدول المتحضرة التي دخلت الحرب وقالت «أنقذنا يا الله.. ساعدنا» ولكن الله لم يساعدهم. على عكس الدول المتخلفة، أو النامية التي لم تدخل الحرب مثل شعب سدوم. فإنهم بمجرد أن يتضرعوا إلى الله ويطلبون مساعدته ويقولون «أنقذنا بالله» فيستجب الله لاستغاثتهم فوراً. عند ذلك تسأل الملائكة المولى عز وجل لماذا تهب لنجدة أهالي سدوم من أول صوت استغاثة فيقول عز وجل «إن أولئك المساكين ليس لهم سواي».

عندما سمع الله تعالى تضرعات لوط قال لإبراهيم أي لـ (أبرام) ما يلي:

وقال الرب إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظِمت جداً. أنزل وأرى هل فعلوا طبق صراخها البالغ إلي وإلا فأُعلَم. وانصرف الرجال من هناك ومضوا نحو سدوم. وبقي إبراهيم واقفاً أمام الرب. فتقدم إبراهيم وقال أتهلك البار مع الأثيم، إن وجد خمسون باراً في المدينة. افتهلكها ولا تصفح عنها من أجل الخمسين باراً الذين

فيها حاشى لك أن تصنع مثل هذا أن تهلك البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم. حاش لك أديَّان كل الأرض لا يدين العدل. فقال الرب إن وجَدتُ في سدوم خمسين باراً في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم. فأجاب إبراهيم وقال: ها أنذا قد طففت أتكلم أمام سيدي وأنا ترابٌ ورماد. إن نقص الخمسون باراً خمسة أفتهلك جميع المدنية بالخمسة. فقال لا أهلك إن وجدت ثمّ خمسة وأربعين. ثم عاد أيضاً وكلمه فقال إن وجد هناك أربعون فقال لا افعل من أجل الأربعين. فقال لا يثقل أمام سيدي إن أتكلم. إن وجدتم ثلاثين فقال لاأفعل إن وجدت ثم ثلاثين. قال قد استرسلت في الكلام أمام سيدي. إن وجدتم عشرين قال: لا أهلكهم من أجل العشرين، قال لا يثقل لدى سيدي أن أتكلم هذه المرة فقط. إن وجدتم عشرة. قال: لا أهلكهم من أجل العشرة.

استمرت المساومة بين الله عز وجل وبين إبراهيم على هذا الشكل. وأخيراً قال الرب أنه إذا كان في سدوم عشرة أشخاص بارين فلن تدمر سدوم. معنى ذلك انه لم يكن هناك أمل في وجود عشرة أشخاص بارين. كان الملاكان اللذان أرسلهما الله إلى النبي لوط على هيئة شابين ومسيحيين. فاستضافهما لوط في بيته. لكن أهالي سدوم أرادوا أن يتبادلوا الحب مع هذين الملاكين.

وقبل أن يضطجعا إذا أهل المدينة أهل سدوم قد أحاطوا بالبيت من الصبي إلى الشيخ جميع القوم إلى أخرهم.

فنادوا لوطاً وقالوا له أين الرجلان اللذان قدما إليك في هذه الليلة، أخرجهما إلينا حتى نعرفهما. فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب

وراءه. وقال لاتفعلوا شراً يا أخواني. ها أنذا ابنتان لم تعرفا رجلاً أخرجهما إليكم فافعلوا بهما ما حسن عندكم، وأما هذان الرجلان فلا تفعلا بهما شيئاً لأنهما دخلا تحت ظل سقفي فقالوا تنح من هنا ثم قالوا يأتي رجل ينزل بيننا ويحكم علينا. الآن نفعل بك أسوأ مما نفعل بهم. فألحوا على لوط جداً وتقدموا ليكسروا الباب، فمد الرجلان أيديهما وأدخلا لوطاً إليهما إلى البنت وأغلقا الباب. وأما القوم الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من صغيرهم إلى كبيرهم فعجزوا عن أن يجدوا الباب.

وقال الرجلان للوط من لك أيضاً، أصهارك وبنيك، وبناتك وجميع من لك في المدينة أخرجهم من هذا الموضع فإننا مهلكان هذا الموضع. إذ قد عظم صراخهم أمام الرب. وقد بعثنا الرب لنهلك المدينة، فخرج لوط وكلم أصهاره متخذين بناته وقال لهم: قوموا اخرجوا من هذا الموضع لأن الرب مهلك المدينة، فكان كمازح في أعين أصهاره فلما كان على طلوع الفجر ألح الملاكان على لوط قائلين قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة. فتوانى لوط فأمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وابنته لشفقة الرب عليه. وأخرجاه وصيراه خارج المدينة. لما أخرجاهم إلى خارج قالا له انج بنفسك لا تلتفت إلى ورائك. ولا تقف في البقعة كلها وتخلص إلى الجبل لئلا تهلك وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوعر، فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء وقلب تلك المدن وكل البقعة وجميع سكان المدن ونَبْتُ الأرض. فالتفتت امرأته إلى ورائها فصارت نصب ملح، وبكّر إبراهيم في الغد إلى الموضع الذي وقف فيه أمام الرب. وتطلع إلى جهة سدوم وعمورة.

وسائر ارض البقعة. ونظر فإذا دخان الأرض صاعد كدخان الأتون. وصعد لوط من صوعر وأقام في الجبل هو وابنتاه معه إذ خاف أن يقيم في صوغر، فأقام في المغارة هو وابنتاه، فقالت البكر للصغيرة. إن أبانا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا على عادة الأرض كلها تعالي نسقي أبانا خمراً ونضاجعه ونقيم من أبينا نسلاً فسقيا أباهما خمراً في تلك الليلة وجاءت الكبرى فضاجعت أباها، ولم يعلم بنيامها وقيامها فلما كان الغد قالت الكبرى للصغرى هاأنذا ضاجعت أمس أبي فلنسقه خمراً الليلة أيضاً وقامت الصغرى فضاجعته، ولم يعلم بنيامها ولا بقيامها فحملت ابنتا لوط من أبيهما.

وارتحل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وأقام بين قادش وشور ونزل بجرار وقال إبراهيم عن سارة امرأته هي أختي. فبعث أبيملك ملك جرار فأخذ سارة فأتى الله إلى بيملك في حلم الليل وقال له: إنك هالك بسبب المرأة التي أخذتها فإنها ذات بعل. ولم يكن أبيملك دنا منها. فقال له الله بالحلم وأنا أيضاً قد علمت أنك بسلامة قلبك صنعت ذلك، فكففتك عن أن تخطأ إليّ، لذلك لم أدعك تمسّها. فالآن أردُدْ امرأة الرجل فإنه نبي وهو يدعو لك فتحيا. وإن لم تردها فاعلم أنك هالك أنت وجميع من لك.

ثم دعا أبيملك إبراهيم وقال ماذا صنعت بنا، وبماذا أذنبت إليك حتى جلبتَ عليَّ وعلى مملكتي خطيئة عظيمة. إنك صنعت بي ما لايُصنع هذا الشيء.

فقال إبراهيم أني قلت أنه ليس في هذا الموضع خوف الله فيقتلوني بسيف امرأتي وعلى الحقيقة هي أختي ابنة أبي، غير أنها

ليست ابنة أمي فصارت امرأة لي. أخذ أبيملك غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وأعطى ذلك إلى إبراهيم وقال لسارة لقد أعطيت أخاك ألفا من الفضة.

التاريخ: ١٤ كانون الثاني عام ١٩٧ قبل للميلاد

كما كتبت عن الأشياء التي حدثت في سدوم، سأكتب لكم عن الأشياء التي ستحدث بعد الآن، فقد نجونا أنا وزوجتي من سدوم بأعجوبة. فقبل أن تدمر سدوم جاء إلى السفارة شابان وقالا «نحن جواسيس وسوف نبيعكم خبراً سرياً، لكن ثمنه غال جداً» ولما سألناهم عن ماهية هذا الخبر قالا: «المال أولاً» لقد عرفت من كلامهم هذا أنهما شاذان فأعطيتهم مائة «بالانت» عندها قالوا أنهم سمعوا الكلام السري الذي قيل للنبي لوط.. وهو أن سدوم ستدمر عن بكرة أبيها. لذلك عليك أن تهرب بسرعة وتنجو بنفسك.. هل كانوا حقيقة جاسوسين أم ملاكين!.. لا ادري.

تركت زوجتي وهربت إلى الجبل، عقاباً لزوجتي التي أُهنتُ بسببها عندما ذهبت إلى وزير الخارجية لتتوسط في تعييني في سفارة سدوم، شاهدت وأنا على رأس الجبل كيف أصبحت سدوم قاعاً صفصفاً، كانت النيران تتصاعد من كل مكان. والحمم النارية تتساقط على رؤوس الناس.. بعد مائة عام سيحدث نفس الشيء في بومباي وستكون سدوم وعمورة أسوأ من هيروشيما وناغازاكي.. لماذا لأن الشذوذ لم يتم استئصاله من جذوره!.. ولأن الجواسيس الذين أتوا إلى السفارة، كانوا قد مرّوا على كل بيت في سدوم، وأخبروهم عن السر الذي قاله الملاكين لبني لوط، مقابل بعض المال وكان كل من يسمع

هذا السر يهرب إلى الجبل لينجو من جديد وتدفقت المساعدات على المدينة من كل أطراف الدنيا، من العدو والصديق، ومن الهلال الأحمر والصليب الأحمر والأسد الأحمر. ولكن المساعدات لم تصل إلى من يحتاجها من الناس كما هي الحال عندنا، بل إلى أيدي تجار السوق السوداء.

تركتُ زوجتي في سدوم. ولكن والحمد لله نجوت بنفسي...

إلى هنا ينتهي هذا القسم من يوميات السفير في سدوم. وبما أن ما كتبه السفير ينسجم مع ماجاء في الكتب السماوية، فمعنى ذلك أننا أمام وثائق تاريخية.

○ ○ ○

١٠ ـ عانقني. حُبّني. داعبني. قبلني

لم يعرف لماذا لا يرغب في الإحالة على التقاعد؟.. البعض يظن أن مردُّ ذلك إلى طمعه بالمال، لأن راتبه التقاعدي سيكون أقل بكثير عما في الخدمة. والبعض الآخر يظن أنه يخشى على نفسه من الانطواء، لأنه سيمضي معظم أوقاته في البيت. علماً بأن البيت يجب أن يكون الملاذ الآمن والمريح لكل من أمضى حياته في العمل...

والحقيقة أنه لم يعرف السبب الحقيقي لعدم رغبته في التقاعد. وهو لايود القول بصراحة للناس بعدم رغبته في التقاعد بسبب زوجته. لأنه يمضي نصف وقته على اقل تقدير في العمل خارج البيت. والنصف الباقي كان يمضيه في جهنم، ذلك المكان الذي اسمه البيت، يقضيه في العذاب والشقاء والألم. وسوف يتعين عليه عند التقاعد قضاء كل أوقاته في البيت وجهاً لوجه مع زوجته عندما سيصبح متقاعداً.

لقد تزوج منذ تسعة وعشرين عاماً.. نعم تسعة وعشرين عاماً!.. «كيف تزوجت من تلك المرأة» ظل يفكر بهذا الأمر وقد آلمه الحزن.. فهو يعتقد أن في العالم لايقل عن مليارين من الأزواج. ولكن لا يوجد بين هؤلاء الأزواج من هو أتعس منه أو عانى كما عانى، في الوقت الذي لم يكن مضطراً لتحمل هذه المعاناة!.. لقد جعلت هذه المرأة من حياته جحيماً.. نعم.. وهي أيضاً لم تكن، سعيدة. لذلك كان يتألم!.. طبعاً يجب أن يتألم. فمن كان سبباً في تعاسة الآخرين لايمكن أن يكون سعيداً.

لماذا تحمّل هذه السيدة تسعة وعشرين عاماً دون أن يفكر بالافتراق أو الطلاق منها. مع أن زواجهما كان عذاباً للاثنين؟.. لايمكن أن يطلّق زوجته حتى ولو استمر زواجهما تسعة وعشرين سنة أخرى أو حتى إذا استمر إلى مالانهاية.. لا أظن لأنه يحبها كثيراً... فلا يمكن لهذه الزوجة أن تُحب.. ولم يعد بينهما شيء اسمه الحب، بعد أن تعودا على العذاب... هل كان يعاني من أمراض نفسية إذن؟.. كلا فهو رجل طبيعي جداً. هل أحجم عن الطلاق من أجل أولاده؟.. لاشك أن للطلاق آثاراً سلبية على الأطفال، سيكبرون بدون أم أو بعيدين عنها. لكن هذا في الماضي عندما كان الأطفال صغاراً. لكنهم الآن كبروا ولا يشكلون مانعاً للطلاق، فأصغرهم عمره واحد وعشرون عاماً!.. وأخيراً تم معرفة السبب الحقيقي الذي لا يستطيع أن يطلق زوجته من أجله.. إن زوجته لا تريد أن تحول حياته إلى جحيم رغم أن تصرفاتها توحي بذلك. كانت تعتبرها عفوية دوماً. فكما أن الماء ذات طبيعية سائلة. والهواء يملأ كل إناء. فقد كان من الصعب تغيير طبيعة زوجته. تماماً كما لايمكن تغيير طبيعة الصياح عند الديك، وطبيعة البيض عند الدجاج والنباح لدى الكلب والخربشة لدى الهرة. وهذا ماحوّل حياته إلى جحيم وسبب له عذاباً دائماً. كما تسبب ذلك في تعاسة زوجته أيضاً. وكم كان يتمنى أن تكون زوجته مطيعة، ذات وجه بشوش، وحديث جميل، عاقلة، نشيطة، محبوبة، لكن هذا التمني كمن يتمنى الحصول على البيض من الكلب، أو الحليب من الديك الهندي. ولم تكن زوجته تتعمد مثل تلك التصرفات. بل كانت طبيعية جداً.. فكيف يمكنه الافتراق عن مثل هذه المرأة لأن إذا افترق عنها فسوف يسبب لها التعاسة، ومهما يكن فقد أمضى معها

معظم العمر. سواء أكان حلوا أو مراً. وهو لا يتحمل تعاستها. لذلك فهو على استعداد على الاستمرار في تحمل العذاب بدل أن يحملها الألم والتعاسة. ورأى أن أفضل شيء هو ترك الأمور على ماهي عليه حتى وإن كان يعاني مايعاني من زوجته!..

كان يفكر في تلك الحياة التعيسة التي أمضاها في هذا الزواج، يحلم بطريقة للخلاص فهو يريد أن يحيا حياة سعيدة هانئة، ويحلم أيضاً بأن تتغير تصرفات زوجته وفجأة تصبح إنسانة محبوبة تستقبله عندما يعود إلى البيت من عمله بابتسامة كأنها أحد ملائكة السعادة.. يرى الابتسامة في عيونها، تحضنه وتقبله وتقول له «كيف حالك، وكيف أمضيت يومك» ويصبح البيت كالجنة، فيقضيان ليلهما في هذه الجنة ثم تنهض زوجته في الصباح وهي تغني.. وتبدأ بتحضير الفطور وتتحدث إليه ضاحكة. وتقبله عند خروجه من البيت إلى عمله. ثم تقف على شرفة المنزل وتلوّح بيدها مودّعة. عندها يذهب إلى عمله وهو يملك قوة تهز العالم. ويهزأ بالجميع لسعادته.

كان يحلم بمثل هذه الأمور ويقول في نفسه «كان بالإمكان أن نعيش هكذا أيضاً» لكن أحلامه لم تكن تطول كثيراً فسرعان ما تقوم زوجته بتبديد هذه الأحلام بتصرفاتها المزعجة وسحنتها المقلوبة، فيعود إليه وعيه ويعيش الحقيقة المرّة حقيقة العذاب الذي يعانيه في حياته مع هذه المرأة.

وأخيراً جاء ذلك اليوم الذي يخشى فيه إحالته على التقاعد، كان إنساناً بيتياً. لكنه لم يستطع الاستمتاع في الجلوس في البيت بسبب زوجته. وفي مساء أحد الأيام أحس بأنه سيختنق بسبب سحنة زوجته

المقلوبة.. ماذا يفعل.. أراد التخلص ولو لفترة من هذا الشعور، والذهاب إلى مكان قفر لينسى عذاب جهنم الذي يعاني منه في هذا البيت... فكر في الذهاب إلى الحانة ليشرب وينسى كل شيء.. أو يسير في الشوارع بدون أي هدف.. أو يذهب إلى إحدى المقاهي ويجلس وسط الناس الذين لايعرفهم ويستمع إلى همومهم. ليخفف من همومه.. لكنه رأى أن أفضل شيء هو النوم.. يقولون بأن النوم يجعلك تهرب من الحقيقة. لتبقى مع نفسك عندما تستيقظ.

استلقى على الأريكة وبدأ يشعر بالنعاس. ولكن زوجته لم تتركه مرتاحاً بصوتها العالي وبالضجة التي كانت تفتعلها مراراً. أما هو فكان يغفو ثم يصحو. وأخيراً نهض من كبوته بين الصاحي والنائم، وذهب إلى فراشه في غرفة النوم ابتغاء للهدوء والراحة.. إندس بين اللحاف وغطاء السرير وأغمض عينيه لكنه لم يستطع النوم.. وعندما دبَّ فيه النعاس.. شعر بضيق في صدره.. وكأن دخاناً كثيفاً... يحجب عنه التنفس.

لا.. لا.. إن أفضل شيء هو المشي.. المشي.. سيزول عنه هذا الشعور عندما يمشي.. خرج إلى الشارع وركب سيارة خدمة دون أن يعرف وجهة سيره، لم يقل للسائق إلى أين يبغي الوصول... نزل في مكان ما.. وركب الحافلة.. نزل في مكان خال تقريباً من الناس.. مرّ أمام إحدى المقابر.. شعر بحريته فانطلق يكمل سيره.. محاذياً طريق القناة.. فانتهى به المسير إلى داخل الغابة. كانت الغابة يانعة تعلو فيها أشجار الصنوبر بخطوط منتظمة.. فسار وسط هذه الأشجار غارقاً في بحر من الأفكار.

وقف فجأة خائفاً عندما سمع أحدهم يناديه. وكيف لا يخاف. أدار وجهه نحو الخلف فلم ير أحداً. تلفت حوله فلم ير وجوداً لإنسان في هذه الغابة. ظن في بادئ الأمر أنه تخيل ذلك فتابع سيره، لكنه سمع الصوت نفسه مرة ثانية.. لقد تأكد من سماعه. كان صوتاً ناعماً.. صوت امرأة.. أو لعله تراءى له ذلك.. التفت ثانية ونظر حوله بين الأشجار.. لم ير أحداً فأي امرأة ستأتي إلى هذه الغابة.. وحتى إذا وجدت مثل هذه المرأة فمن أين لها أن تعرفه حتى تناديه باسمه؟.. لكنه مازال يسمع ذلك الصوت يناديه..

- أنا أناديك..انظر إلي قليلاً.

التفت إلى جميع الجهات فلم ير أحداً.

- أنا هنا.. إن شئت - هنا، انظر إلى هنا!..

سمع صوت شيء يتحرك بين أوراق الأشجار.

- ارفع رأسك وانظر إلى الأعلى.!..

كانت تضحك.. بغنج ودلال.

رفع رأسه إلى الأعلى وصرخ يا «إلهي» وقفز ثلاث خطوات إلى الوراء. فقد شاهد أفعى ضخمة ملتفة إلى جذع الشجرة وقد تدلى رأسها الضخم من بين الأغصان.

- لاتهرب.. لماذا الهرب؟.. لن ينالك مني أي مكروه.

لم يستطع إلا أن يهرب.. فركض داخل الغابة بأقصى سرعة ممكنة.. حتى وصل نهايتها ولم يعد يذكر أين طريق العودة، ونظر أمامه فرأى ذات الأفعى.. ركض إلى الخلف، كانت الأفعى تجري

بسرعة أكبر من سرعته. لتسدّ الطريق أمامه وقالت:

ـ لافائدة من الهرب!.. اسمعني جيداً. لقد اقشعر بدنه من الدهشة والخوف عندما شاهد تلك الأفعى الغليظة والطويلة تتكلم وشعر أن لافائدة من الهرب، فتسمر في مكانه.. كانت أفعى من نوع (البوا)!... هذا النوع من الأفاعي لايعيش في استنبول، فمن أين جاءت؟..

لعل أحد الأغنياء رباها في بيته.. لأن هذا النوع من الأفاعي له طعام خاص، ثمنه غال ولايقدر عليه أي إنسان إلا إذا كان غنياً جداً. إذ فلا بد أن تكون هذه الأفعى قد عاشت في بيت إنسان غني!..

رفعت الأفعى الضخمة رأسها وقالت له:

ـ أنا لست أفعى (البوا)

دهش الرجل، كيف عرفت هذه الأفعى مايدور في خلده.

وتابعت القول:

ـ إن أفاعي البوا ليست سامة!.. أما أنا فأفعى سامة.

كيف تتكلم هذه الأفعى كإنسان؟.. إنها نوع من الأفاعي غير معروف.. أو لعلها تعلمت الكلام من الإنسان الذي تعيش معه، كما تتعلم الببغاء!.. نعم ولكن الببغاء لا تستطيع أن تتكلم كل شيء.. إنه يحفظ بضع كلمات فقط.

كانت الأفعى على معرفة بجميع ماكان يدور في خلده.

ـ لقد خمنت صحيحاً فأنا تربيت في أحد البيوت. وهربت منه؟..

تجرأ الرجل وسأل الأفعى:

ـ ولماذا هربت من البيت؟

ـ لأنني.. وبعد أن سكنت لحظة:

ـ ستفهم سبب هروبي من خلال حديثي معك!.. اقترب مني ولا تخف.. هيا اقترب كان صوتها ممتلئاً نعومة وحرارة.. لكن الرجل لا يستطيع الاقتراب من الأفعى لأنه يشعر بالقرف من الأفاعي، علاوة على انها قالت عن نفسها أنها أفعى سامة.. لذلك ظل خائفاً منها.

ـ لاتخف مني أنا لن ألدغك.

تأكد بأنه لا يستطيع التخلص من هذه الأفعى فهي تعرف كل ما يفكر فيه.

اقتربت منه وقالت:

ـ هيّا اجلس.. اجلس بجانبي.

جلس الرجل بجانب الأفعى

كان لون جلدها أخضر.. الأخضر السام.. ويتبدل اللون ليصبح فاتحاً كلما اقترب من وسطها.. أما باقي جسمها فكان يتدرج بين الأخضر الغامق إلى الأخضر الفاتح. بحيث يجمع أطياف اللون الأخضر.

فقالت له:

ـ أنا في الحقيقة لست أفعى!..

ـ ماذا تكونين إذن؟

ـ إذا كنت تريد أن تعرف حقيقتي.. داعبني!..

عن أية مداعبة تتحدثين!.. لقد أصيبت هذه الأفعى بالجنون.

ـ كلا يا عزيزي أنا لست مجنونة.. وإذا كنت تريد أن تعرف من أنا.. داعبني لكي تعرف!..

هيا مد يدك.. وداعبني براحة كفك وبلطف.

فعل الرجل بدون رغبة منه ما طلبته الأفعى.

ـ أوه.. شيء جميل.. استمر في المداعبة.. داعبني دون توقف.

فكر الرجل بأن لامفر من هذه الأفعى فمن الأنسب أن ينفَّذ ما تطلبه منه، لذلك استمر في المداعبة.

ـ داعبني!..

داعبها.

ـ داعبني أكثر.

ـ داعبها أكثر.

آ. آ. آ أوه.. ماهذا.. أوه.

ـ لماذا أنت مندهش يا حبيبي.

كيف لايندهش وهو يشاهد هذا العجب،، كان كلما داعب الأفعى تساقط جلدها الأخضر ليخرج من تحته جلد طري. جلد إنسان، وكانت الأفعى تتهيج أكثر كلما داعبها وكانت تكلمه بصوت فيه رغبة ونداء.

ـ داعبني يا روحي.. داعبني يا روحي.

ماهذا؟. لقد بدا الشعر يظهر في رأس الأفعى.. إنه شعر أشقر كالذهب.

ـ داعبني باتجاه الذنب يا حبيبي.

وكما تخرج المياه من المضخة، وكما تخلع البيجاما، خلعت الأفعى جلدها وخرجت من تحت الجلد فتاة عارية.. وكانت الفتاة لا تتوقف عن الضحك، وكانت كلما ضحكت تتفتح على جسدها الأبيض العاري. والذي كان يضيء من الداخل فيصبح لونه زهري شفاف لفتاة جميلة تنبض أنوثة وحياة.

ـ أحضنّي.

لقد انعقد لسان الرجل.

فعانقته الفتاة وحضنته بذراعيها.

ـ قبلني.

قبلها ثم قبلها. وأحس بالحيوية والنشاط، وكأنه استمد القوة من شفتيها.

ـ أحببني.. أحببني.

تبادل معها الحب وعرف طعم المرأة للمرة الأولى في حياته.. وبدأ يقول في نفسه.. هكذا يجب أن تكون المرأة.. كيف أمضيت عمري كله مع امرأة وكأنها أنثى وحش.. وأنا لا أدري.

ثم قالت له الفتاة:

ـ عانقني.. فعانقها.

ـ قبلني فقبلها

أحببني فأحبها.

ولكن الفتاة كانت لاتتوقف عن ترديد هذه الكلمات:

ـ داعبني.. أحضنّي. قبلني.. أحببني.

وكان الرجل يداعبها، ويحضنها، ويقبلها، ويحبها، لكن الرجل انتهى، فقد أنهكه التعب وهو بجانب هذه الفتاة العارية، فاستلقى فوق الأعشاب لا يقو على الحركة، لكن يد الفتاة مازالت تقبض على يده، وهي تقول له:

ـ مداعبتك جميلة، وقبلاتك جميلة، وممارستك الحب أجمل!..

كان الرجل بمنتهى السعادة لسماعه هذا الكلام وقد شعر بثقته بنفسه لدرجة بدأ ينتابه الغرور.

ـ لقد هربت من بيت الرجل لأنه لم يداعبني، أو يعانقني، أو يقبلني، أو يحبني كما كان يفعل من قبل.. وأنا أحب المداعبة باستمرار، وإلا فسيخبو هذا الجسد المضيء ويعود جلد الأفعى فيغطي جسمي من جديد. ويجب أن أُحضن باستمرار وإلا فإن ذراعاي سوف تلتصقان في جسمي ويزداد طولي، وأتحول إلى أفعى من جديد.. كما يجب أن أُقبَّل باستمرار وإلا أصبح رأسي أفعى، ويخرج السم من فمي، ثم يجب أن أتبادل الحب دوماً لكي لا أعود فأصبح أفعى ثانية. حبيبي الذي كان قبلك، لم يعد يداعبني، ويحضنني، ويقبلني، ويحبني، لذلك لم يكن في يدي حيلة، فتحولت إلى أفعى، ثم لدغته وهربت إلى الغابة فوجدتك أمامي.. ياحبيبي هيا داعبني.. عانقني.. قبلني.. هيا أحّبني.

سيطر الخوف على الرجل.. فمعنى ذلك أن هذه الفتاة التي بين ذراعيه والتي أشبه ما تكون بملكات الجمال سوف تتحول إلى أفعى ضخمة سامة إذا لم يداعبها، ويحضنها ويقبلها ويحبها، ثم تلدغه وتذهب.

فقال لها وهو خائف:

ـ حسناً.. حسناً.. وعاد لمزاولة نشاطه من جديد. فداعب الفتاة، وعانقها، وحضنها وتبادل الحب معها، لكنه تعب كثيراً هذه المرة. فعادت الفتاة إلى ترديد تلك الأغنية بصوتها الجميل، داعبني.. عانقني.. قبلني.. أحببني.. داعبني.. عانقني.. أحببني، قبلني..

حاول الرجل أن يصرف انتباه المرأة عن المداعبة. والعناق، والتقبيل، والحب إلى شيء آخر فقال لها:

ـ لقد حان المساء، وسوف يحل الظلام، والبرد قارس في هذه الغابة وأنت عارية!.. لذا أريد أن أذهب إلى المدينة لأحضر لك شيئاً ترتدينه ثم أعود.

ندم على ما قاله. فقد تهرب الفتاة ريثما يعود بالثياب من المدينة. فقالت له الفتاة الجميلة:

ـ أنا أكتفي بلباس أي شيء.. يكفي أن استر جسمي العاري.. يكفي أن تكون أنت بجانبي يا حبيبي.

مثل هذه المرأة هي التي كان يبحث عنها طوال حياته.

ـ أنا لا أريد زينة.. ولا أنظر إلى فوق.. يكفي أن تداعبني.. وتعانقني، وتقبلني، وتحبني.

كان الرجل قد بذل أقصى جهده، ولكن حاول أن يقوم مرة ثانية بمداعبة هذه الفتاة ملكة جمال العالم، فداعبها، وعانقها، وقبلها، وأحبها.. ثم تمدد فوق الحشيش، لكن الفتاة لم تتوقف عن الغناء وهي تقول:

ـ داعبني، عانقني ـ قبلني، أحببني.. وإلا سأصبح أفعى من جديد وسألدغك بلساني المسموم.

عندها صاح الرجل:

ـ وهل سنبقى في الغابة.. هيا بنا لنذهب إلى المدينة. ونستأجر بيتاً مناسباً لنعيش سوية.

قالت الفتاة:

ـ إذا استمريت في مداعبتي، وعناقي، وتقبيلي، فلن أتركك حتى الممات.

حاول الرجل أن يجذب انتباه الفتاة إلى أمور أخرى فقال لها:

ـ يمكننا أن نبقى في أحد الفنادق الممتازة بضعة أيام. ريثما أجد بيتاً مناسباً للإيجار.

فقالت الفتاة:

ـ لايهمني الفندق الممتاز أو الشقة المفروشة، كل ما يهمني هو أنت فما دمت مستمراً في مداعبتي، ومعانقتي، وتقبيلي، وتحبّني، فأنا مستعدة لأن أعيش معك في أي مكان، في العراء، وبين التبن، في الغابة، في الصحراء.

لقد عثر أخيراً على السيدة التي كان يبحث عنها طوال حياته.

أضافت الفتاة قائلة:

ـ يكفي أن تداعبني، وتعانقني، وتقبلني، وتحبني.

كان يتمنى أن لا تكون تلك الفتاة أفعى، لأنه يخشى من لدغتها السامة. بذل كل مافي وسعه وللمرة الأخيرة بمداعبة الفتاة،

واحتضانها، وتقبيلها، وحاول أن يبادلها الحب لكنه عبثاً حاول.. فلقد ارتخت اليد التي ستداعب وسقطت على الأرض ولم يعد له القدرة على أن يعانق الفتاة، ولم يعد يصل لكي يقبلها، ولم يبق فيه رمق ليبادلها الحب فبدأ بالتوسل.

ـ لنؤجل هذا الموضوع حتى المساء يا عزيزتي، سأداعبك في المساء.. وسأحضنك في الصباح.. وسأقبلك غداً.. وبعدها سأحبك.

ـ لكنني لا أستطيع الانتظار.. ولا أريد أن أعود لوضعي كأفعى وألدغك بلساني المسموم!.. إذا لم تستمر في مداعبتي، واحتضاني بصورة دائمة، وإذا لم تقبلني وتبادلني الحب. سأعود أفعى.

أصبح الموضوع. موضوع حياة أو موت. عندها صاح الرجل «يالله» طلباً للمدد وبدأ بمداعبة الفتاة.. نعم نعم.. لقد بدأ جلدها المضيء بالاختفاء. وبدأ يظهر عوضاً عنه جلد الأفعى. فحاول الرجل أن يستجمع قوته وقال «هبني القوة يا إلهي» وقام بمحاولته الأخيرة، فداعب الفتاة وعانقها، وقبلها، وبادلها الحب، لكنه ارتمى أرضاً وعلى آخر نفس، وكاد يغمى عليه، لكن الفتاة انتعشت وبدأت بالغناء من جديد.

ـ داعبني.. عانقني.. قبلني، أحببني.

فقال لها الرجل وهو مستلق:

ـ قليل من الإنصاف. فأنا أكاد أن أموت.. لقد انتهيت، فأنا إنسان قد تجاوز الستين من عمره ولا يمكنني أن أداعب، وأعانق، وأقبل، وأحب كثيراً.

عند ذلك سمع الرجل صوتاً أشبه بحفيف أوراق الشجر.. أيواه..

لقد بدأت الفتاة بتغيير جلدها.. حاول الهرب، فلم يتمكن.. حاول مداعبتها فلم يستطع، فقال متوسلاً وبصوت مليء بالتوسل والبكاء:

ـ غداً.. اسمحي لي.. غداً.

لكن الفتاة كانت تقول وقد تعثر لسانها بالنطق.

ـ داعب.. داعبني.. عانق.. عانقني. قبل.. قبلني.. أحب.. أحببني.

مرّ الرجل بيده على سيقان الفتاة، وخصرها، ومؤخرتها، فالفتاة لم تتحول كلية إلى أفعى بعد.. ثم لمس براحة كفه جلد الأفعى الذي بدأ يكسو جسم الفتاة.. ولو استمر في مداعبتها من جديد.. فلا بد لذلك الجسم الزهري من أن يظهر من جديد.. ولكنه سمع ضحكة لم تكن تلك الضحكة هي ضحكة الفتاة. نظر الرجل. فإذا هو في فراشه وامرأته بجانبه وهي تقهقه ضاحكة. فقد كانت يده قد امتدت إلى جسم زوجته وهو يداعبها تحت ملابسها الداخلية!.. معنى ذلك أنه بعد أن شعر بالنعاس ولجأ إلى الفراش، اندست زوجته بجانبه عندما جنَّ الليل!.. قالت له زوجته:

ـ ماذا جرى لك هذه الليلة.. لقد كنت تتقلب كثيراً في الفراش.. وترفس كثيراً!..

كأن الرجل لم يستيقظ بعد من ذلك الحلم الجميل الذي كان يعيشه في الغالب، فظن أنه مازال يداعب بطن الفتاة براحة كفه فقال لزوجته:

ـ كيف تلبسين هذه الجرابات الموصولة (بالكيلوت) وأنت في الفراش. هذا النوع من الجرابات يلبس عند الخروج إلى الشارع فقط،

كانت هذه المرة الأولى التي يكلم فيها زوجته بحدة. صحى من نومه وقال في نفسه إن فنجان الشاي سيكون ممتعاً جداً الآن. وكانت زوجته قد عرفت ما يدور في خلده فسألته:

ـ هل تريد الشاي؟..

وبدون أن ينتظر الجواب هرعت إلى المطبخ

فقال الرجل في نفسه وهو لايزال مستلقياً في فراشه

ـ لقد أصبحت زوجتي إنسانة مقبولة بعد كل هذه المداعبة والعناق، والتقبيل، والحب.

وبعدها سمع زوجته وهي تغني:

ـ داعبني، عانقني، قبلني، أحببني.

عجباً، كيف سمعت زوجته أغنية الفتاة التي رآها في الحلم.

لكن مادار في ذهن الرجل هو:

ـ غداً ستعود لتصبح أفعى من جديد لكي تلدغني بلسانها لدغة سامة.

ο ο ο

١١ ـ كيف ارتكبنا هذه الحماقة

على الشاطئ الشرقي لبحر مرمرة قرية ساحلية. الواجهة الأمامية للقرية مفتوحة على الشمال، والرياح الشمالية تهب عليها بعد الظهر. وقد بُنيت بيوتها على جانبي سفوح الوادي الذي ينحدر انحداراً خفيفاً نحو البحر. وتستطيع أن تشاهد من تلك القرية جزر الأميرات الجميلة في بحر مرمرة. أراضي هذه القرية زراعية لكنها ضيقة، لذلك اعتاد سكانها منذ ولادتهم على تأمين معيشتهم من العمل في صيد السمك من البحر.

ومنذ ثلاثين عاماً وحتى الآن بدأ بعض الناس ومعظمهم من السكان الذين نزحوا من هذه القرية، يأتون إليها لقضاء عطلة الصيف فلم تعد تلك القرية القديمة كما كانت من قبل. أصبحت البيوت تؤجر غرفة غرفة أو يؤجر البيت بالكامل للمصطافين الوافدين من استامبول.. بعد ذلك تم بناء شقق سياحية صغيرة في هذه القرية الفقيرة بعدما عرف أهاليها أن هناك مردوداً مادياً من جراء تأجيرها سياحياً. ولكن أياً كانت الحال فالقرية لا زالت تعتبر قرية صيادين فقيرة. ولايمكن أن يأتي إليها الأغنياء الكبار من اجل الاصطياف. كل مافي الأمر يمكن أن يأتي إليها بعض البيروقراطيين متوسطي الدخل أو المتقاعدين.. أو من كان بين هاتين الطبقتين من المثقفين الذين يحملون هموم الشعب.. كان معظم ضيوف القرية هم من الذين هربوا من صخب المدينة وجاؤوا إلى هذا المكان الهادئ. لينعموا بالراحة والهدوء. وجلّهم من

الكهول أو متوسطي العمر. يقضون أوقاتهم في المقاهي المنتشرة على الشاطئ. الشباب يجلسون في غير الأماكن التي يجلس فيها الكهول. فالكهول يجلسون في القسم الزجاجي من المقهى. بينما الشباب كانوا يجلسون تحت العرائش.

وفي أحد الأيام الحارة من شهر تموز.. امتلأت المقهى كعادتها قبل الظهيرة ـ وبعد الظهر عادوا إلى المقهى أرضاً ليتحدثوا أو يلعبوا طاولة الزهر. وألعاب أخرى. أو ليمضوا بعض الوقت مع جمال البحر، وكانوا يحضرون إلى المقهى كل واحد بمفرده أو كل اثنين والشبان يتجمعون كعادتهم تحت العريشة.

في ذلك اليوم تجاوز عدد الذين جلسوا في القسم الزجاجي الثلاثين. من بين هؤلاء ثلاثة محامين واحد منهم كان بديناً. وكان يجيب كل من يسأله عن السبب في عدم نزوله إلى البحر في مثل هذا اليوم الحار.

ـ يا أخي ماذا تريدون أن افعل في البحر؟.. فكل إنسان يحاول جهده عندما ينزل إلى البحر أن لا يغرق.. في الوقت الذي أحاول بدوري أن أغطس قليلاً فلا أستطيع لأنني أبقى طافياً فوق سطح الماء.. ولا أستطيع الجلوس على الشاطئ لأن مقعدي سوف يسخن كثيراً.. هذا هو السبب.

المحامي الثاني كان دميماً قصير القامة، أشبه ما يكون بالأقزام.

والمحامي الثالث كان منهكاً بصورة دائمة بالأمراض والعلل التي يعاني منها. لايستطيع النزول إلى البحر فهو يضع على رقبته في هذا اليوم الحار من تموز شالاً وأصدقاؤه يسخرون منه قائلين:

- انتبه لنفسك لكي لا يلفحك البرد.

في القرية طبيب حكومي متقاعد. قلّما يشاهده أحد بكامل وعيه. وحكيم أيضاً وهو أستاذ متقاعد، لا يستطيع قراءة الجريدة إلا بعد أن يقربها إلى عينيه التي وضع عليها نظارة ذات عدسات سميكة.

ومن بين الذين يأتون إلى هذه القرية لقضاء فصل الصيف. بقّال يحب أن يبني صداقات مع هؤلاء الناس المتقاعدين ليشعر في قرارة نفسه أنه على قدم المساواة معهم. فقد أعطى دكانه إلى صهره وأحال نفسه على التقاعد. يصر على أن يتدخل في حديث هذا المحيط المثقف بمناسبة وبغير مناسبة لاعتقاده بأنه يعرف كل شيء.

هناك أيضاً ضابط متقاعد، سبق أن أجرى عملية جراحية كبيرة في معدته لذلك فهو لا يستطيع الحضور إلى المقهى بدون أن يتوكأ على عكازه.

وأيضاً قائم مقام مصاب بالربو.. يأتي إلى هذه القرية من أجل تغيير الهواء والجلوس على هذا الشاطئ الجميل.

إضافة إلى رجل عاجز يسير وكأنه أعرج. لا أحد يعرف ماذا يفعل هنا ويقول البعض بأنه يمارس أعمالاً صغيرة.

كان هناك شخصاً آخر يعيش من وراء تأجير البيوت والدكاكين التي يملكها، كان ضعيفاً جداً. لدرجة أن الرياح الشمالية التي تهب عادة بعد الظهر يمكن أن تقذفه كأوراق الشجر.

وهناك أيضاً مدرس ثانوي متقاعد، قليل الكلام لايحب الدخول في أي نقاش ولا يعرف التحدث باللغة التركية.

كان الهواء ساكناً، والبحر هادئاً. وكان المحامي البدين يتصبب

عرقاً من كل جانب فقال لصديقه المحامي المريض جداً:

ـ يا أخي انزع هذا الشال من على رقبتك. فأنا ازداد تعرقاً كلما رأيتك.

لم يكن باستطاعتهم المزاح مع بعضهم، فالمزاح هنا أكبر تسلية ومتعة. كانوا ينادون هذا الرجل بالربع فهو نصف مجنون أو حتى أكثر من نصف مجنون. وربما كان يتصنع الجنون من اجل مصلحته فقد كانت هذه القرية الساحلية بالنسبة له بمثابة ملعقة العسل.. اسمه جمال ولقب عائلته غير معروف يقولون عنه جمال بربع عقل، ومن ثم أصبحوا ينادونه بالربع. جميع من في القرية من الصغير إلى الكبير يسخر منه ويحاول إغضابه. وكان هذا الربع يسير في الأزقة ليلاً ونهاراً يتمايل من السكر وعلى محياه علائم الغضب واهية، وكان يعرف كيف يستدر عطف الناس عليه!.. فبعد أن يسخروا منه بعض الوقت يشفقون عليه ويعطونه النقود، لقد كان يعرف جيداً كيف يحول سخريتهم إلى نقود. فيأخذها ويصرفها على المشروب. يحتسي المشروب من جميع الأنواع حسب النقود المتوفرة لديه بدءاً من الويسكي والعرق والنبيذ. وانتهاءً بالكحول العادي والكحول الأزرق، كان رأس أنفه يبدو كالفقاعة استطال وأصبح لونه كحلياً. أما ما تبقى في وجهه فكان عبارة عن شرايين حمراء، حتى أن بياض عيناه انقلب للحمرة. وكانت يداه ترتعشان وخطواته غير متوازنة. يظن كل من رآه من بعيد أن هذا الربع سوف يلتهب بسرعة فيما إذا أشعل أحدهم عود ثقاب قريباً منه.

كان الجو حاراً جداً ولم يكن لأحد الرغبة في السخرية من الربع.

كما أن الربع لم يكن لديه طاقة ليغضب ممن سيسخر منه.

حضر طبيب الحكومة المتقاعد وهو في حالة سكر دائم. يترنح في مشيته وبدون أن يلقي التحية قال:

- أكاد اختنق..

فقال له ذلك المحامي الدميم، القزم.

- هل سبب ذلك هو العرق الذي شربته؟

فرد عليه طبيب الحكومة.

- يكاد يغمى عليَّ من الحر.. من الحر.

عندها تدخل صاحب المقهى في الحديث وهو من سكان القرية فقال:

- الجو سينفجر على ما أظن.

كان البقال الذي يدرك أن اشتراكه في كل حديث أمراً صعباً. قال بعد أن صبر كثيراً.. يمكن أن يحدث زلزالاً. ثم تابع حديثه قائلاً:

- في تاريخ..

تدخّل القائم مقام الذي يعاني من الربو. بطريقة للتخلص من ثرثرة البقال التي لا يمكن تحملها في مثل هذا الجو الخانق محاولاً تغيير مجرى الحديث.

- في أي تاريخ؟..

وهكذا بدأت المناقشة حول موضوع التاريخ بدون أية مقدمات.

ما هو التاريخ.

ثم سأل الأستاذ المتقاعد المحامي المريض.

ـ ماذا يعني التاريخ بالنسبة لكم؟..

ـ التاريخ هو حدث في الماضي.. الأشياء التي مضت.

فتدخل طبيب الحكومة المتقاعد قائلاً:

ـ اسمه يدل عليه.. التاريخ هي الأحداث التي أصبحت تاريخاً.

توسعت المناقشة.

ـ في التاريخ الفلاني، جرت الاتفاقية الفلانية.. في التاريخ الفلاني.. توفي ذلك الرجل العظيم.. مع الأسف هذه هي الطريقة المتبعة في تعليم التاريخ في مدارسنا، متى جرت الثورة الفرنسية؟.. ماهي المعركة التي فتحت أبواب الأناضول أمام الأتراك، وفي أي عام حدثت ومع من؟.. هذا ليس التاريخ يا سادة.

ـ إذا لم يكن هذا تاريخاً.. فماذا يكون؟.. تربية بدينة؟..

ـ التاريخ..

ـ نعم..

ـ اسمحوا لي أن أحدثكم عنه.

ـ إن التاريخ بالنسبة لي هو درس يعلمنا أسباب الأحداث التي مرت في الماضي لكي نستفيد ونأخذ العبر منها في الأمور المشابهة التي يمكن أن تصادفنا.

ـ التاريخ.. أنا كنت أود أن أقول نفس الكلام.

ـ لكن هناك شيء آخر يا عزيزي.. لقد تفضلتم بالقول أن التاريخ هو درس.. وهذا صحيح جداً.

ولكن التاريخ يجب أن يسلط الأضواء على المشاكل التي نعاني منها في هذا العصر، وإلا فهو ليس بتاريخ.. يجب أن ينير التاريخ سبيلنا، تماماً كما يضيء المصباح الطريق المظلم.

ـ لقد قلتم بأنه يعلمنا الأسباب المؤدية للأحداث.. نعم. ولكن الأحداث التي جرت في التاريخ لها أسباب داخلية وأسباب خارجية.. أليس كذلك يا عزيزي!.. وباعتقادي أن الأسباب الخارجية ليست مهمة!.. المهم هو الأسباب الداخلية.

ـ التاريخ بالنسبة لي..

ـ يا عزيزتي لايوجد شيء في التاريخ اسمه بالنسبة لي أو بالنسبة لك.. التاريخ هو التاريخ فتاريخ موت نابليون مثلاً هو واحد بالنسبة للجميع فهل يمكنك أن تقول مثلاً أن نابليون مات العام الماضي بالنسبة لي!..

ـ أيها السادة هناك أستاذ تاريخ معنا!..

وبينما كانت المناقشة الحامية، هبت نسمة خفيفة، ولكنها بدلاً من أن تلطف الجو. فقد جلبت معها موجة من الهواء الساخن هبت من البحر، وكأنها قادمة من أتون.

في هذا الموقف ظهر على سطح البحر شيء أبيض اللون عند الجزيرة الكبرى وكان هذا الشيء يتجه نحو القرية حجمه يكبر كلما دنا من القرية أكثر. لقد كان هذا الشيء في البداية أشبه ببقعة ضوء بحجم الفراشة ثم بدأ يكبر تدريجياً، لاح لنا أنه قارب شراعي. دنا القارب من الشاطئ ووقف بالقرب من المقهى وألقى مرساته. كان يقف في مقدمة القارب رجل طويل القامة عريض المنكبين، يرتدي

لباساً أبيض يبدو عليه أنه قد استمتع جيداً بالبحر في هذا الصيف. فقد اصبح لون بشرته برونزياً.. وكان ينفث دخان غليونه وهو ينظر إلى الشاطئ كأنه بحار قديم اكتشف قارة جديدة.. وكان كلما هبت نسمة هواء تحركت جوانب قبعة القش الموضوعة على رأسه.

هؤلاء الناس الذين يتناقشون في التاريخ غرقوا في النقاش لدرجة أنهم لم يأبهوا لذلك القارب الجميل أو لهذا الشخص الذي يرتدي لباساً أبيضاً والذي يقف في مقدمة القارب وكأنه تمثال. لكنهم بدأوا يشعرون بالانتعاش بعد تحرك النسمات العليلة، وبرودة الهواء، مما زاد في حماسهم للنقاش.

كان جمال ذو الربع عقل قد جلس على الأرض أمام باب القسم الزجاجي من المقهى وكل همه هو انتهاء هذه المناقشة التي لم يفهم منها شيئاً. لكي يبدأوا بالسخرية منه!.. سيسخرون منه وسوف يغضب هو، وأخيراً سيعطفون عليه، ثم يعطيه كل واحد منهم ليرة أو ليرتين فيأخذها ويذهب ليتناول المشروب.. لكن لم يكن هناك أمل من انتهاء هذه المناقشة.

قال الضابط المتقاعد:

ـ نحن نتحدث عن التاريخ ونقول أن التاريخ هو كذا وكذا وبدون فائدة، في الوقت الذي يجلس معنا خبير في التاريخ ولكنه يلتزم الصمت ولا يشترك في الحديث!.

كان المعلم الثانوي المتقاعد قد درّس التاريخ لسنوات عديدة.

فقال المحامي الدميم القزم.

ـ إنه لايفتح فمه..

بعد ذلك سأله البروفسور:

ـ يا أستاذ ما هو مفهوم التاريخ بالنسبة لك؟

أجاب أستاذ التاريخ الذي لم يكن قد شارك في الحديث.

ـ التاريخ: هو الجغرافيا عندما تصبح قديمة.. إذا أصبحت الجغرافيا قديمة صارت تاريخاً، وبمفهوم آخر، فالناس.

بعد ذلك لم يفهم أحد الكلام الذي قاله أستاذ التاريخ. فقد حدث ماتوقعه صاحب المقهى فجأة هبت العاصفة بعد ذلك الجو الخانق، وتوقف المتحدثون في القسم الزجاجي عن حديثهم، وعند ذلك انتبهوا إلى وجود القارب الذي رسا بجانب المقهى. كان الشاب الذي يرتدي ثياباً بيضاء. ويقف على راس القارب، يصرخ بأعلى صوته وكأنه يريد أن يقول شيئاً، يشير بيديه وهو مضطرب.. كان كلامه يذهب أدراج الرياح بسبب الضجة التي أحدثتها العاصفة، طارت قبعة القش من على رأسه، وبدأت أمواج البحر تعلو بعد هبوب الرياح الشمالية، أفلتت المرساة وبدأت الأمواج تقذف القارب نحو الشاطئ، حتى أوشك القارب على الارتطام بالصخور.. احتار صاحب القارب ولم يعد يدري ماذا يفعل. فقد كان يراوح جيئة وذهاباً بين مقدمة القارب ومؤخرته.

هب جميع من في المقهى إلى الخارج. الشباب، والكبار وتجمعوا على الرصيف. الجميع يريد إنقاذ المركب، لكنه لم يكن باستطاعة أحد أن يفعل أي شيء ما عدا النصح والإرشاد، وفجأة حدث شيء لم يكن في الحسبان، فقد تقدم جمال ذو الربع عقل ووقف أمام الجميع، وبدأ بخلع ملابسه، وبعد أن أصبح نصف عار ألقى بنفسه إلى البحر.

كان القارب يدنو أكثر فأكثر نحو الشاطئ وصل الربع إلى القارب ومسك بمقدمته. صفق الواقفون لهذا النجاح الباهر الذي حققه الربع. وكانت هذه المرة هي الأولى التي لا يسخرون فيها منه، ويكبر في عين الجميع.

- يعيش الربع.

- برافو يا ربع.

لم يكن هناك أي سخرية، فليس الآن وقت السخرية الجميع كان يشجع الربع ليرفع من معنوياته، وذلك بالهتاف والتصفيق. بعد هذه الشجاعة غير المنتظرة والتي صدرت عنه.

كان عمق المكان الذي يقف فيه الربع لايتجاوز طول قامته. لكنه انتصب كالأبطال الأسطوريين، وصرخ في الناس الواقفين على الشاطئ بأعلى صوته.

- لايكفي التصفيق، وإطلاق هتافات التشجيع.. هيا اقفزوا إلى البحر، ماذا تنتظرون. دعونا نتعاون جميعنا لإنقاذ هذا القارب.

لم يكن هذا الربع هو الربع الذي يعرفه الناس فقد تغير بمجرد نزوله البحر. وهذه هي المرة الأولى التي يقف فيها ليصدر الأوامر. كان جميع المنتظرين على الشاطئ جاهزين لتلقي مثل هذه الأوامر، لذلك بدأوا بخلع ملابسهم والنزول إلى البحر. خلع المحامي البدين قميصه الخارجي فقط، لأنه لا يستطيع الانحناء ليخلع حذاءه، ولهذا نزل إلى البحر وهو منتعل حذاءه ولابس بنطاله، ومع أن هذا المحامي البدين لا يستطيع يغوص في الماء فقد كان أول من نزل إلى البحر. أما المحامي القصير والدميم فقد خلع ملابسه وبقي بالسروال فقط. وكانت المياه

عميقة في ذلك المكان فما أن ألقى بنفسه في الماء حتى غاب عن الأنظار. بعد ذلك أخرج رأسه من الماء وبدا يسبح باتجاه القارب. أما طبيب الحكومة المتقاعد الموجود في حالة سكر دائم فلم يشأ أن يترك الربع بمفرده، فثنى رجل البنطلون، ونزل البحر بدون أن يخلع حذاءه ثم تبعه الأستاذ الجامعي الذي يعاني من ضعف النظر لدرجة أنه لا يستطيع أن يرى أبعد من أنفه، فخلع ملابسه هو الآخر ونزل إلى البحر، وهبّ لنجدة القارب. ولكنه لم ير القارب فذهب في الاتجاه المعاكس عند ذلك أخذه المحامي البدين من يده وأوقفه بعيداً عن القارب. وكان أكثر ما يدعو للاستغراب هو ذلك الضابط المتقاعد الذي أجرى عملية كبيرة في معدته والذي لا يستطيع السير إلا وهو متوكأ على عكازه، فقد هب أيضاً للمساعدة في إنقاذ القارب فخلع ثيابه وبقي بالسروال ثم نزل إلى البحر بدون أن يتحرك عكازه. أما ذلك الشخص النحيف الذي يعيش من آجارات بيوته ودكاكينه ولا يأكل إلا جاهزاً. كان وضعه صعباً للغاية، فأي رياح مهما بلغت خفتها كان من شأنها أن تجعل هذا الرجل يطير. وعندما تهب علية العاصفة يشعر كأن أحداً يلطمه في كفه ثم لا يلبث أن تغمره الأمواج، فكان من واجب الجميع إنقاذ هذا الرجل قبل إنقاذ القارب. ومع هذا استطاع مقاومة هذه العاصفة ونجح في الوصول إلى مقدمة القارب. أما القائم مقام الذي يعاني من الربو فقد كان وضعه صعباً للغاية. ضاق نفسه أكثر عندما نزل إلى البحر، ولكنه لم يشأ أن يكون أقل حماسة من الباقين. أما الرجل الأعرج الذي يقوم ببعض الأعمال الصغيرة، شرع بمساعدة القائم مقام وكان القائم مقام يمسك بالرجل الأعرج كي لا يقع في الماء.. أما البقال الذي أول من سمع أو أطاع أوامر الربع

ونزل إلى البحر. كان يردد كل ما يقوله الربع.

وتلبية لنداء الربع، هبّ الشباب فوراً للغوص في البحر من أجل إنقاذ القارب، فتجمعوا حوله، واصبح الزحام كبيراً. وكان أكثر ما يدع للاستغراب في هذا الزحام هي شياكة المحامي المريض الذي لم يشأ أن يبقى بمفرده على الشاطئ بدون أن يشارك في إنقاذ القارب شأنه في ذلك شأن الجميع. فنزل إلى البحر بدون أن يخلع ملابسه حتى بدون أن ينزع الشال الذي كان يلف فيه رقبته، بل على العكس لفه جيداً حتى لايبرد.

دب الحماس في جمال الربع. فهذه هي المرة التي يصدر فيها أوامره بعد أن اعتاد طوال عمره على تلقي الأمر من الناس وتحمل تحقيرهم له.

ـ اذهب إلى هناك.. إلى هناك!..

فيذهب الضابط المتقاعد إلى المكان الذي أشار إليه الربع.

ـ أنت.. اسند من الأسفل.. أنت

فيقوم المحامي القزم المسكين بتنفيذ الأمر. ولأن طوله لايكفي ليقف، وهو يلاقي صعوبة في العوم لذلك فيغطس في القاع.

كان الربع يزداد حماسة كلما اصدر أمراً وتم تنفيذه. وهكذا ظل يتمادى في إصدار الأوامر لا يستثني أحداً. الجميع يقولون بداخلهم «إيه.. لابد أنه يعرف كيف يتم إنقاذ القارب حتى ألقى بنفسه قبل كل الناس وبدا في إعطاء الأوامر».

ولم يعد يهمه إنقاذ القارب بقدر إصدار الأوامر. فبدأ يرفع صوته ويزداد صراخاً ولم يكن يهتم إذا أنقذ القارب أم لا. أو أن الجبال ستنهار والجسور ستهدم والغواصة ستنتشل من الأعماق. كان يهتم

فقط في إعطاء الأوامر وجعل هؤلاء الناس المحترمين يطيعونه وينفذون أوامره.

فصاح بأعلى صوته:

ـ اسحب.. اسحب.. ولك ليس إلى ذلك الطرف..اسحب إلى الطرف الآخر.

تابع الربع إصدار أوامره

ـ امسكوا جيداً.. هيا مع بعض.. هووي.. هيا مرة ثانية.

كرر البقال ما قاله الربع:

ـ امسكوا جيداً.. هيا مع بعض،، هوووب.. هيا مرة ثانية.

الربع يعطي أمراً:

ـ ادفعوا.. هيا ادفعوا بسرعة.

ردد البقال:

ـ ادفعوا.. هيا ادفعوا بسرعة.

ـ إلى هذا الطرف.. قلت إلى هذا الطرف.

ـ امسك.. لا تترك.

ـ هيا مع بعض.. هوووب.

ـ هيا مع بعض هوووب.

كانوا يدفعون القارب باتجاه الشاطئ بناء على أوامر الربع بدلاً من أن يدفعوه باتجاه البحر، استمروا بالدفع حتى غطس اسفل القارب في قاع البحر، ولم تعد قوة الإنسان كافية لإخراجه من القاع. وإذا بقي

على ما هو عليه سوف يتمزق من شدة العاصفة. ولم يشأ ذو الربع أن يتخلى عن إصدار الأوامر. كان يصدر أوامره براً وبحراً وكأنه أحد أبطال الحروب.

ـ أحضروا جراراً بسرعة.

تم تنفيذ ما طلبه الربع فوراً.. رُبط القارب بالجرار بواسطة حبل غليظ.

أصدر الربع أوامره لسائق الجرار.

ـ هيا.. هوووب.

سار الجرار قليلاً، توتر الحبل الذي يشدُ القارب.. توتر اكثر. وبعد ذلك سُمع صوت طقطقة. ازدادت هذه الطقطقة بعد أن سار الجرار قليلاً. وتبين أن هذا الصوت ناجم عن تهشيم ذلك القارب الجميل الذي اصبح قطعاً صغيرة تتقاذفها مياه البحر. وما هي إلا بضعة دقائق حتى انتهى وجود القارب ولم يبق منه سوى بعض القطع الخشبية الطافية على سطح الماء، وبعض الألبسة، كان كل من نزل إلى البحر لإنقاذ المركب، يمسك بيده قطعة صغيرة أو قطعتين ويخرج بها إلى الشاطئ.

هدأت العاصفة.

ظل الناس الذين خرجوا من البحر واقفين في أماكنهم وبأيديهم ما تبقى من القارب وهم لايعرفون ماذا يفعلون.. كان الربع آخر من خرج من البحر. ولم يكن في يده أي قطعة. بل حمل بيده زجاجة ويسكي وجدها في القارب.

فالتفت لجميع من كانوا ينظرون إليه نظرة عداء.

ـ لماذا تنظرون إلي هكذا.. لو لم أكن موجوداً.. لما تمكنا من إنقاذ أي شيء من هذا القارب!..

ألقى المحامي القزم القطعة التي التقطها في الهواء.. وبصق الضابط المتقاعد على الرمل. وبدأ كل واحد بارتداء ملابسه، وذهبوا إلى القسم الزجاجي في المقهى. كان المحامي المريض لايزال يلف الشال على رقبته رغم تبلله بالماء، والجميع ينتظرون وصول الشاي. وبدأ قائم المقام الذي يعاني من الربو بتناول علاجه. عندها تساءل المحامي البدين قائلاً:

ـ ماذا فعلنا أيها السادة؟

تساءل الأستاذ الجامعي طبعاً:

ـ ماذا فعلنا؟

ردّ المحامي البدين.

ـ لقد سمعنا كلام الربع، المجنون، وبدلاً من أن نسحب القارب نحو البحر سحبناه نحو الشاطئ ولو كنا فعلنا بعكس ماقاله الربع لما تحطم القارب!..

صرخ الضابط المتقاعد:

ـ نعم والله..! ما تقوله صحيح. أضاف طبيب الحكومة المتقاعد مؤيداً.

ـ صحيح ـ صحيح.

عندها قال المحامي البدين:

ـ ما الذي جرى بعقولنا حتى سمعنا كلام هذا المجنون، وفعلنا كل ما طلبه منا.

ردّ بائع المتفرقات:

ـ صحيح كيف سمعنا نحن العقلاء، كلام هذا الربع.

عندها صاح المحامي البدين:

ـ كيف ارتكبنا هذه الحماقة؟

ـ الآن سوف يبدأ التاريخ!.. كان أستاذ التاريخ المتقاعد هو من قال هذا الكلام. وهو على رأس الطاولة وقد وضع ملابسه المبللة فوقها ليجففها.. التفت الجميع نحو الأستاذ. فسأله المحامي البدين:

ـ أي تاريخ؟

أجاب الأستاذ:

التاريخ الذي كنتم تتحدثون عنه قبل أن تنزلوا إلى البحر لإنقاذ القارب. كنتم قد سألتموني عن التاريخ!..

ـ نعم.

وأنا كنت أحدثكم عنه، فقطعتم حديثي وهرعتم إلى البحر. وألان سأجيب على سؤالكم. لقد سألتم قبل قليل كيف ارتكبنا هذه الحماقة؟.

ـ نعم.

ـ أن يرتكب إنسان ما حماقة فهذا يعتبر جغرافيا.. ولكن إذا تساءل بدهشة بعد ارتكابه الحماقة« يا هو نحن كيف ارتكبنا هذه الحماقة» عندها يصبح الموضوع تاريخاً، وأنا لو عدت إلى التدريس مرة ثانية بعد كل هذه السنين التي انقطعت فيها عن التدريس فسأعرّف الطلاب على التاريخ بهذا الشكل «كيف سمعنا كلام المجنون.. وكيف قمنا

بتنفيذ جميع أوامره. وكيف ارتكبنا هذه الحماقة؟..».

فقال الضابط المتقاعد:

ـ لقد كنت أنت العاقل الوحيد فلم تفعل كما فعلنا نحن ولم تنزل معنا إلى البحر من أجل إنقاذ القارب.

ردّ الأستاذ:

ـ ليس لأنني عاقل بل لإصابتي بإسهال شديد، لذلك خجلت من نفسي كثيراً لعدم مشاركتي في إنقاذ المركب. وخجلت أيضاً من خلع ملابسي والنزول إلى البحر وأنا أعاني من الإسهال.

ـ على كل حال لقد عرفنا ما هو التاريخ فالإنسان يمكن أن يتعرض أحياناً لإطاعة أوامر أحد المجانين، وبعد ذلك يقول «ماهذه الحماقة التي ارتكبناها» وعندها يجعل التاريخ يبدأ.

بعد ذلك دخل صاحب القارب وقد تبللت ثيابه البيضاء، وهو قابض على سارية علم القارب

○ ○ ○

١٢ ـ أين تقع تلك البلاد

تطالعنا الصحف العالمية بين الحين والآخر عن أخبار أغنياء العالم، وتتحدث عن موجوداتهم المالية. كان مستر جوزف ك كرافتسمان أحد هؤلاء الأغنياء في العالم. وهو لايعرف بالضبط مقدار الأموال التي يملكها لامتلاكه شركات ومؤسسات، وتكتل شركات كبرى بالإضافة إلى ذلك لايعرف أسماء معظم هذه الشركات. فكان يعتمد على أهم الخبراء الاقتصاديين، والمحاسبة، وعلماء الاجتماع، ورجال الأعمال، ومديروا الدعايات في تسيير أمور هذه الشركات، وكان هؤلاء يبذلون كل ما في وسعهم لتطوير أعمال ومضاعفة ثرواته كل سنة.

كان مستر جوزف كرافتسمان قد تمتع بجميع النعم الموجودة في هذه الدنيا الجميلة. وهي نعم تعرفونها وأخرى لاتعرفونها. فقد عاش في أماكن جميلة جداً لكنه كان يبحث عن الأجمل. تزوج من نساء جميلات جداً لكنه مازال يبحث عن الأجمل. كان لديه إحساس مفرط بعدم الشبع بجوعه الدائم، فهو يشتاق لأجمل من الجميلة. بالإضافة إلى ذلك فقد اصبح في الآونة الأخيرة مهتماً بمعرفة أجمل مكان على وجه الأرض. وبمعرفة أين يعيش أطيب الناس في هذه الدنيا، ولهذا كلف مستشاره الخاص الذي يثق به كثيراً وهو مستر هارد ليبحث له عن أجمل مكان على وجه الأرض وليحدد له أين يعيش أطيب الناس في هذه الدنيا.

بدأ المستشار الخاص مستر هارد بجولة في كافة أرجاء الأرض بغية إرضاء معلمه وتأمين المكان المناسب له، لكن مع الأسف لم يستطع إيجاد المكان المطلوب. أخيراً قصد إحدى البلاد التي لم يزرها من قبل بعد أن فقد الأمل، وعندما وصل إليها أعجب بها كثيراً. فجمال الطبيعة في تلك المنطقة يفوق حد تصور مستر جوزف ك كرافتسمان. بالإضافة إلى أن الناس الذين يعيشون هناك أناس طيبون جداً. ولاشك أن الحياة في هذه البلاد ستكون رائعة جداً... فكر مستر جوزف ك كرافتسمان بأنه إذا استطاع مستشاره إيجاد المكان المطلوب، فسوف يتزوج بامرأة من تلك المنطقة أيضاً. إن أمثال هؤلاء الذين يعيشون في مناطق الجمال الطبيعي. سيكون عندهم الرغبة في أن يعيشوا سعداء طوال العمر.

وكما جرت العادة كان مستر هارد يرسل إلى معلمه رسائل من كل بلد يزورها. وبما انه أحب هذه البلاد كثيراً فقد أرسل له رسالة على شكل تقرير. كانت كما يلي:

سيادة مستر جوزف ك. كرافتسمان

مضى ما يقرب العامين وأنا ابحث عن بلاد ذات طبيعة جميلة وشعبها طيب حسب رغبتكم، وأعتقد بأنكم فهمتم من تقاريري السابقة بأنني لم أعثر مع الأسف على مثل هذا المكان، وقد حزنت كثيراً لعدم وصولي إلى نتيجة إيجابية. بعد كل هذه الرحلة الطويلة والشاقة. وأعترف أن هذا أول إخفاق لي في كل المهمات التي كلفت بها سابقاً. وفيما كنت أهم بالعودة إلى أرض الوطن بعد إخفاقي في أداء مهمتي. وصلت إلى بلد لا توحي بأي أمل.

مستر جوزف ك كرافتسمان. دعني أزف إليك هذه البشرى.. هنا بلد الجمال الطبيعي الآخاذ وبلد الناس الطيبون. وسوف تعجبون بهذه البلاد كثيراً عندما تشاهدونها كما أعجبت أنا أيضاً. لقد وجدت أخيراً البلاد التي يعيش فيها أناس طيبون أكثر مما تتصورون. إنني اشعر الآن بسعادة غامرة وأنا أزف إليكم هذه البشرى لنجاحي في أداء المهمة الموكلة إلي.. لم أر أجمل من طبيعة هذه البلاد بعد أن تجولت في جميع أرجائها ولم أر بلاداً شعبها أطيب من هذا الشعب. فكل ما تعرفونه أو تسمعونه عن الطيبة موجود في هؤلاء الناس الذين يعيشون وسط هذه الطبيعة الجميلة. ولكن من يعرف كيف يجب أن يعيش الإنسان في هذه البلاد يمكن أن يصيبه القرف من العيش فيها. أما من لايعرف كيف يجب أن يعيش هنا. فقد تصبح هذه المنطقة التي تشبه الجنة بالنسبة له. لذلك أردت أن أورد لكم هنا بعض النماذج عن حياة أطيب الناس في هذه الدنيا وكيف يعيشون في أجمل منطقة على وجه الأرض. لكي تكونوا على بينة من هذا الأمر.

أنا أعرف أنكم تحبون الاستماع إلى الراديو ومشاهدة التلفزيون في بعض الأحيان. لذلك سأشرح لكم كيف يمكنكم سماع الراديو ومشاهدة التلفزيون!. يجب أن يوجد لديكم جهازي راديو وجهازي تلفزيون، أحدهم يعمل على البطارية والآخر بالكهرباء. لأنكم لا تستطيعون أن تثقوا بالكهرباء في أجمل منطقة في العالم، والتي يعيش فيها أطيب ناس في هذه الدنيا. فهم يقطعون التيار الكهربائي في أوقات محددة وغير محددة، وحتى إذا لم يُقطع التيار عن المدينة. فسوف يُقطع عن المنطقة. وحتى إذا لم يقطع التيار الكهربائي فيمكن أن يأتي ضعيفاً. في مثل هذه الظروف يجب أن تستعملوا راديو

وتلفزيون يعملان على البطارية، حتى البطاريات لا يمكن الوثوق بها دوماً لأن أسعارها ترتفع كباقي السلع ولا تلبث أن تفقد من الأسواق. وفي مثل هذه الحال لن تتمكنوا من سماع الراديو ومشاهدة التلفزيون، وسوف تنزعجون كثيراً. لذلك يتوجب عليكم شراء مولد كهربائي باستطاعة كافية لتشغيل الراديو والتلفزيون. وقد لا تجدون مثل هذا المولد في الأسواق أو إذا وجدتموه فيمكن أن لا تجدوا وقوداً له في بعض الأحيان. عندها عليكم أن تتصلوا هاتفياً بأحد أصدقائكم الذين يسكنون في مدينة أخرى وتسألونه في ما إذا كان لديه تيار كهربائي وترجونه ليضع سماعة الهاتف بجانب الراديو فتكونوا قد استمعتم إلى الراديو وكأنه نقل مباشر، أما بالنسبة للتلفزيون يمكن أن يُقطع التيار الكهربائي أو يمكن تفقد البطاريات، أو يمكن أن يتعطل الإرسال، وبما أن القوانين لا تجيز لكم أن تقيموا محطة تلفزيون خاصة بكم في هذه الحال يتوجب عليكم أن تؤمنوا في منزلكم آلة عرض أفلام فتشاهدوا الأفلام عوضاً عن برامج التلفزيون. وبالمختصر يجب أن تؤمنوا في بيتكم يا مستر جوزف ك كرافتسمان جهازي تلفزيون أحدهما يعمل على البطارية والآخر يعمل على الكهرباء، ومولد كهرباء، وآلة عرض أفلام، وأفلام. فإذا كان لديكم كل هذه الوسائل فلا بد أن تضطروا لاستعمال إحداها وعندها لن يكون سماع الراديو أو مشاهدة التلفزيون أمراً غير ممكن!..

لو عرفتم كيف يعيش أطيب الناس في الدنيا.. في أجمل طبيعة على وجه الأرض. عندها لن تشعروا بمشكلة تأمين الطعام. ولنبدأ بموضوع الخبز. فأصحاب الأفران يتوقفون عن إنتاج الخبز في بعض الأحيان طمعاً في زيادة الأسعار المقررة من قبل الدولة. لذلك يتوجب

عليكم تأمين كميات كبيرة من الخبز كبقية المواد الغذائية. كما أن عمال الأفران لا يمكن أن يقوموا بالإضراب عن العمل من اجل زيادة أجورهم. وحتى عندما تستمر الأفران في إنتاج الخبز ويتوقف العمال عن الإضراب، فعليكم أن تقوموا بتكديس الخبز في منزلكم. فقد لا تجدون خبزاً في الأيام الماطرة، وإذا كنتم تخشون أن تقوموا بتكديس الخبز في بيوتكم فيجب أن تخزنوا في بيت المونة كميات كبيرة من الخبز المجفف. وإذا خشيتم من أن لا تجدوا خبزاً مجففاً في بعض الأحيان فعليكم أن تؤمنوا طحيناً من باب الاحتياط فتقوموا بصنع بعض الأشياء التي تقوم مقام الخبز كالفطائر والمعجنات وماشابه ذلك، وإذا كنتم تخشون من فقدان الطحين في بعض الأحيان عليكم أن تخزنوا بضعة (أكياس) من البطاطا. وبالمختصر يجب أن تؤمنوا في بيوتكم كميات كبيرة من الخبز. والخبز المجفف، والطحين، والبطاطا، حتى إذا فقد أحد هذه الأشياء من الأسواق فيمكنكم تعويضه بشيء آخر. وهكذا تستطيعون أن تملؤوا معدتكم ولا تجوعون في أجمل بقاع العالم. التي يسكنها أطيب الناس!..

لنأتي إلى موضوع الاتصالات، ويجب أن أوضح لكم يا مستر ك كرافتسمان كيف عليكم أن تتصرفوا تجاه هذا الموضوع لكي لا تواجهكم أية صعوبات.. قبل كل شيء لابد من وجود هاتف في بيتكم، ولكن التحدث بهاتف واحد شيء غير منطقي إلا إذا كنتم ترغبون في أن يصاب بالجنون من تتحدثون إليه. لذا يجب أن يكون في بيتكم خطي هاتف وثلاثة أجهزة هاتف على الأقل. حتى إذا لم تسمعوا صوت الرنين من الجهاز الأول أو الصوت من الجهاز الثاني، فربما تتمكنون من الكلام بالجهاز الثالث، لكن الأكثر ضماناً من كل

هذا هو إنشاء مركز للهاتف في منزلكم مربوطاً بعدة خطوط. عندها يمكن أن تضاعفوا خطتكم في إمكانية الاتصال بواسطة أحد هذه الخطوط. وإذا كنتم ستقلقون من عدم إمكانية عمل المركز، عندها يتحتم عليكم استعمال جهاز التلكس، كما يجب أن يتوفر لديكم جهاز هاتف لاسلكي لتستعملونه عندما يتوقف الهاتف والتلكس عن الاستعمال، ويجب أن تحافظوا على سرية استعمال الهاتف اللاسلكي لكي لا يعتبرونكم جواسيساً ويغضبوا منكم، فهم لا يسمحون باستعمال الهواتف اللاسلكية حتى ولو كانت موجودة في لعب الأطفال وإذا كنتم لاتستطيعون الوصول إلى مركز البريد أو من الوصول متأخرين وبالتالي من عدم تمكنكم من إرسال الرسالة، فما عليكم في هذه الحالة سوى القيام بتربية الحمام الزاجل في منزلكم، علماً بأن المراسلة عن طريق الحمام الزاجل فيها مخالفة للقانون، في هذه الحالة إذا كانت الهواتف لاتعمل، والتلكسات تعطلت، وصودر الهاتف اللاسلكي، ولم تتمكنوا من الوصول إلى مركز البريد والهاتف، عليكم أن توظفوا لديكم عدداً من سعاة البريد الذين يجيدون توصيل الرسائل سيراً على الأقدام. والآن إذا أردنا أن نختصر موضوع الاتصالات نقول لابد من تأمين هواتف، مركز هاتف، تلكس، هاتف لاسلكي، حمام زاجل، سعاة بريد، لأنكم سوف تحتاجون لاستعمال أحد هذه الوسائل وعندها يمكن القول بأن اتصالاتكم قد تأمنت.

لنأتي إلى موضوع المياه، وهذا موضوع ستنجحون في حله فهو ليس بمشكلة كبيرة. لابد أن يكون في منزلكم تمديدات مياه تتغذى من مياه المدينة، ولكن هذه المياه لايمكن الاعتماد عليها لأنها تنقطع

بين الحين والآخر، وإذا انقطعت المياه وانتم تغسلون رؤوسكم بالصابون فماذا تفعلون؟.. عندها لابد من وجود خزان ماء ومضخة سحب، وقد لايكفي خزان المياه والمضخة لسد احتياجاتكم. عند ذلك يجب عليكم أن تتعاملوا مع السقاة الذين ينقلون المياه ليملؤوا لكم خزانات الماء. بالإضافة إلى انه يجب تأمين كميات كبيرة من زجاجات ماء الشرب، وإذا كنتم تخشون فقدان زجاجات ماء الشرب، فلا بد عندئذ من القيام بعمل صهريج في أسفل المنزل لكي تجمعوا فيه مياه الأمطار التي تسقط على سطح المنزل، وإذا خشيتم من انحباس المطر فما عليكم إلا أن تفكروا في حفر بئر أو عدة آبار في الحديقة، معنى ذلك إذا توفر في المنزل تمديدات مياه، وخزان ما، ومضخة، وقمتم بعمل صهريج، وحفر عدة آبار وشراء زجاجات وبراميل المياه النظيفة. فإنكم لابد من أن تحتاجون لاستعمال إحدى هذه الوسائل. وعندها لا يعتبر تخلصكم من العطش أمراً مستحيلاً.

أما بالنسبة لموضوع وسائط النقل والمواصلات، فإذا عرفتم كيف تتصرفون تجاه هذا الموضوع كما تصرفتم تجاه المواضيع السابقة فلن يكون هناك مشكلة. لابد أنه سيكون لديكم سيارة خاصة. ويجب أن لا تكون سيارة واحدة. لأن السيارة قد تتعطل ولن تجدوا هنا قطع التبديل اللازمة، لذلك يستحسن أن يكون لديكم سيارتين من صنع محلي، وقد تتعطل إحدى هذه السيارات أو تتعرض للسرقة أو تفقد قطع التبديل. عندها تكون أفضل طريقة للتنقل في أجمل بقعة على وجه الأرض والتي يسكنها أطيب أناس في الدنيا امتلاك أربع سيارات خاصة على الأقل، وقد لا يكفي في بعض الأحيان وجود السيارات الأربع. فقد تحدث بعض الأزمات كفقدان البنزين من الأسواق.

وعندها لابد من وجود سيارة خامسة تعمل على المازوت. ورغم وجود سيارات تعمل على البنزين والمازوت لديكم. فقد تعانون أيضاً من عدم وجود وقود لهذه السيارات. لذلك عليكم تأمين دراجات نارية في بيوتكم ويجب أن تأخذوا في عين الاعتبار عدم توفر البنزين لهذه الدراجات النارية أيضاً عندها لابد من تأمين دراجة عادية. وبما أن هذه البلاد أنشئت فوق مناطق وعرة، فإن شوارعها منحدرة ويصعب على الدراجة العادية صعود طرقاتها. لذا يترتب عليكم بناء إسطبل في حديقة منزلكم من أجل تربية بعض الخيول أو البغال. وتأمين عدد من السروج. كما يجب عليكم أن تؤمنوا بعض عربات الخيول. وبالمختصر عليكم أن تؤمنوا في بيوتكم جميع وسائل النقل المعروفة في التاريخ. فإذا حصلتم على جميع هذه الوسائل، فلا بد من أن تحتاجوا لاستعمال إحداها، وعندها لن تفقدوا الأمل نهائياً من إمكانية التنقل من مكان إلى مكان آخر في هذه المنطقة التي تعتبر اجمل منطقة على وجه الأرض والتي يسكنها أطيب الناس في هذه الدنيا.

لنأتي إلى موضوع الإنارة، لاشك أنكم سوف تنجحون في حل هذا الموضوع رغم الصعوبات الكبيرة. طبعاً سوف تستفيدون من تيار المدينة! وبما أنكم لا تتوقعون متى ستنقطع الكهرباء لذلك لابد من تأمين مولد كهربائي في منزلكم، وإذا كنتم تخشون من عدم توفر الوقود اللازم لتشغيل هذا المولد فما عليكم إلا أن تؤمنوا عدداً كبيراً من مصابيح الكاز!.. وإذا كنتم تخشون من عدم توفر الكاز. أو المصابيح فعليكم تأمين عدد كبير من الفنارات التي يستعملها البحارة. وإذا كنتم تخشون فقدان البترول تماماً عليكم أن تستعملوا مصابيح اليد، وإذا خشيتم من فقدان البطاريات، وحتى لا تعيشوا في الظلام،

عليكم أن تخزنوا في بيوتكم كميات كبيرة من الشمعدانات والشموع. فعندما تنقطع الكهرباء ولا تجدون البترول، وتخشون من استهلاك العدد الكبير من الشموع أو من فقدانها من الأسواق، فعند ذلك لابد من استعمال القداحات التي تعمل على البنزين، وإذا فقد البنزين عندها يجب أن تستعملوا القداحات التي تعمل بالفتيل وتقدح بالصوان. أو الخشب الذي يستعمل في إيقاد النار. هذا بالإضافة إلى شراء شاحن، كما يجب الاستفادة من طاقة الرياح، فتقومون بإنشاء طواحين الهواء من أجل توليد الكهرباء. وهكذا إذا أردنا تلخيص موضوع الإنارة في المنطقة التي تحتوي على أجمل المناظر الطبيعية على وجه الأرض، والتي يسكنها أطيب ناس في هذه الدنيا، ولكي لا تعيشوا في الظلام!.. يجب أن يتوفر في بيتكم التيار الكهربائي من المدينة، بطاريات، مولد، مصابيح كاز، فانوس بحار، مصباح يدوي، شمعدان، شمع، طواحين هواء، وإذا حصلتم على جميع هذه الوسائل فلابد من أن تحتاجوا لاستعمال إحداها، وعندها يمكنكم التخلص من الظلام.

لنأتي إلى موضوع حل بعض أموركم التي لها علاقة بدوائر الدولة. إن هذا الموضوع لا يعتبر من المواضيع التي يستحيل حلها. حتى إذا كنتم تعرفون وتستطيعون حلها. فلكي تستطيعوا القيام بأي معاملة لدى أي دائرة من الدوائر سواء أكانت رسمية أو غير رسمية أو في أي مؤسسة أو هيئة. عليكم الاعتماد على أحد كبار الموظفين كواسطة من اجل مساعدتكم. ويجب أن يكون عدد هؤلاء الموظفين كبير لتتمكنوا من الاستفادة منهم في كل مكان، من أجل هذا يجب عليكم أن تقوموا بدفع الرشاوى الضخمة إذا لم يكن تدخل هؤلاء الوسطاء

كافياً. وإذا لم تتمكنوا من حل أموركم بالوساطة أو الرشوة. عندها يجب أن يكون لديكم قريبات جميلات وكريمات أيضاً. بالإضافة إلى رسائل وبطاقات التوصية. وإذا جاء يوم لم تتمكنوا فيه من الاستفادة من كل هذه الوسائل عندها لابد أن تكونوا جاهزين لدفع الهبات الكبيرة، أو الهدايا الضخمة التي تتناسب مع «الظروف الصعبة، والأحوال التي تعيشونها، فإذا لم تستطيعوا بعد كل ذلك من التغلب على حظكم السيء. عندها يجب أن تأخذوا في عين الاعتبار دفع الرشوة. بالإضافة إلى كل ما تقدم فيجب أن يكون لديكم من الصبر ما يفتت الصخر. ومعنى ذلك أنكم لابد من أن تحتاجوا لأحد هذه الأمور حتى لا يصبح حل أموركم في دوائر الدولة مستحيلاً.

أما بالنسبة لموضوع التدفئة فثقوا يا مستر جوزف ك كرافتسمان أنه بالرغم من معرفتكم وثقتي بنجاحكم في حل هذه المشكلة. إلا أن هذه المشكلة كباقي المشاكل لا يعتبر حلها أمراً مستحيلاً. فمن الطبيعي أن يكون في منزلكم تدفئة مركزية!.. لكن يجب أن يكون لديكم ثلاثة أنواع من أنظمة التدفئة، أحد هذه الأنظمة. يعمل على المازوت، والثاني بالفحم الحجري، والثالث بالفيول، وعندما يفقد الاثنان يكون لديكم نظام ثالث يعمل بالفحم الحجري. يجب أن يكون لديكم نظامان للتدفئة بواسطة الفحم، أحد هذه الأنظمة يجب أن يعمل بالفحم الحجري، والنظام الآخر بفحم اللينيف. حتى إذا فقد أحد أنواع الفحم من الأسواق عندها يمكنكم الاستفادة من النوع الثاني. يعني يجب أن يتوفر في منزلكم أربع أنظمة للتدفئة تعمل بواسطة أربع أنواع من الوقود. وإذا كنتم تخشون من فقدان هذه الأنواع الأربعة من الوقود من الأسواق أو من انقطاع التيار الكهربائي.

عندها يجب أن تؤمنوا في منزلكم مدافئ، وعندما نقول مدافئ فيجب أن يكون لديكم مدافئ من جميع الأنواع، مدافئ تعمل على الفحم، أو الحطب، أو المازوت، أو الغاز.. ويجب عدم الاعتماد على أنظمة التدفئة المتعددة والموجودة لديكم، ولا على المدافئ. فيمكن أن لا تستفيدوا من أي واحدة من هذه الوسائل لأسباب عديدة. عندها يجب أن تصنعوا موقداً في البيت ويجب أن يعمل هذا الموقد على الفحم الحجري أو الحطب. وفي حالة فقدان هذا النوع من الوقود من الأسواق. عليكم أن توفروا في منزلكم كميات كبيرة من الوقود العضوي الذي يصنع من روث البقر. وإذا تعطلت جميع أنواع أنظمة التدفئة لديكم بسبب انقطاع التيار الكهربائي. أو إذا لم تجدوا وقوداً من أجل المدافئ أو حال انسداد مدخنة الموقد ففي «مثل هذه الظروف، وهذه الشروط السيئة» يجب أن تحتاطوا للأمر ويجب أن يكون لديكم في المنزل عدد كبير من المناقل. ويجب أن تشتروا الفحم في أوانه. وإذا لم تعمل كل هذه الوسائل عندها يجب عليكم أن تضعوا على سطح المنزل أجهزة تلتقط أشعة الشمس. معنى ذلك إذا أردنا أن نلخص ما يتوجب عليكم فعله من اجل حل موضوع التدفئة نقول. بالإضافة إلى أجهزة التدفئة التي تعمل بالمازوت والفحم والفيول، يجب أن يكون لديكم مدافئ على الكهرباء، والفحم، والحطب، ومدافئ غاز، ومدافئ مازوت، وموقد، منقل، لواقط شمسية على السطح. إذا تم تأمين جميع هذه الوسائل مع جميع أنواع الوقود التي تحتاجها هذه الوسائل. فلابد أنكم تحتاجون لاستعمال أحد هذه الوسائل وعندها يمكن أن لا تبردوا وأن تدفئوا منزلكم. وهذا شيء لا يعتبر غير ممكن.

والآن لنأتي إلى موضوع زواجكم من إحدى السيدات التي

ستحبونها لتعيشوا معها في سعادة وهناء في هذه البلاد التي تتمتع بأجمل طبيعة على وجه الأرض والتي يعيش فيها أطيب ناس في هذه الدنيا. وهذا الموضوع حله سهل ولا يشبه باقي الأمور التي حدثتكم عنها. سوف تتزوجون من السيدة التي تحبونها زواجاً مدنياً. وكما في حالة المياه عندما تنقطع يجب أن يكون لديكم صهريج، أو يجب أن تحفروا بئراً. وكما أنكم تحصلون على الإنارة من الكهرباء لكنكم تحتاطون بمصابيح الكاز والشموع والفوانيس في حال انقطاع الكهرباء. وكما فكرتم في موضوع التدفئة في حال عدم التمكن من توفير عدد من المناقل، والمواقد.. ولأن هناك احتمال من أن لاتكونوا سعداء مع الزوجة التي تزوجتموها بموجب عقد قران مدني، لذا يجب أن تتزوجوا بامرأة أخرى بموجب عقد شرعي، وأيضاً هناك احتمال أن لاتكونوا سعداء في هذا الزواج أيضاً عندها يجب أن يكون لديكم امرأة أو أكثر تعيشون معهن بدون زواج. معنى ذلك إذا أردنا تلخيص الموضوع. ماعدا الزوجتان التي تزوجتم إحداها بموجب عقد زواج مدني والأخرى بموجب عقد زواج شرعي. يجب أن يكون لديكم عدداً من النساء اللواتي يعشن معكم بدون زواج. فإذا كان لديكم كل هؤلاء النساء فلا بد من أن تنسجموا مع إحداهن. ولكن إذا كنتم تخشون رغم كل ذلك من أن لاتكونوا سعداء أو أن يصادفكم حظ سيء. علماً بأنكم من الناس المحظوظين. عندها يجب أن تعيشوا على أمل إيجاد صديقة وفية. وعندها لا تعتبروا السعادة أمراً غير ممكن التحقيق.

وإلى هنا انهي تقريري يا مستر جوزف ك كرفتسمان بعد أن أوضحت لكم كيف عليكم أن تتصرفوا عندما تقررون العيش في

اجمل منطقة على سطح الأرض والتي يسكن فيها أطيب ناس في هذه الدنيا، بانتظار أوامركم.

هارد زيكل

كانت هذه الرسالة أشبه بتقرير، أرسلها مستر هارد زيكل المستشار الخاص لأحد أغنياء العالم مستر جوزف ك كرافتسمان. لقد فرح مستر كرافتسمان كثيراً بعد قراءة الرسالة. فقد عثر أخيراً على البلاد التي سوف يعيش فيها سعيداً. وبادر فوراً بإرسال رد برقي لمستشاره الخاص، وكتب له قائلاً: «انتظروني، أنا في طريقي إليكم».

ولكن للأسف لم ترسل البرقية، لأن الرسالة التي أرسلها المستشار الخاص مسترهارد زيكل غير معروفة العنوان من المغلف الذي كان يحتوي على الرسالة، لكن السكرتير ألقى بهذا المغلف في سلة المهملات، ورغم أنهم فتشوا عنه كثيراً لكنهم لم يجدوه.

انتظر مستر جوزف ك كرافتسمان أن تصله رسالة أخرى من مستشاره الخاص فانتظر طويلاً ولكن لم تصله أية رسالة منه كما لم تصله أية معلومات عنه، وبما أن مستر جوزف ك كرافتسمان كان مصراً على الذهاب إلى تلك البلاد التي سيعيش فيها سعيداً مهما كلفه الأمر. لذلك قام بنشر الرسالة التي وصلته من مستر هارد زيكل في الصحف وأعلن عن جائزة مقدارها خمسة عشر مليون دولار مدى العمر. لمن يدله على البلاد التي تحوي على اجمل طبيعة على وجه الأرض والتي يسكنها أطيب أناس في هذه الدنيا. وذلك استناداً إلى المعطيات الواردة في هذه الرسالة.

وأنتم أيضاً إذا كنتم تعرفون عن أي بلاد تحدث عنها مستر هارد

زيكل في رسالته ووصفها بأنها ذات اجمل طبيعة في العالم ويعيش فيها أطيب أناس في هذه الدنيا. فما عليكم إلا أن تسارعوا بالكتابة إلى مستر جوزف ك كرافتسمان. فتكونوا بذلك قد صنعتم جميلاً مع السيد كرافتسمان بالإضافة إلى أنكم سوف تصبحون من أصحاب الملايين: هيا هل يمكنكم أن تعرفوا أين تقع تلك البلاد.

○ ○ ○

١٣ ـ ياله من رجل سيء

تعرفت عليه أثناء قيامي بنزهة في الغابة.

وفي إحدى فسحاتها الخالية يقوم منزل أنيق، يجلس أمامه عدد من القرويين يتراوح عددهم من خمسة إلى عشرة أشخاص وقد اصطحبوا أولادهم معهم.. وعلى مسافة قصيرة من هذا المنزل شجرة كبيرة يتدفق الماء من ثقب في جذعها ومن هناك يجري إلى أرض مليئة بالأعشاب ومن ثم ينساب إلى الوادي.

هذا المنزل الجميل الذي تحيط به المروج الخضراء وتلفه الغابة من جميع أطرافه كان شبيهاً بالمنازل التي تجدها مصورة على البطاقات البريدية.. تخيلت نفسي أنني أمام إحداها وأتمشى في داخلها.

قال سائق السيارة الصغيرة الذي كان يصاحبني في هذه النزهة.

ـ إنه إنسان سيء لا يستحق حتى أن تلقي عليه التحية.

سألت السائق لأنني لم افهم من هو المقصود بهذا الكلام فقلت له:

ـ عمن تتكلم؟..

فقال لي وهو يومئ برأسه إلى ذلك المنزل.

ـ عن مهندس الغابات الذي يسكن في هذا المنزل.

ـ ومن يكون هذا المهندس وما اسمه؟..

ـ ليذهب إلى الجحيم، فنحن لم نحفظ اسمه أو كنيته لأننا لا

نحبه. لذلك كنا نكتفي بأن نقول عنه، المهندس، أو المدير الإقليمي للغابات.

نصحني الأطباء بضرورة تغيير الهواء لمدة طويلة.. لذلك جئت إلى هذه المنطقة واستأجرت بيتاً عند أحد القرويين. البيت الذي استأجرته يخص المختار، كنت أمضي معظم وقتي في السير وحيداً أو برفقة أحد أصحاب السيارات الصغيرة عندما أرغب بنزهة بعيدة. كان صاحب السيارة الصغيرة الذي يرافقني، إنسان ممتاز، كلامه موزون، وشهم. وعندما يقول عن المدير الإقليمي للغابات أنه إنسان سيء، فلا بد أن يكون كذلك، رغبت بالعودة فوراً من حيث أتيت فأنا لا أريد التعرف على مثل هذا الإنسان.. ولكنني تابعت سيري باتجاه المنزل كي لا أخسر المتعة التي سأحصل عليها في هذا المكان الرائع، ولأنني لم استطع التخلص من جاذبيته. كان القرويون قد تجمعوا أمامه. فهم من كان يتلوى على المرج من ألمه. ومنهم من يئن. ومنهم من يترنح في مشيته، ومنهم من وضع ضماداً على وجهه، كنت تظن نفسك أنك أمام قسم الطوارئ في أحد المستشفيات.

صعدت الدرجات الثلاث، ودخلت من الباب الزجاجي الخارجي إلى بهو المنزل. حقيقة المنظر يدعو للدهشة والاستغراب، فقد وُضع في وسط البهو طاولة تشبه السرير بدون ظهر. تشبه طاولة فحص الطبيب لمرضاه، وقد اضطجع فوقها رجل على وجهه، وأنزل بنطاله حتى قدميه، والدماء تسيل من فخذه وكان يقف عند رأس هذا الرجل شخصان أحدهما رجل والثاني امرأة. يبدو الرجل كأنه طبيب جراح، أما المرأة فيبدو كأنها مساعدة طبيب جراح. وقد انحنى الاثنان على

الرجل المستلقي على وجهه. يشتكي الرجل من وجود جرح أو دمل في ساقه، الصديد يخرج من الجرح كلما ضغط الرجل بيده عليه. وكان الرجل المستلقي يصرخ من شدة الألم.. أما أنا فقد شعرت بالغثيان من هذا المنظر.

شعرت إما أنهم لم ينتبهوا، أو لم يهتموا بدخولي، قامت المرأة بمسح وتعقيم الجرح بالكحول وماء الأوكسجين، ثم وضعت قطناً فوق الجرح ولفته بالضماد. في هذه الأثناء رفع الرجل رأسه فشاهدني. كان لديه وجهاً صبوحاً وبشوشاً، وكان يضحك فتشعر بان عيناه تضحكان وحتى زجاج نظارته، ثم قادني بعد أن مد يده مصافحاً وكأننا نعرف بعضنا منذ أربعين سنة.

ـ مرحبا.

وفيما نحن نتصافح سرى بيننا تيار الضحك فتبسمت، ولكنني تذكرت الكلام الذي قاله السائق ذمّ فيه هذا الرجل، فِأحجمت عن متابعة الابتسام.

نهض القروي الذي كان يتمدد على الطاولة ولبس بنطاله وقال:

ـ سلمت يداك يا سيدي المهندس.

ثم التفت إلى المرأة وقال:

ـ سلمت يداك يا زوجة أخي.

فقالت له المرأة:

ـ لاتنسى أن تأتي بعد يومين لأنني يجب أن أعالجك ثانية بتبديل الضماد.

فقال الرجل:

- بعد يومين؟.. إنني مشغول بالنهار.. فهل يمكن أن أزعجكم في الليل؟..

فقالت له السيدة:

- ممكن..لا ضرر في ذلك.

بعدها صاح المهندس الذي كان يضع النظارات على عينيه.

- ليدخل من جاء دوره.

دخلت امرأة قروية وقد احتضنت طفلاً رضيعاً لازال في اللفة، وبدأت تشرح الشكوى التي جاءت من أجلها قائلة:

- ياسيادة المهندس، إن الطفل لايتوقف عن البكاء لا في الليل ولا في النهار. وبينما كانت القروية تتحدث، دنا مني المهندس وقال لي:

- أرجوك لا تؤاخذني، فأنت ترى بأم عينك.

فقلت له فرحاً، لقد كنت أقوم بنزهة في السيارة، نسيت نفسي عندما شاهدت هذا المنزل الجميل فدخلت.. فقال لي:

- حسناً فعلت.. حسناً فعلت.. دعني أشاهد هؤلاء المرضى، وبعدها سوف نشرب الشاي بصحبتكم.

ثم عرفني على المرأة التي فكت لفة الطفل وقال:

- إنها زوجتي.

كانت هذه أول مرة في حياتي أشاهد فيها مهندس غابات يعمل كطبيب.

صرخت زوجة المهندس في وجه والدة الطفل، بعدما كشفت عن الطفل وقالت لها:

ـ واه.. واه.. ماهذا.. لقد اهترأ هذا المسكين، وانسلخ جلده لذلك لابد من أن يبكي ألا تنظفين جسمه أبداً؟ ألا تضعين بودرة الأطفال، أليس عندك حفاض جاف لكي تضعينه أسفل الطفل؟..

لم يتوقف الطفل عن البكاء.. نادى المهندس على مريض آخر وبعد أن استمع لعلته جيداً أصر عليه بالذهاب إلى المدينة لمراجعة الطبيب، فقال له القروي المريض لقد ذهبت إلى المدينة عدة مرات وراجعت الطبيب ولكن بدون فائدة، فأنا لم أستفد من العلاج.

التفت إليَّ المهندس وقال:

ـ إنه يكذب، فهو لم يذهب إلى الطبيب أبداً، ثم التفت إلى المريض وسأله أليس كذلك؟

فأشار القروي المريض برأسه بالموافقة على كلام المهندس، بعد ذلك أعطى المهندس هذا الرجل مائة ليرة وقال له:

ـ خذ هذه النقود.. وسددها لي عندما تتحسن صحتك في وقوفك في برج الحراسة، اذهب غداً في الصباح إلى المدينة وراجع الطبيب.. هيا.. مع السلامة.

وقبل أن يخرج القروي من باب المنزل أكد عليه قائلاً:

ـ حذار من الخداع. لأنني سأذهب إلى المدينة وأسأل فيما إذا كنت ذهبت إلى الطبيب أم لا وبعد أن خرج القروي قال لي:

ـ إنه مسكين ليس بمقدوره الذهاب إلى الطبيب، فعليه أن يدفع

أجرة الطريق وأجرة المعاينة وقيمة العلاج أيضاً.

تابعت تصرف هذين الزوجين مع القرويين المرضى أكثر من ساعتين. بعد ذلك أعطى لأحد المرضى رسالة كتبها إلى طبيب المدينة.

أحضرت الزوجة الشاي فنادى الرجل على سائق السيارة الذي كان ينتظر في الحديقة. فدخل هذا السائق الذي كان يصب أكاذيبه في هذا المهندس فصافحه ثم صافح زوجته وخاطبهم بمنتهى الاحترام ثم شربنا الشاي سوية، وفي سياق الحديث قال لي المهندس أنه قد وصل منذ مدة إلى سن التقاعد، ولكنه تخلى عن الفكرة لأنه وجد في نفسه مقدرة على خدمة هؤلاء الناس المساكين، وقال لي: له ابنتان وولد متزوج، والجميع يعيشون في هذا المنزل، كان يحدثني والابتسامة تملأ وجهه وبمنتهى الهدوء وكنت أنتبه إلى حديثه جدياً. بعد ذلك هب واقفاً وقال لي:

ـ سنقوم بإنشاء برج حراسة جديد، لذلك علي أن اذهب إلى موقع العمل.. يمكن أن نذهب سوية إذا كنت ترغب في ذلك؟

فهمت أنه مشغول، وفيما كنت أغادر المنزل قالت لي زوجته بحرارة:

ـ شرفنا بزيارة أخرى.. نحن ننتظرك على الغذاء..لابد أن تأتي؟..

قلت للسائق بعد أن ركبت السيارة:

ـ لقد قلت عن هذا الرجل أنه سيء بينما أحسست بأنه وزوجته كالملائكة.. فكيف تقول عنه أنه سيء؟..

تنهد السائق وقال بحسرة:

ـ آه.. لو تعرف كم هم سيئون!..

ـ حسناً. لماذا هم سيئون؟..

ـ دعني لا تحرجني أرجوك، فأنا لا احب أن أتكلم في ظهر أحد.

لم ألح عليه في الحديث.

وفي مساء اليوم الثاني سألت صاحب المقهى الذي كنت قد أحببت حديثه والذي كان يجلس أمام المقهى على كرسي قصير من القش عن المهندس المدير الإقليمي للغابات فأجابني:

ـ لقد مر على هذه المنطقة كثير من الموظفين السيئين، ولكننا لم نر حتى الآن أسوأ من هذا البني آدم أبداً، فسألته:

ـ لماذا هو سيء؟.

ـ دعني.. فأنا لا احب النميمة.. قال ذلك ودخل إلى المقهى ووقف أمام الموقد. كان كل ما أعرفه في السابق عن المدراء الإقليميين للغابات. أنهم يقومون بعملهم فيتجولون في الغابة أثناء الدوام فقط، وهم يسكنون في أجمل منازل المدينة أو البلدات المجاورة.. ماعدا هذا الرجل فهو يسكن ضمن الغابة وفي مكان منعزل.. سألت المختار الذي اسكن عنده عن هذا الموضوع فقال لي:

ـ يجب أن تعرف كم نواياه سيئة، فهو لا يسكن في المدينة، أو في المنطقة بل يسكن في هذا المكان المنعزل من الغابة. فسألته:

ـ لماذا هو سيء؟

فقال لي:

ـ لا تسألني عنه. أسأل غيري، فالجميع يعرفون ما عانوا منه، اسأل

وسوف تعرف الحقيقة، كان كل من تحدثت معه عن المدير الإقليمي للغابات ينهال عليه قدحاً وشتماً. ولكن لا أحد يرغب في الحديث عن مساوئه.

كان في القرية التي اسكن فيها، رجل يعمل في حراسة الغابات فسألته عن المهندس فقال لي بأنه رجل سيء للغاية. حاولت أن استشف مكان السوء لدى هذا الإنسان فسألته:

ـ هل يقوم بافتعال حرائق في الغابة لكي يستفيد من الأماكن المحروقة كأراضي زراعية ويبيعها إلى القرويين؟...

ضحك الرجل الذي يعمل في حراسة الغابات وقال:

ـ من أين جئت بهذا الكلام.. في القديم كانت تتعرض الغابة سنوياً من ثلاثة إلى أربعة حرائق، ولكن عندما جاء هذا المهندس إلى هنا منذ حوالي أربع سنوات فإننا لم نعد نر حريقاً واحداً.

ـ لماذا كانت تحدث حرائق في الماضي وانقطعت الآن؟..

ـ عزيزي لأن هذا المهندس رجل لا يعرف الليل من النهار، لذلك فهو لا ينام. وهو لا ينزل من على أبراج المراقبة.

لم يكن في هذه الغابة قبل مجيء هذا المهندس سوى أربع أبراج مراقبة وبدون هاتف أما الآن فهناك ما يزيد على السبعين برجاً معظمها مزود بأجهزة الهاتف وهذه الهواتف مرتبطة في بيته، بالإضافة إلى ذلك فقد قام بفتح طرقات كثيرة في الغابة لكي يسهل الوصول إلى مكان الحريق عند حدوثه وبالتالي إطفاؤه.

ـ ولماذا لم تُتّخذ مثل هذه التدابير في السابق؟

ـ لم يكن هناك أموالاً للقيام بمثل هذه الأعمال.

ـ وهل يعطونه المال الآن؟..

ـ أبداً فالوضع المالي هو نفسه، ولكن الرجل يتدبر أموره، إنه يتصرف ولا أعرف كيف يتصرف.

ـ حسناً. إذن لماذا هذا الرجل سيء؟..

تنهّد الرجل وسحب آهاً عميقة ثم ضرب بيده على صدره وقال:

ـ نحن نعرفه.. إنه رجل سيء جداً.. وكفى.

لعل هذا المهندس من الموظفين الذين يسرقون أموال الدولة!.. لأن كثير من الموظفين الماهرين والذين يعملون كثيراً يسرقون كثيراً أيضاً.

كنت قد تعرفت منذ مدة على أحد المدرسين الذين يعملون في إحدى القرى التي تبعد مسافة ساعة بالسيارة والذي سوف يحال على التقاعد قريباً. وكنت معجباً كثيراً بحديثه لذلك ذهبت إليه في هذا اليوم، وكان هدفي الحقيقي من زيارتي إليه هو الحصول على بعض المعلومات عن المهندس من خلال حديثي معه.

فقلت له:

ـ لقد تعرفت على المدير الإقليمي للغابات، وأعتقد أنه لص كبير، وهو يقوم بسرقة أموال الدولة فتصدى المعلم الذي تجاوز الخمسين من العمر بقوة لكلامي قائلاً:

ـ ومن قال لك هذا الكلام؟.

ـ لم يقل لي أحد. لقد استنتجت ذلك من تلقاء نفسي.

ـ ولماذا تركت مثل هذا الظن يسيطر عليك؟..

ـ علمت من أحد القرويين الذين يريدون إقامة دعوى على وزارة الغابات أن هذا المدير الإقليمي دفع للقرويين ومن جيبه الخاص أجور المحامي الذي سيقوم برفع الدعوى. فكيف يقوم بدفع أتعاب المحامي الذي سيرفع دعوى على الوزارة التي هو مدير إقليمي فيها إذا لم يكن له مصلحة؟.

ـ ليس له مصلحة البتة.. فالقروي صاحب حق، وليس لديه مال لكي يدفعه للمحامي لذلك اضطر هو لدفع أجور المحامي.

ـ يا أخي مهما كان الأمر فهو موظف، فمن أين له كل هذه الأموال لكي قوم بإنفاقها هنا وهناك. هل هو غني جداً؟...

ـ طبعاً إنه غني جداً، وهو يصرف معظم راتبه الشهري على القرويين الفقراء.. يوزع عليهم حتى أنه دفع العام الماضي مبلغاً من جيبه لإصلاح هذه المدرسة... زوجته غنية أيضاً.

ـ الله... الله.

ـ لماذا تستغرب.

ـ لأن الجميع يقول عنه أنه رجل سيء..

ـ بالنسبة لكونه سيء، فهو سيء.. وسيء جداً.. ونحن لم نر أسوأ منه.

ـ ما هو الشيء السيء في هذا الرجل، فهو لا يسرق، ولا يضرب، يساعد المحتاجين، يعمل بجد ونشاط، ماهر، طبيب...

ـ أرجوك لا أريد أن تحرجني!..

ـ أنا لا أريد إحراجك، إنما أريد المعرفة!..

- قلت لك إنه سيء، وهذا يكفي.. فلماذا تصر على معرفة السبب.

لقد دهشت كثيراً من تكتم هؤلاء الناس وعدم رغبتهم في الحديث عن مساوئه..

ذهبت مرة ثانية إلى بيت المهندس وفي الطريق سألت سائق السيارة مرة أخرى عن مساوئ ذلك الرجل فلم أحصل منه على إجابة، كان يكتفي بكلمة سيء بدون أن يقول شيئاً آخر.

- هل يأخذ رشوة؟..

- لا أبداً.. كونه سيء هذا أمر لايختلف عليه اثنان ولكننا لم نسمع أنه تقاضى رشوة من أحد.

- هو كذاب إذن؟

- التوبة.. إنه رجل لايكذب ولا يحتال.

وصلنا إلى ذلك المنزل الجميل. كانت زوجة المهندس موجودة. فقالت الزوجة:

- تفضلوا بالدخول، وسوف يأتي بعد قليل.. وهو سيفرح كثيراً عندما يراكم.. لقد ذهب منذ يومين لكي يقوم بالإشراف على قطع الأشجار.. لأن بعض موظفي الغابات يحتالون على القرويين في تحديد (المقطع).. إنه على وشك الحضور.. تفضلوا استريحوا.

فقلت لها:

- سوف أقوم بنزهة في الغابة ونعود بعد ساعة.

تركت السائق هناك.. ومشيت في الغابة.. سرت مسافة لابأس بها، وبعد فترة سمعت صوت صافرة.. بدأ صوت الصافرة يقترب..

ثم سمعت بعد ذلك صوت زمور سيارة فتلفت لأتبين مصدر الصوت، فرأيت طريقاً معبداً. وبعد قليل مرت سيارة جيب من هذا الطريق.. وبعدها توقف صوت الصافرة.. رجعت أدراجي، ووصلت إلى منزل المهندس، وكان المهندس قد وصل لتوه، وكان يقف أمام المنزل ومعه ثلاثة من حراس الغابات، واثنان من القرويين، كان أحد القرويين عجوزاً والثاني شاباً.

ـ رحب بي المهندس فور مشاهدته لي ثم قال:

ـ أهلاً وسهلاً.. تفضل.. سأنهي عملي الآن.

فهمت من الحديث الذي كان يدور بين المهندس وحراس الغابة وبين القرويين، أن هذين القرويين كانا يقومان بتهريب الأخشاب من الغابة وقد قبض عليهم وهم يحملون هذه الأخشاب. وبعد ذلك لم اعد افهم ما حدث، لأن زوجة المهندس كانت قد دعتني للدخول إلى المنزل.

دخل المهندس بعد قليل وقال لي:

ـ حسناً فعلت، إذ حضرت.. لقد أسعدتنا كثيراً. وكم هو جميل أن يصادف مجيئك إلينا وقت طعام الغذاء.

كان من غير الممكن أن لا أبقى على الغذاء، لأنني أريد الاستفادة من هذه الفرصة لكي أفهم بعض الأشياء التي يمكن أن تسقط سهواً من حديث المهندس، كانت المرأة قد أعدت مائدة شهية، فجلست أنا والسائق أمام المائدة.

تكلم المهندس عن المهربين وأعمال التهريب التي تحدث في الغابة فقال:

ـ ماذا باستطاعة هؤلاء المساكين أن يفعلوا إذا لم يمارسوا التهريب، فهم لا يملكون أرضاً زراعية، وإذا وجدت فهي بمساحة الكف، ولا تكفي شيئاً.. لا يوجد لديهم عمل. ولا مصانع، كما أن العمل الذي يقومون به لصالح مؤسسة الغابات والذي أخذوه من المتعهد، لايكاد يسد رمقهم، وأنا لا أتركهم يحرقون الغابة، لكي يحصلوا على رقعة أرض يزرعونها.. فهل يجب أن يموت هؤلاء الناس.. لذلك فهم مجبرون على القيام بقطع الأخشاب من الغابة بصورة غير نظامية. لكي يبيعونها حطباً. وفي هذه الحالة يقع علينا نحن مهمة التصدي لهؤلاء. وقلت لحراس الغابة: «يجب إحضار المهربين إلي قبل تسليمهم إلى الدرك».. أكثر من نصف المساجين في سجن المنطقة هم مسجونون بسبب جرائم الغابات.. لأنهم إذا لم ينالوا جزاءهم فإنك تعتبر متقاعساً في عملك الوظيفي، وإذا تركتهم لينالوا جزاءهم. فسوف يعذبك ضميرك.. إنه عمل صعب جداً.

بدأت اشعر بمزيد من الفضول لمعرفة السبب الذي يجعل هؤلاء الناس تقول عن هذا الإنسان الطيب أنه سيء. وقد دفعني فضولي هذا لأركب الحافلة وأذهب إلى المنطقة، وفي الأتوبيس جلس بجانبي أحد القرويين الذي تعرفت عليه عندما كان المهندس وزوجته يقومان بعلاج الدمّل الذي في ساقه. لذلك فقد كان سياق الحديث يشجع على امتداح المهندس، فقلت كم هو إنسان طيب!..

احتد القروي فجأة وقال:

ـ عن أية طيبة تتحدث أنت.. لم نر رجلاً أسوأ منه!..

وعندما قلت له كيف أن المهندس كان يساعده وكأنه طبيب فقال لي:

ـ هذا شيء.. وكونه إنسان سيء شيء آخر.

ورغم أنني تضايقت كثيراً حتى وصلنا إلى المنطقة إلا أنني لم استطع معرفة أي شيء من هذا القروي عن مساوئ هذا المهندس، كان يكتفي بأن يقول عنه سيء بدون أن يقول شيء آخر.

كان في المنطقة مخزن عائد للرجل الذي استأجر لي البيت الذي أسكنه في القرية فسألت هذا الرجل عن المدير الإقليمي للغابات ولماذا يجمع كل الناس على نعته بأنه سيء.

فقال لي:

ـ مادام الناس قد أجمعوا على إنسان ما وقالوا إنه سيء.. فمعنى ذلك أنه سيء.

ـ ولكن لماذا هو سيء؟..

ـ لأنه سيء.

كان يخطر على بالي أشياء لا يمكن أن تخطر على بال أحد.. هل زوجته.. مثلاً... أم أن تمسكه في الدين ضعيف بالنسبة لهذه المنطقة.. سألت صاحب المخزن عن ذلك فقال:

ـ حاشا لله.. حسبما رأينا، أنه رب عائلة شريفة جداً.

لازلت أفكر ببعض الأمور السيئة.. هل هو شاذ جنسياً رغم بلوغه هذا لسن؟

ـ كيف تقول مثل هذا الكلام؟.. من قال لك ذلك؟.

كل ما خطر على بالي من مساوئ كانت غير موجودة في المهندس.

لم اعد أطيق الصبر. فمادام هذا الإنسان سيء إلى هذه الدرجة، الناس مجمعون على انه إنسان سيء فلماذا لا يشتكون للوزارة مثلاً!..

ـ وهل نحن لم نشتكيه.. من قال ذلك.. تعال معي.

فاصطحبني وذهبنا سوية إلى مكتب محامي عجوز فقال له:

إن هذا السيد يتساءل لماذا لم نشك أمر ذلك المهندس السيء إلى الحكومة لكي يتم نقله من هنا!.. لذلك أرجو أن تطلعه على الشكاوى التي قدمناها ضده!..

سحب المحامي ملفاً ضخما وناولني إياه قائلاً:

ـ تفضل.. اطلع عليه.

بدأت بقراءة ما هو مكتوب في هذا الملف كانت جميع محتويات الملف عبارة عن كتب تخص موضوع نقل المدير الإقليمي للغابات من هذه المنطقة، وكانت معظم الكتب تحتوي على تواقيع أهالي القرية والناحية منفردين أو مجتمعين، كانت هناك برقيات وعرائض تحتوي على مئات بل آلاف التواقيع مرسلة إلى وزارة الغابات، ورئاسة مجلس الوزراء، والوزارات الأخرى، وإلى المراكز الرئيسية للأحزاب.

قلت وأنا في حيرة مما رأيت

ـ لماذا لم ينقل هذا الرجل، رغم كل هذه العرائض؟

ـ لم ينقل؟..

هذه المرة سألت المحامي:

ـ ما هي مساوئ هذا الرجل يا سيدي؟

ـ إن مساوئه كثيرة فعن أي واحدة تريدني أن أحدثك، إنه إنسان سيء من رأسه حتى قدميه. لم أقطع الأمل من معرفة مساوئ المدير الإقليمي للغابات، ورغم أنني تأكدت من كونه سيئاً إلا أن الفضول لازال يدفعني لمعرفة سبب مساوئه. كنت اذهب كثيراً إلى بيت المهندس، وكنت حكماً اجتمعت معه أكثر، كنت أحبه أكثر وأزداد إعجاباً به. كان منزله مليئاً بالكتب، وكان يحب القراءة، كل من سمع حديثه تعلم منه شيئاً، يساعد جميع الناس بدون مقابل، حتى بدون أن ينتظر منهم الحب!.. وحتى الاحترام. فهل لازال في هذه البلاد وجود لمثل هؤلاء الموظفين.

لقد ساورني بعض الظن، بعدما رأيت جميع الناس يتحدثون عن هذا الرجل ويقولون أنه سيء بأن «الناس عندنا لا تستحق المساعدة».

لم أعد احتمل أكثر فسألته في أحد الأيام.

ـ الجميع يتحدثون عنك ويقولون أنك إنسان سيء، ولم أر حتى الآن أي إنسان يمتدحك رغم كل الأعمال الجيدة التي تقوم بها.

فقال لي وهو يبتسم:

ـ اعرف ذلك.. إن هذا الكلام يصلني. الجميع يقول عني أنني إنسان سيء.

ـ حسناً.. ولكن لماذا؟..

ـ أنا لا أعرف.. اسألهم.. إنهم يعرفون لماذا!..

فقلت له:

ـ إنهم أناس ناكري الجميل، ولا ينفع معهم العمل الحسن!..

فرفع يده اليمنى وقال:

ـ أبداً... لاتقل ذلك.. إنهم ليسوا ناكرين للجميل أبداً.

انتهت فترة تغيير الهواء التي أتيت من اجلها إلى هذه المنطقة، وفي اليوم الذي غادرت فيه القرية ذهبت إلى المختار الذي استأجرت بيته وسألته:

ـ يا مختار.. إنني ذاهب الآن، ولكن في نفسي غصة وأريد معرفة مساوئ هذا المهندس.

ـ والله أنا لا أعرف أصل الموضوع، لكنني وجدت أن جميع الناس يتكلمون عنه بالسوء

ولكي لا اخرج عن رأي الناس أصبحت أتكلم مثلهم.

كان من البديهي أنه رغب في التخلص مني.

غادرت القرية وذهبت إلى الناحية، وبعد ساعتين سأعود إلى استانبول بالحافلة ولكي أستفيد من الوقت الضائع ذهبت إلى مكتب المحامي العجوز وقلت له:

ـ لقد جئتك مودعاً لأنني مسافر. ثم تابعت قائلاً:

ـ لكن الفضول يكاد يقتلني. أرجوك أن تشرح لي مساوئ المدير الإقليمي للغابات وأنا أعدك بأن لا أقول لأحد.

دنا مني المحامي العجوز وكأنه قد أخذ الآمان وقال:

ـ إنني واثق بأنك لن تقول لأحد. لذلك سأقول لك الحقيقة. إن

منطقتنا هذه كباقي المناطق يأتيها في بعض الأحيان موظفون سيئون وبعض الأحيان موظفون ممتازون فقلت:

ـ بالتأكيد.

وكلما زادت شكاوى الناس من ذلك الموظف. كلما بقي الموظف مدة أطول في المنطقة فلا تقوم الحكومة بنقله إلى مكان آخر. ولكن إذا جاءنا كل أربعين سنة موظف جيد واحبه الشعب وبدأوا يتحدثون عن محاسنه في كل مكان، عندها تقوم الحكومة فوراً بنقل هذا الموظف الذي أحبه الشعب إلى مكان آخر. لذلك فلا يبقى لدينا موظف جيد!..

وعندما تقوم الدولة بنقل هذا الموظف الجيد من هنا لكي تضعه في مكان آخر ويقوم سكان المنطقة بجمع التواقيع ويكتبون العرائض، حتى لا ينقل هذا الموظف ولكن بدون فائدة. وبعد أن تعلمنا من التجارب التي مرت علينا. أصبحنا نقول جميعاً عن الموظف الجيد الذي يأتي إلى هذه المنطقة أنه سيء. لكي لا تسمع الحكومة أنه جيد. عند ذلك لا تفكر الحكومة أبداً بنقل هذا الموظف لأنه يتصرف مع الناس بشكل سيء. انظر إلى حال المدير الإقليمي للغابات الجميع من سن السابعة وحتى سن السبعين يقولون عنه أنه سيء، ورغم ذهاب عدة عرائض من هنا تحمل مئات بل آلاف التواقيع إلى الوزارة، والحكومة، ورئاسة الوزراء وكل هذه العرائض تطالب بنقل هذا الموظف، ورغم ذلك لازال المهندس هنا منذ أربع سنوات ومادام لدينا هذا الإصرار فسوف نحتفظ به أربع سنوات أخرى إن شاء الله.

وبهذه الطريقة كما ترى استطعنا الاحتفاظ بهذا الرجل!.. اذهب

الآن واسأل عن القائم مقام لترى ماذا يقولون عنه.

ـ لقد فهمت الموضوع، ولكني خرجت بسؤال آخر. لماذا تنقل الحكومة الموظف الجيد من هنا وتترك الموظف السيء.

فقال لي المحامي العجوز:

ـ إن الحكومة تريد معاقبة الشعب في هذه المنطقة، لأن الشعب هنا لم يصوت في الانتخابات للحزب الحاكم.

ـ حسناً ولكن الجميع هنا يتكلمون بسوء عن المهندس، ألا يوجد أحد هنا من الحزب الحاكم؟ فقال لي:

ـ أنا من الحزب الحاكم، ولكن الجميع متفقون على هذا الموضوع.. جميع الأحزاب، لأن هدفنا واحد وهو الحفاظ على الموظف الجيد وعدم نقله من هنا.. نحن متفاهمون جميعاً على قدح الموظف الجيد.

وبينما كنت أغادر مكتب المحامي قال لي:

ـ لا تنسى أن تسأل أهالي المنطقة عن رأيهم في القائممقام.

وفيما كنت أنتظر قدوم الحافلة سألت حوالي عشرين شخصاً عن القائممقام. وقد مدحه الجميع حتى أوصلوه إلى السماء. لم نر مثل هذا القائممقام أبداً وكانوا يتسابقون في كيل عبارات المديح والإطراء.

جاءت الحافلة متأخرة ساعتين عن موعدها.. كان الشخص الذي جلس بجانبي موظفاً يعمل في مكتب القائممقام.. فسألته:

ـ كيف هو القائممقام؟ فقال لي:

ـ إنه أسوأ من السوء.. وبدا يعد مساوئه!.؟.

ـ ولكن الجميع يمتدحونه..

فأجابني الموظف:

ـ لأنهم لا يعلمون أن القائمقام قد تم تعيينه في مكان آخر.. فقد صدر أمر نقله هذا اليوم لذلك عليك أن تسألهم عن رأيهم بعد سماع هذا الخبر.

○ ○ ○

١٤ ـ لماذا ضرب سائق التاكسي الراكب الذي كان معه

كنت واقفاً على رأس طابور في موقف سيارات النقل، وكنت محظوظاً في ذلك اليوم لأنني لم انتظر طويلاً.. وقفت أمامي سيارة صغيرة محلية الصنع. المقعد الخلفي ممتلئاً بالركاب، بينما راكب واحد بجانب السائق، فجلست بجانبه.. معذرة إذا قلت أنني جلست بجانب الراكب!.. لأن الجلوس لم يكن بالأمر السهل، فهذه السيارة المحلية الصنع تحوي في مقدمتها على مقعد واحد إضافة لمقعد السائق، وهذا المقعد مخصص لراكب واحد فقط، لكنهم يستعملونه من أجل راكبين.. لو كان الراكبان من الحجم المتوسط فيمكن أن يحشروا على هذا المقعد، لكن الراكب الذي كان يجلس بجانب السائق من الحجم الضخم، بحيث لا يكفيه المقعد لوحده، كان بديناً جداً وغليظاً حتى أن بعض أجزاء جسمه لازالت خارج السيارة، أما بالنسبة لي فرغم أنني لا أعتبر بديناً لكنني لست هزيل الجسم، كان جسمي مكتنزاً أيضاً، لم أستطع بشكل من الأشكال الجلوس بجانب هذا الرجل ورغم أن السيارة انتظرتني طويلاً ولم تتحرك من الموقف إلا أنني لم أتمكن من الجلوس.

على كل انحشرت داخل السيارة بعد صعوبات، وأعتقد أنني خالفت بذلك تلك القاعدة الفيزيائية التي تقول: «إن لكل مادة حجماً مختلفاً، وكل مادة تملأ مكاناً مختلفاً» لأنني أنا وهذا الرجل رغم أن كلانا من مادة حية مستقلة عن الأخرى، إلا أننا توحدنا في نفس

المكان وأخذنا نفس الحجم، ،اصبح كلانا خليط واحد، كان منظرنا مضحكاً للغاية، فلم يتمالك الركاب الذين يجلسون في الخلف أنفسهم من الضحك، أما السائق فلم يضحك لأننا قد سببنا له الإزعاج على ما يبدو. فقال وهو محتد:

ـ أنا سيء الحظ.. فلقد اشتريت هذه السيارة منذ ستة اشهر، ولكنني لم أجد إنساناً جسمه عادي يركب فيها.. على كل إنها لم تعد سيارة.. لقد أصبحت أشبه ما يكون بعلبة السكائر.. فكل من يتمتع بجسم ضخم في تركيا وأينما كان، يفتش ويبحث عني، ليركب سيارتي.. صدقوني لقد توسع حجم (الهيكل) بسبب ضخامة الركاب، فهم يتزاحمون حتى يتمكنون من الجلوس في المقعد الأمامي.. يا أخي ألم يبق في هذه البلاد إنسان ذو بنية عادية غيري؟..

لقد كان السائق هزيلاً نوعاً ما، وكلامه يثير الضحك، ضحك الركاب الجالسون في الخلف، كما أعتقد أنني ضحكت أيضاً، فأنا لست متأكداً فيما إذا كنت أنا من ضحك أم هو لأننا تداخلنا مع بعضنا أنا وهذا الرجل الضخم لدرجة أنني لم أعد أستطيع التفريق من يضحك منا، وحتى لو صدرت بين الحين والآخر أصوات الغازات التي يمكن أن تخرج من البطن بسب هذا الضغط الشديد، فلن أتمكن من معرفة فيما إذا كنت أنا قد اصدر هذه الأصوات أم ذلك الرجل الضخم الذي يجلس بجانبي؟..

كما أنني لم أستطع الالتفات برأسي لأراه فاكتفيت بسماع صوته فقط، كان الركاب الثلاثة الذين جلسوا في الخلف يحاولون تهدئة السائق فقالوا له:

ـ السيارات الآن أصبحت صغيرة الحجم بحجم علبة الكبريت يا بني..

أين تلك الخيول ألا ترى أنه صغر حجمها أيضاً حتى أصبحت بحجم الحمير.. هل ترى الآن حميراً كالحمير القديمة!.. أين تلك الحمير؟.. لقد كانت أكبر من الخيول في ذلك الزمان، ولكن الحمير بدأ يصغر حجمها في هذا الزمان حتى غدت بحجم الكلاب، وحتى الكلاب مازالت تصغر حتى غدت بحجم القطط، ثم أين القطط القديمة، هل يوجد مثلها الآن، بدأت تصغر أيضاً حتى أصبحت بحجم الفأر.. وكل شيء يسير على هذا المنوال.

فهمت من تبدل الصوت أن شخصاً آخر ممن يجلسون خلفنا قد بدأ الكلام فقال:ـ كلا.. هذا لا ينطبق على كل شيء. فبالرغم من أن هناك أشياء كثيرة صغر حجمها إلاأن شباب اليوم هم ماشاء الله أكبر حجماً من ذي قبل، وهذا ينطبق على الفتيات أيضاً.

ضحك الرجل الذي كان يتكلم في البداية وقال:

ـ صحيح أن حجمهم قد كبر ولكن ليس بإرادتهم.. ربما كان ذلك من تأثير الفيتامينات لأن كل من يتناول فيتامينات كثيرة لابد أن يكبر حجمه، ولو سقوا برج بيازيد ماء ممزوجاً بالفيتامينات فلا بد أن يزداد طوله قامتين!..

ـ هذا صحيح.

لابد أن هذا التأييد قد صدر من الراكب الثالث.

تابع الراكب الذي كان يتحدث عن الفيتامينات وتأثيرها في تضخم الأشياء فقال:

ـ إن كل شيء الآن يا عزيزي يصغر حجمه، ماعدا بعض الخضار والفواكه، والملفوف والبيض والشباب يكبر حجمهم.. لماذا؟..

ـ لأن الملفوف وما شابه يتغذى بالأسمدة الصناعية، فتكبر حبة الملفوف لتصبح كأنها شجرة صنوبر، حتى الفواكه، يكثرون من الأسمدة الصناعية فتغدو حجم حبة الدراق بحجم البطيخ، ولكن الطعم!.. لا تتحدث عن الطعم، فلا طعم لها.. أين طعم الملفوف القديم والبندورة، أين طعم الدراق القديم والبطيخ القديم.. إنه غير موجود الآن..لنأتي إلى البقر فهم يضعون أمامه علفاً صناعياً، كما الدجاج أيضاً. ماذا يحدث بعد ذلك؟.. البقرة التي كانت تعطي كيلو غرامين من الحليب أصبحت تعطي ٢٠ كيلو غراماً، والبيض يكبر حجمه ولكن بدون لون أو طعم، أين ذلك من الحليب القديم، وطعم البيض القديم؟.. وهكذا حال شباب هذا اليوم فهم يعطون الفيتامينات للأطفال حتى يكبروا فيصبحوا كالجمال ما شاء الله.. ولكن هل هناك طعم لجيل هذا اليوم، إنه شيء بلا طعم ولا نكهة.. (وبعد أن ضحك بألم) قال: والله لو لم يتناول هؤلاء الشباب الفيتامينات مسبقاً لما اصبحوا عفواً بحجم (...).

ضج جميع من في السيارة بالضحك، وأعتقد بأنني ضحكت أيضاً.

ثم قال أحد الجالسين في الخلف:

ـ صحيح، حتى الصالونات القديمة صغر حجمها وأصبحت بحجم الغرف، وصغر حجم الغرف، حتى أصبحت بحجم المراحيض، والمراحيض بحجم الحقيبة حتى لم يعد من الممكن

الدخول إليها، حتى قطع الخبز صغر حجمها وأصبحت بحجم خبز الصندويتش.

كان السائق من قبضايات استنبول شارك في الحديث قائلاً:

ـ يقولون في الأمثال «اصغر ثم اصغر وتعال ادخل في (..)

كانت الضحكات تعلو داخل السيارة أما أنا فلم أكن أشعر بالسرور سابقاً كما شعرت ألان، وكنت أود أن أقول: « أين ركاب السرفيس أيام زمان، إنهم لا يشعرون بالسعادة كما نشعر بها نحن الآن» ولأنني انحشرت في مكاني كثيراً فلم تبدر مني أية كلمة. كان الشارع مزدحماً بالسيارات.. وقفت السيارة فجأة، على بعد بضعة أمتار من أحد الجوامع وكان الزحام على أشده أمام هذا الجامع.

فقال السائق:

ـ لقد اقتنعت الآن بأن هذا الجامع قريب من الجنة.

سأله أحد الجالسين في الخلف:

ـ لماذا؟.

ـ ألا تعرف لماذا.. انظر المدينة ملأى بالجوامع.. ولكنهم لا يصلون على الجنازة إلا في هذا الجامع، لكي تخرج الروح من هنا إلى الجنة بسرعة.. يا أخي الجوامع في استنبول أكثر من البيوت، ومعظمها فارغ، فلماذا يصرون على خلق كل هذا الازدحام لكي يصلوا على الجنازة في هذا الجامع.. والآن علينا أن ننتظر.. لاشك أن جميع السائقين يترحمون على روح الميت.

علت الضحكات مرة أخرى:

فقال أحد الجالسين في الخلف:

ـ يا أخي وما ذنب الميت؟.

انتظرنا كثيراً.

ورغم أننا كنا مضغوطين جداً. إلا أن المشوار كان ممتعاً، دُهشت لشعوري بالسعال في الوقت الذي لم يكن لدي بوادر السعال. ولكن هذا الشعور انتابني بعد أن بدأ ذلك الشخص الذي كنت أجلس بجانبه بالسعال، ولأن صدورنا التصقت ببعضها. كان على يمين الطريق إلى الأمام حمام، وكان العمال يقومون بهدمه منذ مدة بغرض تعريض الطريق ولكنهم لم يتموا حتى الآن سوى هدم الجدران الحاملة للقبة الكبيرة.

توقف المرور لازدحام الطريق بالسيارات، كنا نتقدم ببطء شديد للغاية، حديث الركاب داخل السيارة ممتع فهم يحبون المزاح لدرجة أنني لم أتضايق لتأخري في هذا الطريق. بقيت صامتاً بينما استمر الركاب بالكلام عندئذ انتابني شعور بالدونية كيف لم أشارك هؤلاء الناس ولو بإلقاء طرفتين على الأقل !..

وأعتقد أن ذلك الرجل الذي التصقتُ به قد انتابه الشعور نفسه. كان الحمام بعيداً بعض الشيء وكنا نراه من بعيد.

تكلم الرجل البدين فقال:

لقد ذهب الحمام مجاناً.

كانت هذه الكلمات بمثابة فاتحة لبداية حدي مرح، أما أنا فلم يكن لي أي علاقة في موضوع الحمام وإن هذه الكلمات لم تصدر عني بل صدرت عن الشخص البدين الذي يجلس بجانبي.

سأله السائق:

ـ كيف ذهب مجاناً؟

كان هدف الرجل البدين من كلامه هذا هو مجرد إيجاد مدخل للحديث، لذلك فتح فمه وبدا يتكلم بلهجة سكان المناطق النائية الخشنة وبكلام غير موزون.

ـ لا تسألني كيف، من البديهي أنه ذهب مجاناً، لقد اشتروا مني ذلك الحمام الضخم بستمائة وثمانون ألف ليرة..

أراد السائق أن يتعرف على صاحب الحمام فلم يستطع أن يلتفت إليه لأننا كنا قد تداخلنا مع بعضنا كثيراً فاكتفى بالنظر بطرف عينيه وأصيب بالدهشة عندما رأى مظهر ذلك الرجل فسأله:

ـ الله.. الله هل كان ذلك الحمام الضخم ملكك؟

ـ نعم.. كانت ملكي.

ـ معك حق.. ستمائة وثمانون ألف.. لقد بعته بسعر رخيص!..

ـ ليس رخيصاً، بل قل إنه ذهب مجاناً.. مجاناً فهو بالإضافة اتساعه فهو يقع على شارع رئيسي وفي منطقة مزدحمة.

فسأله السائق:

ـ حسناً والآن كيف أصبحت مالكاً لهذا الحمام. هل انتقل إليك إرثاً من والدتك؟

ـ أبداً.. لأن أبي لم يترك لي سوى الديون.. لقد اشتريته من مالي.

ـ وكيف اشتريته؟

ـ كالعادة.

أطلق الرجل البدين هذه الكلمة بمنتهى البساطة وكأنه اشترى ربطة عنق ثم أضاف قائلاً:

ـ لدي حمام آخر.

لم يفتح السائق فمه بكلمة، كما لم يتدخل الركاب في الحديث، ولم نعد نشعر بحلاوة وحرارة الحديث والمزاح الذي كان يسود جو السيارة قبل قليل، وسيطر على الجو صمت بارد، وبعد أن سارت السيارة مسافة لا بأس بها شعر الرجل البدين أنه يجب أن يوضح الأمر فقال:

ـ أنا أملك ثلاثة حصص من اصل تسعة عشر حصة في الحمام الثاني، أما في هذا الحمام الأول فلا أملك سوى حصة من اصل مائتين وسبعين حصة.

صرخ السائق قائلاً:

ـ ماذا تقول.. مائتين وسبعين حصة؟..

لقد أصيب السائق بالدهشة لدرجة انه لم يعد قادراً السيطرة على مقود السيارة فبدأت تترنح يميناً وشمالاً.

ضحك الرجل البدين ببرودة فائقة ثم قال:

ـ إيه.. مائتين وسبعين حصة.. من بينها حصة واحدة لي، وإذا كنت تريد الحقيقة فهم مائتان وأربع وستون حصة، ولكنني أختصر فأقول مائتين وسبعين حصة. وهذا ما بقي من الحمام بعد أن انتقل إرثاً من شخص إلى آخر، ولأن العائلة كانت تكبر باستمرار فقد ازداد عدد الورثة لدرجة كبيرة.

- وهل أنت من أحد أفراد تلك العائلة؟

- أبداً فأنا لم أسكن في استنبول إلا من إحدى عشر عاماً.

- الله.. الله وكيف أصبحت خلال إحدى عشر عاماً مالكاً الحصص في حمامين وكيف اشتريتهم.

- كالعادة.

عاد الصمت يسيطر مرة ثانية على السيارة، فأوضح الرجل البدين قائلاً:

- لأن هناك حصصاً كثيرة لا يُعرف أصحابها، فأجارها رخيص، رغم أن الملاكين كبر عددهم إلا انه ليس لأحدهم معرفة بعمل الحمام، فمنهم المهندس، والدكتور ومنهم البروفيسور كما أن بعضهم في أميركا والآخر في أوروبا، إنهم موزعون في كل البلاد. ثم إنه لم يسبق لأحد أن دخل الحمام ودلّك جسمه، إنهم معتادون الاستحمام بمفردهم في مغطس الحمام. عندما اشتريت الحصة الواحدة من بين المائتين وسبعين حصة حاولت خداع الفتى صاحب تلك الحصة وطلبت منه أن يدخل إلى الحمام، ولكن ما أن دخل باب الحمام حتى شعر بالبرد فرجع فوراً.. كنت أريده أن يدخل الحمام ويجلس فوق بيت النار لكي تعرق جسمه ومن ثم أدلكه فيطري جسمه فيبيعني حصته بسعر رخيص، ولكن الفتى عرف هدفي فلم يدخل الحمام وشعرت بأنني سأنتهي.

سأله السائق:

- يعني انك دخلت أولاً إلى الحمام كمستأجر.

- نعم أخذته في البداية كمستأجر، ثم اشتريت حصة منه.

ـ بكم اشتريت حصة الحمام من الفتى الذي دخل الحمام؟

ـ إما بثلاثة عشر ألف.. أو بأربعة عشر ألفاً لا أتذكر!..

ـ ماذا تقول.. قال السائق هذه الكلمة وبدأ اختلال توازن السيارة فتتجه يميناً وشمالاً.

كان السائق يبدي دهشته من كل كلمة يقولها الرجل البدين، ولهذا السبب كان يقود السيارة بسرعة البرق فيختل توازنها وتذهب من الشمال إلى اليمين.

ـ يا أخي إنك خسران.. لقد سببت لي الصداع وأنا أحسب قيمة الحصة الواحدة فيما أخذت مبلغ ستمائة وثمانون ألفاً من مائتين وسبعون شخصاً، فمعنى ذلك أنك بعت الحصة بحوالي ألفان وخمسمائة ليرة. فاعتقدت وأنا أسمع حديثك أنك شخص شاطر وعيونك مفتوحة.

شعر السائق بارتياح بعد أن وجه مثل هذه الطعنة للرجل البدين، فضحك بأعلى صوته، واستمر بالضحك لفترة لابأس بها، لكن الرجل البدين كان يضحك ضحكة ناعمة لا تتلاءم مع حجمه أبداً. ولأننا كنا مزدحمين فلم يستطع أن يأخذ راحته بالضحك، فكان يضحك ضحكات متقطعة وكأنه يكتب حروفاً على مبرقة (مورس).

فقال له السائق:

ـ لماذا تضحك أنت؟ هل تضحك على غبائك؟

ـ يالهذا الضحك.. لقد طفرت الدموع من عيناي، أنا لم أبع الحمام بستمائة وثمانون ألفاً.. الستمائة وثمانون ألفاً هي قيمة حصتي فقط.

ـ ماذا!!

ـ ماذا تظن أنت؟

اختل توازن السيارة من جديد وكدنا نصطدم بالسيارة والشاحنة التي أمامنا.

خفت كثيراً ولكن السائق سيطر ثانية على السيارة.

ـ أوه ما أجمل أن تشتري بأربعة عشر ألفاً، وتبيع بستمائة وثمانين ألفاً. قبل كم سنة اشتريت هذه الحصة؟

ـ منذ حوالي أربع سنوات تقريباً.

ـ ماذا تقول!.. كل هذا الربح تحقق خلال أربع سنوات!

ـ ما الداعي لكل هذه الدهشة، وأنت أيضاً لو دفعت أربعة عشر ألفاً قبل أربع سنوات كنت أخذتها الآن ستمائة وثمانون ألف ليرة.

اختل توازن السيارة مرة أخرى، ثم سأله السائق:

ـ وهل قبضت النقود؟

فقال الرجل البدين

ـ نعم لقد قبضتها بالتمام ستمائة وثمانون ألفاً

ـ قد يكون من المعيب أن أسألك! فأي مغفل دفع لك كل هذا المبلغ من أجل شراء هذه الحمام.

فأجاب الرجل البدين، جواباً على سؤاله هذا ببرودة لا تطاق.

ـ من سيكون؟.. طبعاً الحكومة.

اختل توازن السيارة ولم يبق إلا أن تطير. لكن السائق تمكن من

السيطرة مرة أخرى على مقود السيارة.

في هذه الأثناء مررنا أمام الحمام الذي يهدمه العمال فقال الرجل البدين.

ـ طبعاً سآخذ حقي.

ـ لقد أخذته.. عن أي حق تتحدث؟

ـ عن حقي لدى الحكومة. لأن حقي يساوي أكثر من ستمائة وثمانون ألفاً فليس من المعقول أن تباع في هذا الزمان حصة من الحمام الذي يقع في أجمل موقع بمبلغ ستمائة وثمانون ألف ليرة فقط.. ولكن لم يكن بيدي حيلة لأن الحكومة أخذته رغماً عني. علماً بأنه يساوي حوالي المليون ونصف. على كل إنها حكومتنا وعلينا أن نتحمل بعض الأضرار من أجلها.

كان الحديث في السيارة يقتصر على السائق والرجل البدين، أما أنا فكان قلبي يقفز إلى فمي كلما اختل توازن السيارة.

ـ مادام حقك هو مليون ونصف على الأقل، فمعنى ذلك أن الحكومة قد أكلت حقك!.. فأجاب الرجل البدين:

ـ لقد قالوا لي أن هذا المبلغ هو بدل الاستملاك، ولكن حسب الضريبة التي دفعتها فإن بدل الاستملاك لا يصل إلى مبلغ ستمائة وثمانون ألفاً!.. على كل لقد اتفقت مع أحدهم، وأعطيته مبلغاً لا بأس به فرفع لي المبلغ حتى وصل إلى ستمائة وثمانون ألفاً أي أنني لم أحصل على مبلغ الستمائة وثمانون ألفاً كله في يدي. والآن سلمت الموضوع إلى محامي جيد من أصحاب النفوذ، فطمأنني وقال لي لا تقلق سوف نحصل على حقنا).

لم يعد بمقدور السائق السيطرة على السيارة، وكأنها أصبحت إنساناً يريد معاكسة السائق، كانت السيارة على وشك الاصطدام بالرصيف فأوقفها السائق لكي يتجنب وقوع الحادثة. ثم انحرف ليدخل في أحد الشوارع الجانبية. والتفت إلى الركاب وقال بصوت هادئ:

- معذرة أيها السادة. لدي عمل مهم جداً، لا يستغرق أكثر من دقيقتين. وبعد ذلك سآخذكم من طريق مختصر لأعوض لكم التأخير.. والآن اسمحوا لي سوف اذهب من هنا. ثم دخل ذلك الشارع الجانبي، لم يستطع أي واحد منا أن يعترض عليه ليقول له لا يمكن. فبعد أن سار في ذلك الطريق الجانبي، انعطف نحو اليمين ثم سار في أماكن خالية حتى وصلنا إلى منطقة البساتين فأصبح الطريق غير سالك، أوقف السيارة بالقرب من تلة صغيرة. كان على يسارنا مقلب الزبالة. فكرت بالأمر ما هو العمل المهم لهذا السائق في مثل هذا المكان، وقلت في نفسي لعل المسكين تضايق كثيراً ولايريد أن يعملها تحته وهو في السيارة فجاء إلى هنا لكي يفك ضيقه ويرتاح.

نزل السائق من السيارة، وسار إلى يمينها وفتح الباب وقال لي:

- اخرج.

هذا السائق لا يشبه السائق المرح الذي كان يتحدث معنا طوال الطريق، إنه رجل آخر. تحاملت على نفسي كثيراً وأنا أحاول الخروج لأنني كنت ملتصقاً بذلك الرجل البدين لدرجة أن انفصالي عنه لم يكن بالأمر السهل. وما أن نزلت من السيارة حتى قال السائق للرجل البدين:

ـ انزل إلى الأسفل.. ولك

لم يبد الرجل البدين أي اعتراض، لأن السائق كان قد مسكه من ياقته وأخرجه بالقوة.

نزل الرجل البدين وقد بدا السائق بجانبه مثل عملة صغيرة لأن حجمه كان اقل من نصف حجم الإنسان البدين.

ـ رجع السائق خطوة إلى الوراء، ثم قفز فجأة، ونطح الرجل البدين في رأسه. لم أر مثل ذلك في حياتي. تتالت ضربات الرأس على رأس الرجل البدين كما لو كنت تضرب اليقطين بحجر قاس، انهار الرجل البدين مثل كيس فارغ وغرق وجهه بالدماء فمسكه السائق من ياقته ورفعه عن الأرض وصفعه على وجهه صفعة تردد صدى صوتها في أرجاء تلك المنطقة.

عندها سأله الرجل البدين:

ـ لماذا تضربني.. ماذا فعلت لك؟

ولم يستطع حتى أن يدافع عن نفسه أمام صفعات ولكمات ورفسات السائق. وفي الحقيقة بدأت أرتجف خوفاً، نظرت إلى الركاب الجالسين في المقعد الخلفي للسيارة فكانوا أيضاً من ذوي الأجسام الممتلئة. همس أحدهم.

ـ ما سبب غضب هذا الرجل؟

وخشية أن يسمع السائق كلامهم بدأوا يتكلمون همساً.

ـ هذا غضب منه لأنه بدين فانهال عليه بالضرب.

ـ إذا كان الأمر كما تقول فإن دورنا آت لا محالة!.

ـ ماذا علينا أن نفعل؟
ـ هاي.. الله.. مامن أحد يمر من هنا حتى نستغيث يه.
تشجعت أنا وسألتهم:
ـ لماذا يضرب هذا الرجل؟
فقال لي أحدهم
ـ ونحن أيضاً نفكر في هذا الموضوع.
ـ هل يريد أن يسلبه نقوده بعد هذه المعركة؟
ـ إذا كان الأمر كما تقول فسوف يأخذ نقودنا أيضاً.
ـ هل نهرب؟
ـ لا نستطيع الهرب.. لأنه سيلحق بنا ويقبض علينا.
ـ صحيح انظر إليه فهو أشبه ما يكون بكلب الصيد.
ـ كما أن لديه سيارة ويستطيع اللحاق بنا بسرعة.
ـ في هذه الحالة، دعونا نصرخ بأعلى صوتنا ونقول (الحقونا إنهم يسرقون الرجل).
ـ سينهال علينا ضرباً.
ـ ريثما يسمع أحدهم نداءنا، يكون قد أجهز علينا.
ـ هل هو مجنون؟
ـ في الحقيقة إن الرجل الذي يضربه لم يفعل شيئاً.
ـ حتماً مجنون.. وقد ينهال علينا بالضرب بعد ذلك.
كان الرجل البدين لا يكف عن التساؤل وهو يتوسل قائلاً للسائق:

ـ ماذا فعلت لك حتى تضربني!.. لماذا تضربني.. كنا نتباحث فيما بيننا ونتساءل عن السبب الذي من أجله قام هذا السائق بضرب الرجل، هل لأنه يكره الناس الممتلئين جداً. وهو ذو جسم نحيل، أم أنه يريد سرقة نقودنا.. أو ربما كان مجنوناً. ناقشنا جميع الاحتمالات، بعد ذلك سمعنا صوتاً يشبه الصوت الذي يصدر عن سطل فارغ عندما يلقى في بئر. وكأن السائق قد تلوثت يداه بالنجس فبدأ يمسح راحتي كفه ببعضهما ثم جاء إلى جانب السيارة وقال:

ـ تفضلوا أيها السادة. هيا بنا. ودخل السيارة ومسك المقود وقال:

ـ لا تؤاخذونني فقد كنت السبب في تأخيركم بعض الشيء ولكنني سآخذكم من طريق مختصر لأعوض الوقت الضائع.

عاد الرجل إلى طبيعته، إنسان قبضاي، ولم يتجرأ أحد منا على سؤاله «لماذا ضربت هذا الرجل» أصبحنا على وشك الوصول.. فأوقف سيارته عند آخر موقف ثم قام بوداعنا فرداً فرداً وهو يقول: ـ مع السلامة، متمنياً لكم أطيب الأوقات.

أما أنا فنسيت حتى أن أدفع الأجرة، مشينا بجانب بعضنا نحن الأربعة فقال أحدنا:

ـ لم نفهم.. لماذا ضرب الرجل؟

فقال الثاني:

ـ والله أنا أيضاً لم افهم.

فالتفت الثالث إلي وسألني:

ـ هل فهمت أنت يا سيدي؟

ـ كلا وأنا أيضاً لم افهم.

افترقنا وذهب كل منا في طريقه ولكنني لم استطع أن أتخلص من تأثير هذه الحادثة وكنت اسأل نفسي، لماذا ضرب السائق ذلك الرجل البدين.

ـ ما رأيكم أنتم؟ هل فكرتم بشيء.. لماذا ضرب السائق ذلك الرجل البدين يا ترى!..

○ ○ ○

١٥ ـ أول دخول للمدينة

أيها السادة لا تنظروا إلى المظهر الخارجي لقصبتنا الجرداء، ولا تقولوا أننا بلا عقل فأباؤنا هم الذين بنوا هذه القصبة فوق تلك الصخور العالية، ومع ذلك فجميع التجار المشهورين، سواء في هذه المنطقة، أو في استنبول، أو أنقرة وحتى في ميونيخ، وبرلين وهامبورغ، هم من سكان هذه القصبة، يعني أنها أهم مركز للاستثمار، لأنه لا يوجد تجار يمكنهم التفوق على تجارنا.. صحيح أن منظر قصبتنا لايوحي بذلك. لماذا؟ لأن تجارنا لا يمكثون فيها ألا يحبونها لماذا؟.. عندما تقول تاجر ماذا يعني ذلك؟ التاجر يعني هو ذلك الشخص الذي يستطيع أن يأخذ كل ما يملكه سكان تلك المنطقة وبموافقتهم، ولأن تجارنا يشفقون على سكان منطقتهم، لذلك فهم لا يمكثون فيها، بل يقومون بمزاولة تجارتهم في أماكن أخرى، فأينما ذهبتم وسألتم عنهم، سيقولون لكم أن عيونهم مفتوحة. يعني أن أفضل مكان للاستثمار هو هنا. أهكذا تظنون؟.. فهم كما تريد! كلا ليس كما يقال صحيح. إنها الغيرة.. الإنسان مصاب بالغيرة في كل مكان. وهذا يشكل إساءة لهم. سكان هذه المنطقة أذكياء مهرة.. حتى اليهود لا يستطيعون العيش فيها.. هكذا يحدثنا تاريخها، وهذا ماروواه لنا الأجداد. ففي قديم الزمان ركب يهودي على حماره ومعه ابنه وخرجا في سفر بحثا عن مكان شعبه أكثر سذاجة من أي شعب آخر ليمارسوا أعمالهم التجارية هناك، تجولا من قصبة إلى أخرى وشرعا بفحص عقول

الناس، وبعد أن تجولا كثيراً وصلا إلى قصبتنا، فترجل اليهودي من على ظهر حماره، وتوقف في أول الطريق المؤدي إلى القصبة وأرسل ابنه إليها، وصادف في ذلك اليوم وهو يوم الخميس أن كان في القصبة بازارا. وبناء على الدرس الذي تعلمه الفتى اليهودي من والده، قال لأول رجل صادفه من الباعة في البازار يا عمي لدي أربعين بارة فقط، وأريد أن تبيعني شيئاً إذا أكلته يشبعني ويروي عطشي، ويبقى منه طعاماً لحماري، فأخذ الرجل الأربعين بارة من الفتى وناوله بطيخة حمراء وقال له:

«عندما تأكل هذا البطيخ، سوف تروي عطشك، وتشبع معدتك، وتعطي القشور للحمار، فتشبع معدته أيضاً»

عندما رأى اليهودي البطيخ الأحمر في يد ابنه فهم كل شيء بدون أن ينطق ابنه بأي كلمة ثم قال لابنه:

«هيا يا بني، يجب أن نغادر هذه المنطقة لأن تجارتنا سوف لن تنجح هنا، فهؤلاء الناس لديهم عقول راجحة..».

هذا المكان الذي احتل مكانة مرموقة كما حدثنا أجدادنا هو المكان الأمثل للاستثمار. وهكذا لم يستطع اليهودي أن يعيش فيه، لأن سكانه أناس يقظون أكثر من اليهود.. ماذا تقول؟ هل أن اليهودي لا يحب المنطقة؟ وقال لنفسه ما عساي أن أسرق من هؤلاء الناس إذا مارست عملي التجاري هنا.. هذا كذب وافتراء يصدر من الناس الذين لا يحبوننا، لاتصدق هذا الكلام يا سيدي!.. لماذا يجب عليك أن لا تصدق. لأن اليهودي إذا أراد أن يسرق إنساناً فهو يستطيع أن يسرقه حتى وإن كان من طينة سكان تلك المنطقة.. نعم إنه يستطيع

حتى أن يسرق جلده.. وإذا لم يتمكن من ذلك لأنه يلبسه أولاً، ثم يسرقه. انظر الآن، هؤلاء الذين يقومون بالاستثمار هل يقومون من أجل أن تنهض البلاد؟.. كلا ياعزيزي.. لاتصدق إنهم يقومون بالاستثمار لكي يلبسون الناس أولاً، ثم يسرقونهم.. وإلا ما عساك أن تأخذ من مواطنيهم.

إذا كنت تسأل عن الاستثمار. فهنا أفضل مكان. لماذا؟.. لأنك لن تجد أفضل من تعاون وذكاء ووحدة هذا الشعب.. من هم الأذكى.. سكان قيصرية؟.. إذا كنت لاتعرف الحقيقة فأنت معك حق فيما تقول.. لماذا تنبت أرض القيصرية أناساً شياطين؟.. لابد أن هناك سبباً لذلك، فكما أن أراضي ديار بكر تنتج افضل البطيخ الأحمر، ومنطقة ريزا تنتج أفضل أنواع الشاي، وأراضي مرسين أفضل أنواع البرتقال، وأراضي أضنة أجود أنواع القطن، فكذلك تنتج أراضي القيصرية أناساً ذوي عقول راجحة. حسناً. لماذا؟.. لأننا نعلم أن المكان الذي ولد فيه الشيطان هو قيصرية، نعم إن المكان الذي ولد فيه الشيطان هو قيصرية. لذلك فإن أذكى الناس وأعقلهم ينبتون من تربة قيصرية. فنحن أهالي قيصرية لا نغار من أحد. ولماذا نغار. فكما قال أجدادنا وكما ذكر في التاريخ. فإن أهالي القيصرية كانوا يسخرون كلما رأوا امرأة حاملاً ويقولون: لقد اصبح الشيطان حاملاً في هذه المنطقة.

«الناس في هذه المنطقة جعلوني أيضاً حاملاً، بعد أن جننوني. أمان... دعوني... فأنا أريد أن أنقذ طفلي من أيديهم» كان الشيطان يقول هذا الكلام حتى وصل إلى قيصرية وهناك ولد.

من أجل ذلك فإن أفضل مكان للاستثمار هو هنا.

كما أن أول مكان تدخله المدنية هو هنا.. قصبتنا.. ماذا؟.. علَفْ من أجل السيارة؟ هذا كذب وافتراء... التوبة.. إنه تلفيق من قبل بعض الناس الذين لا يحبوننا. فهذا الكلام قد قيل عن أبي. وأنا لا أذكر شيئاً ولكنني سمعت. فبعد انتهاء الحرب جاء زعيمنا الباشا الغازي إلى هنا، وبما أن أبي كان من أعيان المنطقة فقد خرج لاستقبال الباشا عند مشارف البلدة، ولم يكن أحد من سكان هذه المنطقة قد رأى سيارة قبل ذلك. بل كانت المرة الأولى التي يرون فيها سيارة، وكان من عادة سكان المنطقة إذا جاءهم ضيف يركب عربة يجرها حصان، أن يأخذوا الحصان إلى الاصطبل ويقدموا له العلف. ولكنهم احتاروا ماذا يفعلون بعد أن وصل الباشا الغازي ونزل من السيارة هل ينظرون إلى الباشا أم إلى تلك العربة التي كانت تسير من تلقاء نفسها.. ومادامت تسير من تلقاء نفسها فلا شك أن فيها روح. لذلك جاؤوا بالحشيش ووضعوه أمام السيارة وكان أبي أحد هؤلاء الذين جلبوا الحشيش ويُروى أنهم تشاوروا فيما بينهم وقالوا:

«انتظروا حتى يبرد عرقه ثم أطعموه»

إنه كذب وافتراء.. والله هذا كذب، إنه كذب من قبل الناس الذين لا يحبوننا.

ـ كل ما احتوت عليه المدنية وصل إلى قصبتنا قبل أي مكان آخر. ففي عهد الجمهورية وعلى سبيل المثال كان أول مكان يفتتح للعائلات فقط ومن أجل تناول الشاي، كان هنا. فقبل ذلك لم تكن النساء يستطعن الذهاب إلى الحديقة ليشربن الشاي، ولم يكن في أي مدينة من المدن المجاورة أماكن مخصصة للعائلات، لقد قاموا بتقسيم

الحديقة العامة إلى قسمين. قسم للرجال، والقسم الآخر للرجال مع نسائهم (للعائلات) وأقاموا بين القسمين حاجزاً من الأسلاك وتم ستر هذه الأسلاك بالقماش لكي يشعر الرجل الذي يجلس مع عائلته بالارتياح، من الكلاب والمشردين، بعد ذلك أصبحت ترى في دور السينما عندنا حفلات عائلية بعد الظهر (ماتينيه). وأشياء كثيرة تمت في هذا البلد، فكل ما تعرفه عن المدنية. انطلق من هنا، ومن ثم انتشر إلى باقي المناطق وفي جميع الجهات، حتى أنني أتذكر جيداً كيف دخل (السوتيان) من قبل. كان هناك صفاً من الدكاكين بالقرب من المكان المخصص للعائلات في الحديقة. ومن هذه الدكاكين دكان بائع الأقمشة مراد أفندي، رحمه الله. كان مراد أفندي إنساناً متمدناً، وكان يجلب ما أنتجته المدنية، من مدينة استنبول ويعرضه في دكانه. وفي ذلك الوقت علق لوحة فوق دكانه وكتب عليها «ألف نوع ونوع من الخرداوات والأقمشة. مراد ومخدومه» وبما أن السيد مراد كان من الناس المتمدنين، فقد كان يبدل دائماً الكتابة على اللوحة حسب الظروف والمناسبات، فقد كتب على هذه اللوحة في إحدى المرات «منسوجات الجمهورية» وفي إحدى المرات كتب على اللوحة «ألف نوع ونوع من الهدايا». وفي هذا الوقت بدا يبيع (السوتيان) في محله. كانت دكان المرحوم مراد تحتوي على كل شيء: من الألبسة الداخلية حتى المسامير التي تحتاجها النعال، ومن الدهان إلى الأقمشة الأميركية. وكان يعتقد مراد أفندي أن كل شيء مسموح بيعه. ولايوجد أي شيء حرام بيعه، وهو لو تمكن من بيع الحرام لما قصر في ذلك أبداً.

لا أنسى ذلك اليوم فقد كان يوماً مشهوداً ففي أول أيام الصيف

وعندما كنت أجُلس في الحديقة أحتسي الشاي وأنتظر وصول الأصدقاء من اجل الدردشة وإذا بأحدهم ينادي علي من بعيد.

«محم وود.. محمود.. ولك أين أنت يا محمود. اركض، تعال بسرعة».

وعرفته عندما اقترب مني وكنا أصدقاء الدراسة فسألته:

«خيراً ما الأمر يا درسن»

فأجابني وهو يلتقط أنفاسه:

«إن البزاز مراد أفندي قد جلب شيئاً إلى دكانه وعلقه خلف الزجاج. ولا أحد يعرف ما هو هذا الشيء. هيا اركض وشاهده أنت أيضاً».

أصابني الفضول فقال لي درسن:

«اذهب أنت، وأنا ذاهب لأخبر باقي الأصدقاء، وسوف نلتقي جميعاً أمام الدكان» وفيما كنت ذاهباً إلى الدكان كانت نفسي تحدثني بأن البزاز مراد قد أحضر شيئاً من مستلزمات المدنية. فما عساه قد جلب هذه المرة يا ترى.. وصلت أمام الدكان.. كان جميع شباب وفتيان القرية قد تجمعوا هناك، ولا زال البعض في طريقهم إليه. أصبح الزحام على أشده، وهذه هي حال أهل هذه المنطقة عندما يعلمون بأن العم مراد قد جلب شيئاً جديداً. فيذهبون ليخبروا الجميع لكي يأتوا ويتفرجوا على هذا الشيء. وصل الزحام حتى الحديقة ولم يكن من السهل أبداً التقدم إلى واجهة الدكان لأن الشباب الأكبر منا سناً كانوا قد احتلوا الواجهة. أما أنا فقد تسللت بعد ذلك وتمكنت من الوصول إلى أمام الواجهة الزجاجية، فقال أحد الأصدقاء:

«افتح عينيك وانظر جيداً يا محمود..فربما تتفتح نفسك وعيونك؟» فسألته:

«ما هذا؟..»

«ألا ترى؟..»

«رأيت ولم افهم ما هو؟..»

«آه يا غبي.. من أين لك أن تفهم»

كان معنا صديقاً اسمه رجب وكان أكبرَ سناً فقال:

حتى نساء المدن لم تر هذا الشيء.. فمن أين لنا أن نعرفه نحن»

هل شاهدته ولم تعرفه؟

في هذه الأثناء وقف مراد أفندي أمام الدكان وقال:

«عيب يا أخوان.. ابتعدوا من هنا.. ألم تشاهدوا المدنية من قبل؟ «على إثر ذلك فهمت أن الشيء المعلق خلف الواجهة الزجاجية له علاقة بالمدنية.

لم يستمع أحد إلى كلام مراد أفندي، واستمر الأصدقاء بالمجيء إلى الدكان لرؤية هذا الشيء. وجاء درسن راكضاً وسألني:

«هل فهمت ماهذا الشيء؟ فقلت:

«ربما كان طاقية، طاقية أطفال..»

«إن ما تشاهده يا بني هو من أجل الثديين.. الثديين» فقلت:

«يعني.. كيف؟..»

«كالعادة لأجل الثديين. وأليست هناك ألبسة داخلية.. وهذا يعتبر من الألبسة الداخلية».

كان كل واحد يسأل الآخر، ولا أحد يعرف الحقيقة. أخيراً سألوا مراد أفندي فقال لهم إنه من أجل الثديين.

كان كل واحد يصدر صوتاً، وكان مراد أفندي يخرج من دكانه كل فترة ويقف أمام الباب وهو يقول «عيب يا أخوان ابتعدوا من هنا، ألم تشاهدوا المدنية من قبل؟» ولكن لا أحد يريد الابتعاد، فقد انتابنا الفضول أكثر عندما سمعنا كلمة الثديين. فحتى ذلك الوقت لم تكن أمهاتنا أو جداتنا قد استعملن أي شيء من أجل الثديين.

«أيها الأصدقاء، ما فائدة هذا الشيء؟..».

«يا أخي إنه عبارة عن كيس لأجل الثديين».

«وكيف عرفت أنه كيس لأجل الثديين، هل كانت تضعه أمك من قبل؟..».

كادت أن تحصل مشاجرة كبرى من جراء هذا الكلام لولا أن الرجل الذي قال أنه كيس لأجل الثديين قد أوضح كلامه قائلاً:

«يا أخي إنه كيس عادي يستعملونه لكي يضعوا فيه الثديين، فكما أن الغنمة التي تلد خروفاً يضعون على ثديها كيساً، كي لايرضع الوليد منها دائماً فيضعف جسمها، وهذا أيضاً لأجل الثدي».

«التوبة.. إذا كانوا يضعون كيساً على ثدي الغنمة لكي لا تضعف.. فهل تضعف نساء المدينة حتى يضعن مثل هذا الكيس على أثدائهن؟.

« كلا إنهن لا يضعفن، ولكن ألا يرضعن أطفالهن؟..»

«ليرضعوهن»

«إذن ممن يخبئون ثدييهما في هذا الكيس؟»

«هشت»

فقال أحد الشباب الكبار وكان يفتل شواربه وهو واثق من نفسه.

«إن سيدات المدينة تضعن مثل هذا الشيء».

«لماذا؟..»

«فمن المؤكد.. لكي تبقى منتصبة..»

«ولك، كم يبلغ حجم ثدي سيدات المدينة حتى يضعن مثل هذا الكيس لكي يبقى منتصباً؟»

«هاي.. هاي.. إنه يتكلم وكأنه رأى ثديا امرأة في المدينة. هناك بعض السيدات في المدينة لهن أثداء كبيرة لا يكفيها حتى شوال لكي تضعها فيه..»

«قل إنهن كالجمال»

«إن ما أقوله عبث.. فأنت لن تفهم أي شيء إذا لم تر بأم عينيك»

«لم يعرف أي واحد منكم هذا الشيء.. ألا ترون انهم يضعون شيئاً على رأس الطفل، يلبسونه طاقية لكي لا يبرد رأسه، أليس كذلك؟.. وهكذا فإن نساء المدينة يضعن هذا الشيء على أثدائهن لكي لا تبرد!..»

«أنا اعتقد أن نساء المدينة يضعن هذا الشيء من أجل النظافة، فهم يضعونه على صدورهن لحماية الثديين من الغبار والأتربة».

«إنها تمنح الدفء أيضاً».

«إنها لأجل المحافظة على الثديين يا بني. لأجل المحافظة»

«وهل هي مجوهرات لكي يحافظوا عليها؟»

«يا أخي. هذه الأكياس صغيرة ولا تتسع للثديين!..»

«ولك هل تعتقد أنهم سيضعون فيها ثدي بقرة حتى تقول أنها لا تتسع.. على كل هناك قياسات متعددة منها»

كان أحد الموجودين قد اعتاد على قلة الأدب فسأل مراد أفندي

«ياعم مراد، ماذا يحصل إذا اشترت المرأة هذا الشيء ولم يتسع لثدييها».

خرج العم مراد مرة أخرى أمام الدكان وكرر ما كان يقوله دائماً:

«عيب يا هو.. ألم تشاهدوا المدنية من قبل؟..»

«ومن أين لنا أن نشاهد المدنية يا عم مراد.»

عقب أحد الموجودين قائلاً:

«كما أن القدم يختلف قياسها. كذلك فإن مقياس ثدي المرأة يختلف أيضاً. وكما أن صانع الأحذية يأخذ قياس القدم.. فإن الثديين يؤخذ قياسهما مسبقاً»

«هل تقصد أن العم مراد سوف يقوم بقياس ثدي المرأة التي سوف تشتري واحداً من هذا الشيء؟..»

«هذا عيب.. عيب. ألم تشاهدوا المدنية من قبل؟»

(إننا نرى هذا الشيء للمرة الأولى يا عم مراد»

وعندما أصر العم مراد على تفريق الزحام بدا البعض يتوسل قائلاً:

«اسمح لنا بالوقوف بعض الشيء يا عم مراد»

«إن لك أجراً وثواباً كبيرين.. ثوابك كبير يا عم مراد»

«ياهو.. لقد بقيت في الأخير وأنا لا أرى شيئاً. دعونا نشاهد هذا الشيء الذي يلبسونه للثديين»

كان العم مراد يخشى على واجهة دكانه الزجاجية من أن تتحطم بسبب شدة الزحام ولأن الجميع يستندون على هذه الواجهة.

«أيها الأخوان لقد عرفت الآن ما هو هذا الشيء»

«ماهو؟..»

«في المدينة هناك أشياء كثيرة مستعارة تستعملها نساء المدينة وهذا الشيء هو عبارة عن ثدي مستعار»

«أبداً هذا ليس صحيحاً.. إنها من أجل حماية الثديين لكي لا تبرد»

«من الذي لايبرد»

«من المؤكد أن الثديين يتعرضان للبرد لذلك تلبس نساء المدينة ثدييها هذا الغطاء. يعني أنه غطاء الثدي»

«هل تعني أنه يشبه الضماد.. هل هو بمثابة ضماد يضعونه فوق الثدي لكي لا يمرض؟..»

«بل لكي يبدو الثدي كبيراً.. كبيراً وينبض بالحيوية»

بعد ذلك دخل رجب إلى الدكان وبدأ يتكلم مع مراد أفندي، ولكننا لم نسمع حديثهما إلا أنني فهمت منن حركة رأس مراد أفندي

أنه يرفض ما يطلبه من رجب.. وبعد أن استمر النقاش فترة لابأس بها خرج رجب غاضباً فسأله أحدهم.

«ما الأمر؟ لماذا كل هذا الجدل؟..»

فقال رجب:

«أبداً.. لاشيء» لكنهم عرفوا بعد ذلك بأن رجب أراد شراء هذا الشيء الذي يستعمل لأجل الثديين مهما كان ثمنه، لكن مراد أفندي رفض بيعه هذا الشيء لأنه يخص النساء.

بعد أن خرج رجب، دخل سليمان، وفور دخوله لمس بيده ذلك الشيء المعروض في الواجهة ثم أخذه في يده وبدأ يعصره حاول مراد أفندي وابنه استعادته من يدي سليمان، ولكنهم لم يتمكنوا، وبعد ذلك وضعه سليمان على صدره، وبدا يلمسه ويداعبه، وهو يتوسل للعم مراد ويقول له:

«أوه.. يا عم مراد.. بكم تساوي اللمسة؟.. أنا مستعد للدفع. أليس كل شيء بقيمته؟..» قل لي بكم اللمسة لكي أدفع لك الثمن.. أوه ياعم مراد أفندي»

في هذه الأثناء دخل رجب مرة ثانية إلى الدكان، وانهال على سليمان بالضرب وكأن سليمان كان يداعب زوجة رجب، ولم يتمكنوا تخليص سليمان من يد رجب وتخليص حمالة الثديين من يد سليمان إلا بصعوبة فائقة.

هذه هي قصة دخول هذا الشيء الذي يحمل الثديين والذي اسمه (سوتيان) إلى قصتنا ولكننا لم نعلم أن اسمه (سوتيان) إلا بعد ذلك بمدة طويلة.

بعد تلك المشاجرة التي جرت بين سليمان ورجب بسبب هذا الشيء الذي يخفي الثديين علمنا بأن رجب ذهب إلى مراد وتوسل إليه بأن يخبره عن اسم السيدة التي سوف تشتري هذا الشيء. فقال له العم مراد «هذا عيب والتاجر الشريف لا يفضح زبائنه» ثم طرد رجب من وجهه. مضى وقت طويل دون أن يبلغ هذا الشيء وبقي معلقاً في واجهة المحل، وكان سكان القصبة يتعمدون المرور دوماً من أمام المحل لكي يتفرجوا على هذا الشيء الذي يخص الثديين، حتى أن كبار السن كانوا يتوافدون أيضاً للفرجة وكانوا يختلقون الأحاديث والمناقشات مع مراد أفندي لكي لا يلفتوا الأنظار إليهم. ولكننا علمنا بعد ذلك أن لدى العم مراد كثير من هذا الشيء الذي يخص الثديين، فقد كان يبيع منه الكثير، لكنه أبقى على القطعة الموجودة في الواجهة كنموذج للعرض. وقد علمنا ذلك من أحد سكان البلدة الذي انهال على زوجته ضرباً ثم طلقها لأنها اشترت من هذا الشيء. ولكن بالرغم من أن المرأة قد اشترت واحدة من هذا الشيء الذي يخص الثديين من العم مراد إلا أن النموذج لازال معروضاً في الواجهة.

إن نهضة البلد ليست بالأمر السهل يا عزيزي.. انظر إلى حالنا اليوم، أين كنا، وكيف أصبحنا. ففي ذلك الزمان ضربت نساء كثيرات من قبل أزواجهن لأنهن وضعن هذا الشيء على صدورهن. ولكن ما الذي حدث بعد ذلك، لقد نجحت النساء واعتاد الرجال أيضاً وسمحوا لزوجاتهم بوضع هذا الشيء على صدورهن.

يعني ما أريد أن أؤكده أن هذه القرية الجرداء التي بنيت فوق الصخور المدببة. والتي أصبح فيها الشيطان حاملاً!.. والتي لم يتمكن

اليهودي من العيش فيها. كانت المكان الأول الذي دخلت إليه المدنية. وبعد أن دخل (السوتيان) إلى قصبتنا أصبح يباع بعد فترة طويلة في المحافظة والبلدات المجاورة. لذلك فإن هذا المكان يعتبر المكان الأمثل بالنسبة للاستثمارات يا عزيزي.

○ ○ ○

١٦ ـ اسحبوا الترخيص السياحي

لم ينجح النضال الطويل لسكان تلك المنطقة، لتصبح بعض القصبات محافظة، مع أن تلك المنطقة كانت تضم قصبات يتجاوز عدد سكانها بعض المحافظات. ففي إحدى هذه القصبات على سبيل المثال عشرون محامياً، وأضعاف هذا العدد من كتبة العرائض. ولم يكن يقتصر عمل هؤلاء على كتابة العرائض فقط. بل كانوا يقومون بتسيير كافة المعاملات، في المحاكم، وفي السجل العقاري، والبلدية، والدوائر الأخرى. وهناك مكتب لأحد هؤلاء وهو موظف متقاعد كان يعمل في رئاسة ديوان المحكمة. يعاني مكتبه دائماً من شدة الازدحام وكأنه خلية نحل، وبالأخص أيام الخميس يوم (البازار).

لقد علّق على طرفي الباب الزجاجي. أوراقاً كتب عليها بحروف كبيرة «نقوم بتعقب جميع المعاملات». «رخص البلدية» «معاملات السجل العقاري» «تثبيت الحدود وإزالة سوء التفاهم». «بيع وشراء جميع أنواع العقارات، بيوت، أراضي، مزارع، دكاكين، مستودعات» «لدينا آلة ناسخة» «نقوم بتنظيم البيانات المالية» «وبيانات التأمينات الاجتماعية» «دعاوى الاعتراض على الضرائب».

دخل ثلاثة أشخاص إلى محل كاتب العرائض. لا تتجاوز أعمارهم الستين. يبدو عليهم ملامح يسر الحال من هندامهم المرتب. أحدهم لحيته مدورة، طويل القامة، ظهره منحن قليلاً والآخر كان بديناً، وكان يبدو عليهم من طريقة فتح الباب والدخول بسرعة، والنظر بعيون زائغة

أنهم في قمة الغضب. بادر كل واحد منهم بمفرده بإلقاء التحية. وبنفس متقطع وقالوا:

- السلام عليكم.

وبدون أن يرفع كاتب العرائض رأسه عن الملف الذي كان أمامه أجابهم:

- وعليكم السلام.

وإلى جانب الطاولة التي يجلس خلفها كاتب العرائض، سيدة ورجلان جلس اثنان من هؤلاء الثلاثة، وبقي الرجل الطويل، واقفاً لأنه لم يجد مقعداً يجلس عليه.

سأل الرجل ذو اللحية:

- هل انتم مشغولون؟..

رفع كاتب العرائض رأسه، وعرف القادمين الجدد.. لابد أنهم من الناس المحترمين رحب بهم بحرارة وقال (أو.. أو...) ثم حياهم مرة ثانية قائلاً:

- وعليكم السلام.. أهلاً وسهلاً.

- دقيقة ينتهي عملي.

ثم قام بكتابة بعض الكلمات على الورقة الموجودة أمامه في الملف، ثم أغلقه وقال للسيدة والرجلان:

- راجعوني في السادس عشر من الشهر بعد الظهر.. مع السلامة. ثم خرجا من عنده.

بدّل القرويون الثلاثة أماكنهم ليكونوا قريبين من طاولة كاتب

العرائض، وجلسوا على المقاعد التي أصبحت شاغرة. وقد بدا على هؤلاء الثلاثة أن كيلهم طفح، وانهم أصبحوا على وشك الانفجار. وكانوا يشعرون بالارتياح كلما تكلموا.

قال الرجل الأحدب:

ـ غرقنا.. غرقنا تماماً.. لقد غرقت الناحية بالكامل.

سأل كاتب العرائض:

ـ خيراً.. ما الأمر؟.. ماذا حدث؟

ردّ ذو اللحية:

ـ لم يعد في الموضوع خيراً أو شراً.

ثم بدا الثلاثة بشرح الموضوع وكل واحد منهم يخطف الكلام من الآخر ويكمله.

ـ أنت تعرف أكثر منا كيف بدأ هذا الموضوع!..

ـ هذا أكيد. لأنك أنت من كتبت لنا المعروض الذي أرسلناه إلى الوزارة من أجل الحصول على ترخيص سياحي.

ـ وبعد ذلك كتبت إلى الوزارة لنحصل على قرض.

ـ إن المعروض الذي تكتبه أنت لا يشبه كتابة الآخرين مطلقاً. ففي الوقت الذي ينتظر فيه الباقون أشهر ليأتيهم الرد فقد جاء الرد على معروضك بسرعة!.

ـ ولكن يا ليتهم لم يردوا علينا. ولم يعطونا الترخيص السياحي.. ولم نأخذ القرض!..

ـ إن مدير الناحية هو من جلب هذا البلاء على رؤوسنا.

ـ ومدير المدرسة الإعدادية أيضاً!..

ـ إن مدير المدرسة هو من أقنع مدير الناحية. فالسبب في هذا مدير المدرسة!..

ـ في ذلك الوقت كان المدير قد نقل حديثاً إلى المنطقة.. وفور وصوله، أقدم على أول أعماله:

ـ فقال «هنا جنة الدنيا»

ـ وكان لا يتوقف عن القول «إنكم لا تعرفون قيمة هذا المكان»

ـ لا مثيل لهذا البحر فمياهه ضحلة، ورمل شاطئه كالحرير. وليس هناك تيارات أو أمواج. والمنطقة محاطة بالكروم والبساتين.

ـ وأضاف مدير المدرسة قائلاً: لم يخلق الله أجمل من هذه المنطقة في جميع أنحاء العالم.

ـ حتى الشمس عندنا تختلف عنها في الأماكن الأخرى!.. ولك يا أخي إنها شمس فكيف تختلف من مكان إلى آخر؟ . فالله قد وهب شمساً واحدة لكل هذا الكون.

ـ لدينا ينابيع كثيرة.. مياه الينابيع عندنا باردة جداً.

ـ أصر مدير المدرسة أن نستفيد من مقومات الجمال المتوفرة في هذه المنطقة وقال:

«يجب أن نستفيد من ثروتنا هذه.. ويجب أن تستفيدوا أنتم أيضاً».

ـ لايوجد في أي مكان غابات للصنوبر تمتد لتصل إلى شاطئ البحر.

بعد ذلك وفي أحد أيام العطل الرسمية دعا مدير المدرسة وجهاء الناحية، وكبار السن أمثالنا، وأصحاب الرأي، واجتمعنا في المدرسة.

ـ ثم تحدث مطولاً عن هذا الموضوع، فأصر على موضوع الطبيعة.. الطبيعة لدينا جميلة.. جمالها ليس له نظير.. ثم قال:

ـ الأهم من هذا كله هو الإنسان.. والإنسان لدينا ممتاز جداً.

ـ حقيقة نحن كما قال المدير.

ـ أرجو أن لا تعتبر هذا الكلام بأننا نمتدح أنفسنا. ولكن الحقيقة أن الإنسان لدينا ممتاز جداً، وأنت تعرف ذلك!..

ـ إيه.. لقد علمنا أباؤنا وأجدادنا الشيء الكثير. تعلمنا كيف نستقبل الضيف عندما يأتي إلينا، وكيف نبذل كل جهودنا لنحسن وفادته.

ـ إضافة لذلك فإن منطقتنا لا تزال نظيفة كما قال المدير فليس لدينا مصانع!.. تربتنا مياهنا، غاباتنا، بحرنا لامثيل لهم في النظافة.

ـ قلنا للمدير إنك لا تفتأ عن الحديث بأن علينا الاستفادة من هذه الميزات.. كيف سنستفيد؟

ـ أجاب المدير «الأمر سهل فأنتم تعانون من الفقر دون مبرر»، ثم «إنكم لا تعلمون بأنكم تعيشون في جنة».

ـ وقال: بأن السياحة تدر أرباحاً طائلة في هذه الأيام، حدثنا عن إيطاليا، يوغوسلافيا، اليونان، وأماكن أخرى. وتكلم أيضاً عن بلدنا وقال:

ـ يمكن أن تربحوا من السياحة الملايين!.. ثم أن أماكنهم جرداء وليست جميلة مثل مناطقنا!.. يبيعون الشمس، والبحر، والهواء ويربحون أموالاً..

ـ يا أخي وهل يمكن بيع الهواء، والبحر، والشمس التي وهبنا الله إياها؟.. هذا الكلام مشابه لأحاديث الصحافة، عندما كتبت، بأن المحتالين باعوا الأغبياء الجسور، والقلاع، والحدائق العامة، وتراموای البلدية.

ـ إن ما نبيعه نحن هو ملك لنا..

ـ ما الذي سوف يراه السائح عندنا غير الهواء والشمس؟

ـ لم يقنعنا كلام ذلك المدير الشاب، بينما تمكن مدير الناحية من إقناعنا لأنه كان يؤيد مدير المدرسة في كل ما يقوله.

ـ تساءلنا كيف سنبيع الهواء، والشمس، ومياه البحر فهؤلاء لا يمكن وزنهم أو قياسهم.

ـ يكفي أننا سنبيعها للسياح.

ـ علينا قبل كل شيء اتخاذ القرار.. والباقي يقوم به مدير المدرسة و..

ـ وقبل كل شيء يجب الإعلان أن منطقتنا هي منطقة سياحية.

ـ «حسناً» ومن سيقوم بهذا الإعلان؟ أليست الحكومة؟

ـ بعد ذلك أنت تعرف ماذا جرى!.. فقد جئنا إليك وكتبت لنا معروضاً وأرسلناه إلى الوزارة، وجاء المفتشون لمعاينة المنطقة ليعلنوها منطقة سياحية.

ـ الله يرضى عليك.. فهذا ما نقوله دوماً عنك. فأنت لا مثيل لك في كتابة العرائض أبداً!..

ـ لقد جاء جواب المعروض الذي كتبته في نفس الشهر.

ـ أوصانا مدير الناحية وقال لنا إن المفتشين سيصلون في اليوم الفلاني. لذا يجب عليكم استقبالهم استقبالاً لائقاً. وعليكم أن تحسنوا وفادتهم فتقيموا المآدب وتحملونهم بالهدايا. ثم تودعونهم بمثل ما استقبلوا به من حفاوة وتكريم ليعلنوا أن منطقتنا هي منطقة سياحية، لأن الأمر كله بيد هؤلاء المفتشين.

ـ وقالوا لنا بأن الأموال سوف تتدفق عليكم بمجرد الإعلان أن منطقتنا سياحية!.

ـ وسوف تكون العملات كلها بالقطع الأجنبي، وهي أغلى من الذهب.

ـ ثم قال المدير. عندما يأتي السائح سوف تتدفق عليكم الأموال، كما تتدفق المياه في الوديان. ولن تجدوا مكاناً يتسع لهذه الأموال.

ـ بناء عليه.

ـ وكما يقول المثل: يجب أن لا تبخل بالدجاجة على المكان الذي سيأتيك منه أوزة.

ـ كان عدد المفتشين أربعة.. ولكننا جهزنا طعاماً يكفي لأربعين.

ـ كانت نساؤهم بصحبتهم أيضاً.

ـ مكثوا عندنا أسبوعاً كاملاً، وقاموا بتفتيش جيد، وبعد ذلك تم الإعلان أن منطقتنا سياحية.

ـ صحيح أنها أُعلنت منطقة سياحية، ولكننا لم نر سياحاً ولا هم يحزنون.

ـ ما العمل إذن؟

ـ قال المدير علينا إنشاء جمعية التحديث والسياحة.

ـ وأنت تعرف المتاعب التي تحملناها من أجل إنشاء هذه الجمعية.. وتسلم يداك، فقد قمت أنت بكل ما يلزم لإنشاء هذه الجمعية.

ـ يجب الحصول على ترخيص سياحي أيضاً، وقد قمت أنت أيضاً بكتابة المعروض اللازم وجاء الجواب سريعاً.

ـ لقد حصل عدد من أهالي المنطقة يتراوح عددهم بين ثمانية إلى تسعة أشخاص على تراخيص سياحية ولكننا لم نر سياحاً.

ـ مر علينا وقت طويل ونحن ننتظر قدوم السياح، وتدفق الأموال. فأهملنا أعمالنا ومصالحنا ولم نكن نفعل شيئاً سوى انتظار قدوم السياح.

ـ عندها قال مدير المدرسة، ومدير الناحية، علينا أن نقيم اتفاقاً بين جمعيتنا السياحية وبين إحدى الشركات السياحية.

ـ حسناً لنتفق مع إحدى الشركات السياحية.. ولكن علينا أن نقوم بجمع الأموال قبل أي شيء.

ـ تدبرنا أمرنا وجمعنا الأموال اللازمة، وأعطيناها للشركة التي اتفق معها المدير، لتقوم هذه الشركة بالإعلان في أوروبا، وأميركا أن منطقتنا تشبه الجنة فيأتي السياح إلينا.

ـ وعند ذلك نتمكن من بيع الشمس والهواء الذي منحنا الله

إياهما ونربح الأموال الكثيرة.

- في هذه الأثناء وصلنا خبر، بأنه في اليوم الفلاني، سوف تصلنا قافلة سياحية!..

- يا ليتك كنت عندنا لتشاهد بنفسك الاستعدادات التي قام بها جميع سكان المنطقة.

- أحضرت جمعية السياحة.. كثيراً من الإعلانات، والصور، واللوحات، وأشياء أخرى من تلك الشركة الأجنبية.

- علقنا هذه الإعلانات على الأبواب والواجهات الزجاجية، والجدران، كنت كيفما نظرت ترى لوحات معلقة كتب عليها «السياح ضيوفنا» «نحن نضع السياح على رؤوسنا» . «عاملوا السائح بلطف»، «إذا تصرفتم بلطف.. فالسائح سيجلب لكم ألف سائح». «استقبلوا السائح بوجه ضاحك» . «تعريف السائح على بلادنا واجب وطني»، «السياح يعرّفون العالم علينا». «السياحة مصدر العملة الأجنبية»، «لنفتح أبوابنا للسياح» وأشياء أخرى كثيرة.

- يا ليتك كنت عندنا في الناحية في اليوم الذي وصلت إلينا فيه أول قافلة سياحية. شيء لم تره البلد من قبل، وحتى في العيد العاشر للجمهورية.. جميع الأهالي خرجوا إلى الشوارع مع طلبة المدارس. وعلى رأس الطلبة المعلمون، ومدير المدرسة، كما قام أحد الطلاب بتشكيل فرقة تراثية لتلفت نظر السياح!..

- سارت هذه الفرقة في المقدمة، وخلفها اثنان يقرعان الطبول واثنان يعزفان على المزامير.

- كما استأجرنا شخصاً ليرقص الدببة، وتلك نصيحة موظف

الصحة، وبقي المرّقص بضيافتنا مع اثنين من الدببة أكثر من نصف سنة.

ـ كما اقترح البعض بان السياح يجب أن يشاهدوا مصارعينا القدامى الذين يدهنون أجسامهم بالزيوت فاستدعينا بعض المصارعين أيضاً.

ـ زينا جميع الأبواب والشبابيك بالأعلام، والزهور، وأغصان الأشجار.

ـ المكان كله يرقص!..

ـ ذهبنا إلى أول الطريق المتفرع عن الطريق الرئيسي والمتجه إلى ناحيتنا. لننتظر قدوم السياح!.. انتظرنا طويلاً..

ـ وفيما كنا ننتظر.. رأينا من بعيد كومة من الأثمال البالية، تتحرك باتجاهنا.. إنهم هم؟ .. لقد جاءوا.. جاءوا..

ـ نظرنا بإمعان .. الله. الله. إنهم بشر!..

ـ قد يكونون بشراً.. أنت ستعرف أنهم بشر إذا نظرت إليهم عن قرب.. ولكنهم في الحقيقة تخلوا عن الإنسانية.

ـ كانوا معفرين بالتراب، ويرتدون ثياباً مقطعة، ويضعون على رؤوسهم قبعات مهترئة.

ـ كان عددهم يتراوح بين العشرة والخمسة عشرة، أشعارهم طويلة وصلت حتى أكتافهم بظهورهم، وكنت لا تفرق من مظهرهم الخارجي من هو الرجل ومن هي المرأة؟..

ـ لم نكن نفرق.. ثم أن بعضهم كان حافي القدمين ورأسه

مغطى.. وبعضهم يحمل على ظهره كيساً من القماش، والبعض علق على رقبته آلة تشبه الربابة.

ـ كانوا يرتدون ثياباً ملونة شبه بالية لا يرتديها حتى الغجر الذي يغنون ويرقصون عندنا.

ـ أصابنا الذهول عندما رأينا هؤلاء، ولم نستطع أن نتبين فيما إذا كانوا من الجن أم من الشياطين.

ـ هرع رئيس البلدية إليهم وقال: «انقلعوا من هنا.. من أين جئتم الآن في الوقت الذي سوف يصل فيه السياح، إنكم تعطون السياح فكرة سيئة عنا هيا انصرفوا من هنا».

ـ بدأ الرفس، وضرب الكف، فقال المختار اطردوا هؤلاء من الطريق حتى لا يراهم السياح» ثم أعطى أوامره إلى ضابطة النظام.

ـ بعد قليل تكلم مدير المدرسة مع هؤلاء بعض الكلمات ثم قال: «لا..توقفوا. هؤلاء هم السياح الذين ننتظر قدومهم».

ـ أهكذا يكون السياح؟ إن مظهرهم أسوأ من مظهر الشحّادين والمجانين الذين نراهم في القصبة.. ولكن مدير المدرسة بعد أن تكلم معهم بلغة إنكليزية مكسرة، أقسم يميناً بأنهم سياح.

ـ لو لم يقل مدير المدرسة انهم سياح، كنا أجهزنا عليهم ضرباً..

ـ يا هو... هل هؤلاء الذين سيمدنوننا، وسيصرفون الأموال في قريتنا؟.. لوكان لديهم نقوداً. لبدلوا ثيابهم المقطعة، ولم يأتونا سيراً على الأقدام، عندها قال مدير الناحية.

ـ لايمكنك أن تعرف المؤمن إذا نظرت إلى ماله.. على أية حال

علينا أن نعتبر ونتحمل ماحل على رؤوسنا، لاسيما وان الحكومة قالت «تصرفوا مع السياح بشكل لائق».

ـ بدا قرع الطبول ونفخ المزامير، وبدأ صاحب الدب يرّقص دبه، كما بدأت الفرقة التراثية بالاستعراض، وعلا صوت التصفيق والهتاف، وتقدمنا الموكب حتى وصلنا إلى الناحية.. وصلنا ولكن..!

ـ كانت الجمعية قد أخلت أجمل بيوت القرية من اجل السياح، ووزعت كل سائحين أو ثلاثة على أحد البيوت.. علينا أن نتصرف بشكل لائق مع السائح.. إنهم ضيوفنا، يجب أن نضعهم على رؤوسنا، أقمنا الموائد، ووضعنا أمامهم الرز والخواريف، أكلوا وشربوا، وقاموا، وتجولوا، وتنزهوا، وسبحوا، وغنوا، ورقصوا، وبعد بضعة أيام سمعنا من أحد البيوت التي يسكن فيها ثلاثة سياح، أصوات استغاثة، ولنفهم سبب هذه الأصوات.

ـ هرعنا جميعنا إلى ذلك البيت، فرأينا السيدة صاحبة البيت وقد جهزت كمية من الماء الساخن في حلة كبيرة، وهي تحاول إجبار الفتاة السائحة على الاستحمام، ولكن الفتاة كانت ترفض وتصرخ وتبكي. فسألنا تلك السيدة عن الموضوع، فقالت:

ـ لقد أصابهم القمل، وعشش في بيتي، فطلبت منهم الاستحمام ولكنهم رفضوا ذلك!..

ـ نعم لقد عشعش القمل في بيوت القرية.. لم يكن في جيب أي منهم قرشاً واحداً.. ولكنهم كانوا مدمنين على التدخين.. وقلوبهم على وشك الانفجار.

ـ بدأنا بجمع النقود واشترينا دخاناً لهم.. كان هؤلاء الناس بمجرد أن يملأوا بطونهم يرتاحون قليلاً ثم يسهرون طوال الليل وحتى الصباح، فيعلوا صراخهم وعويلهم ولا يتوقفون عن الرقص.

ـ لم نعد نعرف النوم.. قلنا لنتحمل، فهم ضيوف.. ولكن للصبر حدود.. لذلك لم نعد نرغب في المال ولا في أي شيء. ليذهبوا من هنا.. لنتخلص منهم.. جاء بعد هؤلاء عشرون سائحاً آخر بعدما سمعوا أن بلادنا كالجنة!..

ـ جاؤوا ولكنهم كانوا أسوأ من الموجودين حالياً.. ماذا نقول؟ لقد عم البلاء علينا.

ـ لا تؤاخذني في الكلام. قطعنا الأكل عن أفواهنا وأطعمناهم، وكل هذا كان بموافقتنا وألف صحة وعافية.. هذا حسن.. ولكن بعد كل تلك المعاملة الجيدة، اتهمونا بتعاطي المخدرات.. لكن شباب القرية اعتادوا على السهر مع هؤلاء السياح حتى الصباح وبدأوا يصرخون ويرقصون مثلهم، ثم تعلموا تعاطي المخدرات منهم.. المهم. كان هناك اثنين أو ثلاثة يودون الذهاب، وقبل أن يغادروا القرية كتبوا بعض الكلمات باللغة الإنكليزية على جدار المدرسة. فسألنا مدير المدرسة عن مضمون هذه الكتابة فقرأها لنا وهي:

«حبيبي بيتر، وجون لويس، لقد انتظرناكم كثيراً، نحن هنا من خمسة عشر يوماً، نحن الآن في طريقنا إلى كتماندو.. نراكم هناك..»

ـ أصبح جدار المدرسة. رسالة مفتوحة.. نعم إنهم ذاهبون.. ولكن..

ـ كانوا إذا ذهب ثلاثة.. يأتينا عوضاً عنهم خمسة عشر، كانت تلك الشركة السياحية التي ارتبطنا بها نشطة جداً، قامت بالدعاية لنا في كل أرجاء أوروبا. لذلك كثر توافد السياح علينا.

ـ جاء وقت عطلة المدارس، وبما أن البيوت لم تعد تتسع لهؤلاء السياح فقد فتحنا صفوف المدرسة لاستقبالهم.

ـ أصبحت صفوف المدرسة أسوأ من حظيرة الكلاب، ولم يعد بإمكاننا تأمين الطعام لجميع هؤلاء.. ويجب أن لانتركهم جائعين لأن هذا شيء معيب.. كما أنهم ضيوف على قريتنا.

ـ ثم إنهم غرباء.. ولايجوز أن نتركهم جائعين.. هذا شيء لا يليق بنا.

ـ بالإضافة إلى أن الحكومة أوصتنا كثيراً بأن نعامل السياح معاملة لائقة لأنهم سيقومون بالدعاية لنا في جميع أنحاء العالم.. وبعد فترة من الزمن. اصبح عددهم يفوق عددنا، يا أخي من أين يأتينا هؤلاء الناس الذين لا أصل ولافصل لهم.. لابد أن يتوقفوا عن المجيء. أضحت القرية تعج بالألمان والفرنسيين والطليان، والإنكليز، وكل ما يخطر على بالك من الجنسيات الأخرى.

ـ بدأ شبابنا باصطحاب الفتيات السائحات إلى بيوتهم أو إلى الجبال، أو إلى الغابة ولهذا السبب...

ـ وفي الوقت الذي كنا نحاول فيه التخلص من القمل.. أصاب القرية وباء الحكة بشكل لم يسبق له مثيل.. الجميع كانوا يعانون من الحكة.. القمل من طرف.. والحكة من طرف آخر.

ـ أين هي الأموال التي سنربحها من السياح؟.. والتي لن نجد

مكاناً يتسع لوضعها فيه.. وكأننا لم نكتف بالقمل، والحكة، والمخدرات، بدأ بعض شباب القرية يعانون من الأمراض الزهرية أيضاً.

ـ لم تطاوعنا أنفسنا أن نراهم حفاة. قام كل من يملك زوجين من الأحذية بإعطاء أحد هؤلاء السياح حذاء.. جاء الخريف، وبدأ موسم الأمطار، لم يعد لدينا ما نعطيه لهم.

ـ أعطيناهم كل شيء.. الألبسة، السراويل، وأخيراً لم يبق لدينا شيء لنعطيه.

ـ قلنا لهم.. لافرق بيننا.. لكن الرذائل انتشرت كثيراً!..

ـ غضضنا الطرف عن تصرفات الشباب، لكن هناك بعض الفتيات من قريباتنا بدأوا الاختلاط مع السياح أيضاً، ولم نعد نتمكن من منعهم رغم كل ما تصرفناه معهم. بدأت فتياتنا وشبابنا يتكلمون بلغة السياح.. ماهذه المصيبة.. نحن الذين جلبنا هذا البلاء على رؤوسنا.. يجب أن نتخلص من هذا الموضوع!..

ـ دعك من المال، ولكننا بدأنا نفقد شبابنا، الواحد تلو الآخر، فوجئنا.. بأنهم كانوا يرافقون السياح الذين يفدون إلينا ثم يذهبون معهم عندما يغادرون، حتى الفتيات. ثم أنهم كانوا لايتوقفون ليلاً ونهاراً عن إقامة الحفلات الموسيقية ويسمونها (كونسير). لم نعد نستطيع تحمل كل هذا الصخب وهذا الضجيج، لقد أصابنا الصداع جميعاً، ولم يعد لدينا القدرة على التفكير، لذا لابد من ضربهم بالعصا وطردهم!..

ـ مع ذلك أشفقنا عليهم، فهم جائعون، ثم إن الإذاعة كانت لا

تتوقف عن ترديد شعار «تصرفوا مع السياح بشكل لائق» والصحف أيضاً تردد نفس الكلام.

ـ كان المقهى الكبير مركزاً للجمعية السياحية، في أحد الأيام توجهنا للمقر فوجدنا فرأينا رئيس الجمعية يقرأ ورقة مكتوبة، سألته عن مضمونها، فقال لي إنها من الوزارة يقولون أن عدد السياح الذين أموا البلاد خلال الثمانية أشهر الأولى من هذا العام كان عددهم أكثر بثلاثماية ألف سائح عن نفس الفترة من العام المنصرم. وقالوا أننا أحسنا استقبالهم، لذلك فإن عددهم سوف يزداد مستقبلاً ولهذا ترغب الوزارة إقامة بيوت للضيافة في النواحي. لاستيعاب هؤلاء السياح. حسب المخططات المرفقة. كما ستقوم الوزارة بمنح القروض اللازمة لإنشاء هذه البيوت.

ـ كانت الوزارة تسألنا دوماً عن عدد السياح الوافدين إلينا، وتعلن ذلك على باقي المناطق عندها يشعر المواطنون بالفرح لأنهم سيصبحون أغنياء أكثر كلما ازداد عدد السياح.

ـ كان رئيس جمعيتنا يعلم الوزارة شهرياً عن عدد السياح الوافدين إلينا.

ـ أصبح الشتاء على الأبواب، ولم يكن أمام السياح مكان آخر للالتجاء إليه.. ولكنهم لاشك أرسلوا الرسائل إلى بلادهم وقاموا بعمل الدعاية اللازمة من أجلنا!..

ـ كان عدد الوافدين يزداد دوماً، حتى كاد عددهم يفوق عددنا.. وعلى ما يبدو أننا سنصبح جائعين وعراة في نهاية المطاف.

ـ لقد انتهينا نحن.. انتهينا.

ـ اجتمع كبار القوم مع المثقفين وتباحثوا في الأمر، وفكروا في وضع حد لهذا الموضوع وقرروا التخلص من السياحة. ولهذا السبب جئنا إليك.

ـ نريد أن تكتب لنا معروضاً مؤثراً للحكومة. ونريد أن تكتب لهم أيضاً أننا أغلقنا الجمعية السياحية واحرقنا اللوحة الإسمية، والدفاتر. ونطلب من الحكومة أن تسترد الترخيص السياحي الذي سبق ومنحتنا إياه، وسوف نقوم بتسديد القروض قبل أن نأكل ونشرب بما في ذلك الفوائد المترتبة علينا وفي أقرب فرصة ممكنة.

ـ أرواحنا فداء لهذه الحكومة. لا نريد منها سوى استرداد الترخيص وتكمل معروفها بحذف اسم قريتنا من المنطقة السياحية!..

ـ لماذا؟.. لأن الحكومة أرسلت لنا كتاباً آخر تقول فيه إن عدد الأسرة المتوفرة في المناطق السياحية سيكون بواقع سرير واحد لكل ثمانية سياح بينما يجب أن يكون هناك سرير واحد لكل سائح.

ـ وحتى لو أعطينا لكل سائح سرير فإنهم سيحشرون أنفسهم كل اثنين أو ثلاثة بسرير واحد.. أما بالنسبة إلينا فإنه لا يصيب كل ثمانية أشخاص منا سرير واحد بعد أن أعطينا أسرتنا للسياح!..

ـ أمان.. أمان..

ـ هل تعرف معنى الآمان؟. وهل تستطيع كتابتها بقلمك هذا الذي يقطر دماً.

ـ اكتب عريضة باسمنا للحكومة لتشفق علينا ويرق قلب كل من يقرأها. ويسترجعوا من يدنا هذا الترخيص السياحي. لم نعد نرغب في السياحة ولا نريد أن تكون منطقتنا منطقة سياحية.

بعد أن أفرغ هؤلاء القرويون العجائز الثلاثة مافي جعبتهم، استراحوا على مقاعدهم، وقد تدلت أيديهم وبدت عليهم علائم الارتياح.

○ ○ ○

١٧ ـ التلسكوب

مرحباً ياسيدي. لقد هتفت لكم البارحة. وأعطيتموني وعداً لمقابلتي في الفندق. حضرت منذ الصباح الباكر، وأنا هنا في الطابق السفلي أنتظر خروجكم من غرفتكم. أشكرك.. أفهم من كلامكم أنكم في عجلة من أمركم.. إن موضوعي قصير. ولن أسبب لكم الإزعاج. وسوف أختصر الشرح. إلى أين انتم ذاهبون؟..ستذهبون سيراً على الأقدام أليس كذلك؟.. في هذه الحالة هل تسمحوا لي بمرافقتكم. وفي الطريق أحدثكم عن الموضوع..

لقد اشتريت جميع كتبكم وقرأت معظمها أكثر من مرة. لذلك فأنا واثق بأنكم ستهتمون بأمري.. ما هو الموضوع؟.. سأشرحه لكم. كنت خارجاً من بيتي.. نعم بيتي.. الذي أسكن فيه منذ أربع وعشرين عاماً.. كلا ليس ملكاً لنا.. نحن مستأجرين.. ولكننا تعودنا عليه.. أولادي ولدوا وترعرعوا فيه وفي هذه الأيام.. أي أيام؟.. في السنوات الأخيرة بدأت الكهرباء تنقطع كثيراً، ولم يؤثر ذلك على العائلة، لأننا حفظنا كل مداخل ومخارج البيت فنحن لا نصطدم بأي شيء عندما تنقطع الكهرباء.. إنها أربع وعشرون عاماً، ليست بالوقت القليل. ونحن نعلم أيضاً من أين يتساقط الماء من السقف شتاء وأي قطعة خشب في أي أرضية غرفة تصدر صوتاً عندما نسير عليها. لقد وضعنا خزائن الألبسة أمام الجدران المهترئة. كما أن زوجتي تضع الوعاء تحت كل حنفية تنقط ماء حتى لا تهدر المياه.. نعم أنا وعائلتي نحب هذا

البيت كثيراً. هل سألتني لماذا تريد الانتقال منه؟.. سأحاول أن أشرح لكم الموضوع.. من منا يرغب في هذا الزمن الصعب الانتقال من منزله دون مبررا.. صاحب البيت ؟.. كلا يا سيدي ليس هو السبب. صاحب بيتنا.. أي صاحبة بيتنا، سيدة كالملائكة. إنها ملاك عجوز.. مسرورة منا كثيراً ونحن أيضاً. ونحن لم نتأخر عليها يوماً في دفع الأجرة خلال الأربعة والعشرين عاماً، وهي بنفس الوقت لم ترفع أجرة البيت أبداً، وكنت أنا من يبادر دوماً إلى رفع الأجرة من تلقاء نفسي، لذا فأنا لا يمكن أن أغادر هذا البيت. لو لم أكن أنوي شراء بيت آخر، وعندها سأكون مجبراً على التخلي عن هذا البيت. كنت أفكر دوماً بأنني سأشتري بيتاً يسترنا ريثما أحصل على تعويض نهاية الخدمة عندما أخرج على التقاعد.

نعم أنا أختصر.. أنا من سكان استانبول. بيتنا في (هاس كوي). وأنا لا أذكر والدي أبداً ترعرعت في ورشة الخياطة التي كانت تعمل بها والدتي في ذلك الوقت، كبرت بسرعة وعملت بالإعلانات السينمائية وأنا مازلت طفلاً.. لا أريد أن أطيل عليكم، ساقتني الأقدار إلى أزمير. سكنت هناك وتزوجت.. ثم دخلت الكلية بصفة رسام. يعني أنني أصبحت موظفاً. كان الراتب لا يكفيني، خاصة بعد أن أصبحت أباً لولدين، عانيت كثيراً من صعوبة العيش. اشتريت لزوجتي ماكينة (تريكو) لتعمل عليها.. وأرسلتها لتتعلم العمل على هذه الماكينة. ولكن بسبب ارتفاع أسعار المعيشة لم تعد تكفينا هذه الماكينة، فبدأت أبحث عن عمل إضافي لنؤمن معيشتنا. كان إيجاد العمل الإضافي مسيطراً على تفكيري تماماً، وفي أحد أيام الصيف ذهبت أنا وأفراد أسرتي إلى إحدى دور السينما الصيفية، وأثناء عرض الفيلم

لفت نظري شيء في هذا الفيلم. وهو تلسكوب موضوع في أحد أماكن النزهة. يعمل بشكل آلي. وكان كل من يضع نقوداً في صندوق التلسكوب، يضع عينيه على المنظار ويتفرج على السماء.

وبما أن تفكيري منصب على العمل الإضافي، كنت كيفما نظرت وأينما نظرت أفكر في طريقة كسب المال من هذا الشيء. كان المال يسيطر على تفكيري. لذلك قلت في نفسي بعد أن شاهدت هذا الفيلم (ياهو) لماذا لا أشتري تلسكوباً وأحصل على النقود من الشعب وأجعلهم يتفرجون على السماء. من المؤكد أنني سأربح نقوداً كثيرة.

فأنا أستطيع اصطحاب التلسكوب في المساء بعد خروجي من عملي في الكلية فأذهب إلى أماكن النزهة المزدحمة بالناس عادة وأنادي بأعلى صوتي «هلموا أيها المواطنون كل من يضع خمسة وعشرين قرشاً يستطيع أن يشاهد جبال القمر وهضابه، ومظاهر الحياة على المريخ.. والوديان السحيقة في الزهرة.

لاشك أن المردود المادي الذي سأحصل عليه سيكفيني.. لكن هناك مشكلة. فكيف سأحصل على هذا التلسكوب ومن أين سآتي به؟..

كنت أعرف شاباً أسديت له معروفاً. وهذا الشاب من الناس الذين لا ينسون المعروف. مكان عمله ألمانيا. وبعد أن عمل لمدة سنتين عاد إلى الوطن في إجازة، فزارني في منزلي وقال لي «يا أخي إن كل ما تطلبه من ألمانيا سأحضره لك».

أنا لا أستطيع تأمين ما أحتاجه من ضروريات حتى من تركيا فما بالك بتأمينها من ألمانيا؟..

ثم أين المال؟.. لكن الشاب أصر علي كثيراً لكي أطلب منه شيئاً. عند ذلك خطر على بالي التلسكوب الذي شاهدته في الفيلم، فشرحت له الموضوع وقلت له:

«إذا استطعت أن تجد لي مثل هذا التلسكوب فاشتريه، وليكن من النوع الذي يمكن الرؤية به لمسافات بعيدة جداً، وأنا على استعداد لدفع القيمة مهما بلغت».

فرح الشاب لأنني طلبت منه شيئاً. ولكنني قلت له بعد أن فكرت في الأمر وتذكرت ما مر معي عندما كنت في الجيش «أرجوك لا تشتري شيئاً إذا لم أرسل لك رسالة اطلب فيها شراء التلسكوب».

ابحث عن التلسكوب الذي أوصيتك عليه وأعلمني برسالة عندما تجده. وأنا بدوري أخبرك برسالة. وأطلب منك شراؤه، عندها يمكنك أن تشتريه، وإذا لم تصلك مثل هذه الرسالة فأرجو أن لا تشتري شيئاً.

«يا أخي إذا كنت تفكر بثمنه فلا تخجل مني فأنا على استعداد لدفع قيمته وإرساله إليك. وبعدها يمكنك تسديد قيمته حسبما يتيسر لك» فقلت له:

«أبداً لا يمكن».

ثم شرحت له لماذا لا يمكن. يا سيدي: لقد أمضيت خدمة الجيش في ثكنة تقع على أطراف المدينة، وحتى يمكنك القول أنها وسط المدينة.. لاحظ رفاقنا المجندين أن هناك شخصاً يسكن في الطابق الرابع في إحدى المباني المقابلة للثكنة. وهذا الشخص يمسك بالمنظار ليلاً نهاراً، ويراقب ما يجري عندنا في الثكنة. اخبرني المجندون بقصة هذا الشخص، وقالوا لي إن القصة كذا وكذا يا سيادة العريف. راقبت

الموضوع لبضعة أيام، فشاهدت أن الرجل مستمر في مراقبة ما يجري في الثكنة من خلال منظاره.. لماذا ينظر هذا الرجل باستمرار إلى الثكنة؟.. لابد أنه جاسوس!.. إذا أخبرت الرقيب، فإنه سيخبر المساعد وسيكبر في نظره، لذلك لم اخبر الرقيب وذهبت مباشرة إلى الضابط قائد الثكنة وأخبرته بنفسي فقال لي:

«أحسنت.. هكذا يجب أن يكون الجندي التركي يقظاً، فنحن محاطون بالأعداء وعلينا أن نكون حذرين دوماً».

بعد ثلاثة أو أربعة أيام لم نعد نرى ذلك الرجل، لقد تم إلقاء القبض عليه فوراً وسيق إلى المحكمة العسكرية. وبعد فترة استدعيت إلى المحكمة مع أولئك الجنود بصفة شهود. فرأينا الرجل في المحكمة وقد أصبح نحيفاً كالخيط، والدموع تنهمر من عينيه يتوسل للقاضي ويقول له:

«يا سيدي، صحيح أنني كنت أنظر من نافذة بيتي ليلاً ونهاراً من خلال هذا المنظار إلا أنني لم أكن انظر إلى الجنود أو إلى الثكنة، لقد كان هناك بيتاً يبعد عن الثكنة حوالي أربعين أو خمسين خطوة. أراقبه دوماً.. لأنني مريض نفسياً واحب (البصبصة) ومراقبة الناس، هناك زوجان يتركان النافذة مفتوحة في أغلب الأحيان. لذلك كنت أشاهد كل حركاتهم.

سألني القاضي عما رأيته من هذا الرجل:

«لقد شاهدت المنظار بيده وهو ينظر به من نافذة بيته ليلاً نهاراً».

فقال الرجل:

«كما قلت لكم بأنني أحب التلصص، والبصبصة، وأنا لا أستطيع

أن أرى شيئاً في الثكنة سوى المطبخ. فهل يمكن أن أتفرج على البصل والبطاطا في المطبخ». عندها صرخ القاضي في وجه الرجل وقال له إنك تسيء إلى هيبة المحكمة بكلامك هذا !..

شعرت بالندم بعدما خرجت من المحكمة. فكما قال الرجل صحيح، فهل كان يتجسس على البطاطا والبصل، لم يكن الأمر يتحمل أي مزاح فالعقوبة صارمة جداً. وعندما رجعت إلى الثكنة استدعاني قائد الثكنة وقال لي:

«نظراً ليقظتك وانتباهك الجيد، أمنحك إجازة خمسة عشر يوماً».. بعد أن أخذت الإجازة بدأت اشعر بأن الرجل يمكن أن يكون جاسوساً، وهم لابد أن يمنحوني إجازة شهرين فيما إذا تم إعدامه..

على كل حال، لا أريد أن أسبب لكم الصداع، فقد أمضى الرجل فترة طويلة في السجن ثم خرج بعد تبرئته من التهمة التي أسندت إليه.

تذكرت هذه الحادثة فوراً عندما قال لي ذلك الشاب الذي يعمل في ألمانيا بأنه مستعد لشراء التلسكوب، فهذا الرجل الذي كان ينظر من منظار بحجم الكف أمضى شهوراً عدة في السجن، وأنقذ رأسه من الإعدام بصعوبة. فما بالك بتلسكوب ضخم. منظاره كسبطانة المدفع، وله قاعدة بثلاثة أرجل فما عسى أن يصيبني بسببه. هذا ما فكرت فيه، وجعل الخوف يسيطر عليّ. ولكن من جهة أخرى كنت على يقين أنني سأربح مالاً وفيراً من هذا التلسكوب..

سافر ذلك الشاب الذي حدثتكم عنه إلى ألمانيا، وبعد فترة جاءتني رسالة منه يقول فيها «لقد وجدت هنا تلسكوباً أفضل بكثير من النوع الذي طلبته أنت، هل اشتريه» أرسلت له جواباً قلت فيه «لا تشتره إذا

لم أخبرك». كتبت معروضاً وقدمته للمحافظة وقلت فيه: « يرجى السماح لي بشراء تلسكوب من ألمانيا وإدخاله إلى البلاد. علماً أنني سأستخدمه كوسيلة لمتعة أفراد الشعب عندما يتفرجون من خلاله، ولقاء مبالغ نقدية رمزية». ولكن بما أنني كنت موظفاً. فالقوانين لا تسمح لي بالقيام بأعمال أخرى خارج أوقات الدوام، ومع هذا تصرفت كما يتصرف أصدقائي الموظفين عندما يودون القيام بعمل إضافي غير الوظيفة، فيسجلوا هذا العمل باسم زوجاتهم، لذلك كتبت المعروض باسم زوجتي وأرسلته.

هذه الزوجة المسكينة، كان وضعها صعباً للغاية، بالرغم من إدارتها لشؤون البيت ورعاية الأولاد. كانت تقوم بالعمل على ماكينة التريكو. لقد تعبت وأرهقت كثيراً حتى جفت وأصبحت كالعود اليابس.

كانوا ينظرون إلي بحذر واستغراب في المحافظة. خاصة عندما كانوا يشاهدونني وأنا أتابع المعاملة باليد. فتحوا ملفات قديمة ثم التفتوا إلي وقالوا باستغراب «حتى الآن لم يسبق لنا أن قمنا بمثل هذه العملية، لذلك لم نفتح ملفاً باسم تلسكوب حتى الآن». كانوا يرغبون رؤية عملية مشابهة تمت من قبل حتى يستندوا إليها ويقومون بإجراء ما يلزم لمعاملتي.. لم أترك أية شعبة في المحافظة ولم ادخل إليها، ولم أترك غرفة وطاولة إلا ومررت عليها، سألني أحدهم ذات مرة.

«كيف خطر على بالك هذا التلسكوب؟..».

وعلق آخر قائلاً:

«ألا يوجد في هذا البلد عمل آخر؟..».

وبعد انقضاء عدة أيام في المحافظة أنتقل من شعبة إلى شعبة أخرى، قال لي أحد مدراء الشعب:

«مادام هناك حالة طوارئ في البلد، فنحن لا دخل لنا في موضوع هذا التلسكوب. موضوعه له علاقة بالطوارئ. لذلك يتوجب عليك أن تأخذ معروضك وتذهب به إلى قيادة الطوارئ».

أخذت هذا المعروض الذي امتلأ ظهره وأسفله بالكتابات وذهبت إلى قيادة الطوارئ دخلت غرفة القلم فوضعوا لي رقماً على المعروض تركته عندهم وانصرفت.

انتظرت كثيراً، ولم يأتني الجواب، وبعد مدة شهرين، لم اعد احتمل الصبر أكثر. ذهبت إلى إدارة الطوارئ. وهناك أرسلوني إلى أحد الضباط وهو برتبة رائد فقال لي: «لقد عقدنا ثلاث اجتماعات تناقشنا خلالها في موضوع تلسكوبك هذا، ولكننا لم نستطع التوصل إلى نتيجة. ورأينا أن أفضل شيء هو الحصول على الموافقة من الأركان العامة».

فهمت أن موضوع التلسكوب قد سبب إزعاجاً للجميع لأن كل واحد كان يريد التهرب من هذا الموضوع فيرميه على الآخر. لم يكن باليد حيلة، أخذت المعروض وذهبت إلى الأركان العامة. انتظرت طويلاً ولم أحصل على جواب: والشاب يرسل لي رسالة تلو أخرى من ألمانيا يلح فيها علي لشراء التلسكوب، ويقول لي: لا يمكن أن تجد تلسكوباً في كل وقت مثل هذا التلسكوب الذي وجدته.. وتستطيع أن ترى منه إلى أبعد المسافات حتى أنك تستطيع رؤية نجوم السماء. كما ترى راحة كفك. لا تدعنا نضيعه من يدنا دعني اشتريه».

أما زوجتي فكانت تضغط علي دوماً وتقول «هيا اذهب لترى ماذا حل بالموضوع. أعرف أنني يجب أن أذهب وأسأل، وأعرف أيضاً صعوبة السؤال فأنا إنسان خدمت في الجيش وأعرف أن الدخول إلى الأركان العامة ليس بالأمر السهل أبداً.

على كل حال أنا لا أنسى ذلك اليوم أبداً. كان يوم سبت.. قلت لزوجتي أنني أخذت إذناً من عملي لمدة ساعتين، وسوف أذهب يوم الاثنين إلى الأركان العامة لأستفسر عما يتم بشأن التلسكوب. وعندما كنت عائداً في ذلك اليوم من السوق إلى المنزل بعد أن اشتريت بعض الأشياء، وفور وصولي الحارة التي يقع فيها بيتنا لاحظت أن الحارة مزدحمة على غير عادتها. كانت رؤوس النسوة تتدلى من الشبابيك. وأصحاب المحلات قد وقفوا أمام محلاتهم، وهم يتهامسون وينظرون إلى بيتنا. مررت من أمام البقال فسألته:

«خيراً ماذا يجري؟!..».

فأدار البقال الذي يجاورنا من سنين طويلة ظهره ودخل محله، تابعت سيري فرأيت بائع الخضار. وعندما رآني أدار ظهره أيضاً ودخل دكانه. وكان في الحارة محلات أخرى أغلقت أبوابها. لمحت ثلاثة أو أربعة أشخاص من الجيران يتحدثون وعندما رأوني أتقدم نحوهم تفرق كل واحد منهم وذهب في اتجاه مختلف عن الآخر.

أصبحت وجهاً لوجه أمام جارنا المقابل لبيتنا، فأشاح نظره عني ورفع رأسه إلى الأعلى وكأنه يبحث عن شيء في السماء. كنت كلما نظرت إلى أحد أشاح بنظره عني، وحتى عندما نظرت إلى النسوة اللواتي كن يقفن أمام الشبابيك، فمنهن من أشحن نظرهن

عني ومنهن من تركن الشبابيك ودخل. كنت أحيي الناس ولكن لا أحد يرد التحية.. شيء غريب!.. ما الأمر؟.. أنا أعلم أن جميع سكان الحارة يحبونني من صغيرهم إلى كبيرهم. ويحبون زوجتي ووالدتي أيضاً.. وكما قلت لكم فنحن نسكن في هذا الحي منذ أربع وعشرين عاماً.. ونُعتبر من أقدم سكان هذه الحارة، ماعدا عائلة أو عائلتين سكنوا قبلنا.

اتجهت إلى الباب فرأيته مفتوحاً ووالدتي جالسة على العتبة تبكي سألتها «ماذا حدث؟» ولكنها استمرت في البكاء ولم تقو على الكلام.. أمان يا ربي ماذا أرى؟.. لو أن أحداً أتى ليحتل هذا البيت لما فعل كما شاهدت.. كانت الفرش والمرتبات، والمخدات وسط الغرفة.. والألبسة الداخلية والخارجية فوق بعضها البعض.. جميع محتويات البيت مبعثرة.. كما يفعل الحلاج بالقطن عند حلجه ليبدو كثيراً. كانت موجودات البيت تبدو كذلك، قاموا بتمزيق الفرش والمخدات واللحف ونثروا القطن الذي بداخلها في أرض الغرفة.

لم أستطع أن افهم شيئاً. فالجيران أشاحوا بأنظارهم عني، ووالدتي لا تستطيع الكلام من كثرة البكاء.. وأخيراً حاولت تهدئة الوالدة واستطعت أن أفهم منها ماجرى.

هناك حديقة خلفية للبيت، وهذه الحديقة لها جدار عالٍ. وقبل ساعة جاء الجنود المدججون بالسلاح وقفزوا فوق الجدار العالي، واقتحموا المنزل، من الباب الخلفي ومن النوافذ. كما كان هناك جنوداً آخرين دخلوا باب البيت بعد أن فتحوه بأكتافهم وأشهروا السلاح على زوجتي ووالدتي وقالوا لهم:

«لا تتحركوا» ثم قاموا بتمزيق الفرش واللحف والمخدات وكل شيء.

كنت آمل تشريفكم إلى بيتنا في ذلك اليوم لكي تشاهدوا بأم أعينكم ما جرى لنا.. أما زوجتي المسكينة التي إذا نفختها تطير، لم تستطع أن تنطق بكلمة. وأما والدتي فكانت كلما سألتهم لماذا تفتشون كانوا يقولون لها «لابد أننا نبحث عن شيء ما». وبعد أن فتشوا كل شيء في البيت وبشكل دقيق، وقلبوا عاليه سافله، أخذوا زوجتي ووضعوها في سيارة الجيب التي كانت في انتظارهم وذهبوا!..
كان يرافق سيارة الجيب بعض الدراجات النارية، وعرفت من سكان الحي إلى أين ذهبوا. وإلا لن يكفينا أسبوعاً كاملاً لنتمكن من اقتفاء أثر الزوجة. لقد فهمنا أنهم ذهبوا إلى الأركان العامة.

ذهبت إلى هناك وفهمت انهم قبضوا على زوجتي من أجل التلسكوب. ولكن اليوم هو يوم السبت ولا يوجد أي مسؤول أستطيع أن اشرح له الموضوع.

كان كل من تكلمت معه وتوسلت إليه من أجل إخلاء سبيل زوجتي. لأنه لا ذنب ولا علاقة لها بموضوع التلسكوب كان يقول لي:

«نحن لا دخل لنا في هذا الموضوع.. وهذا شيء يخص الرئاسة».

«أي رئاسة؟..».

«رئاسة الأركان».

«أين الرئيس».

«غير موجود».

لقد خرج في وداع أحد الأشخاص، ولن يعود قبل المساء. وحوالي العصر عاد رئيس الأركان فارتميت على قدميه وقلت له وأنا ابكي:

«لقد تخليت ياسيدي الرئيس عن فكرة جلب التلسكوب، أرجوكم أطلقوا سراح زوجتي المسكينة، إنها مريضة ولا تستطيع التحمل، وإذا كان لابد من القبض على أحد فاقبضوا عليّ وأطلقوا سراحها. لأنني أنا من سيجلب التلسكوب من ألمانيا ولا علاقة لزوجتي المسكينة في هذا الموضوع، سوى أنني كتبت المعروض باسمها لأنني موظف!.. لا أريد التلسكوب ويا ليت يدي شلت ولم أكتب هذا المعروض.. أنا أعدكم بأنني لن انطق بعد الآن باسم التلسكوب أبداً.

تابعت بالبكاء والتوسل.

فقال رئيس الأركان بعد أن تذكر معروض التلسكوب.

«نحن لم نصدر قرار توقيف بحق زوجتك».

«أرجوك ياسيدي إن زوجتي موقوفة هنا..».

سأل رئيس الأركان.. من أصدر أمر القبض عليها؟ .. فقالوا له أن الرائد الفلاني أصدر هذا الأمر الخطير بعد أن أرسل جنوداً مدججين بالسلاح لتفتيش المنزل وإلقاء القبض على ذلك الشخص الخطير!..

«أعطني هذا الأمر»

«جاءوا بالأمر الخطي.. كان مكتوباً في ذلك الأمر أن زوجتي خطيرة ويجب إلقاء القبض عليها بعد تفتيش المنزل بدقة».

استغرب رئيس الأركان من هذا الأمر فسأل:

«من كتب هذا الأمر؟»

إنه المساعد الأول. الذي يكتب على الآلة الكاتبة.

«أحضروا المساعد الأول»

«لقد ذهب في إجازة ياسيدي»

أحضروا المساعد الأول من بيته فأخرج المساعد مسودة الأمر وقرأها. كان مكتوباً فيها «من أجل عدم الإطالة في معاملة التلسكوب يطلب إليكم التدقيق بسرعة» ثم قال المساعد الأول لرئيس الأركان.

«ياسيدي لقد قمت اليوم بطباعة حوالي مائة وخمسة عشر أمر توقيف. كانت جميع الأوامر التي جاءتني توقيف، توقيف، توقيف. لذلك فقد قرأت كلمة تدقيق المكتوبة في هذه الورقة توقيف، ومادام هناك توقيف من أجل التلسكوب فلا بد إذن من أن يكون هناك تفتيش. لذلك أضفت كلمة التفتيش، وتعرفون حضرتكم الباقي».

تأثر رئيس الأركان كثيراً لما جرى لزوجتي وأمر فوراً بإطلاق سراحها، وكتبت تحت المعروض الذي كنت قد تقدمت به «لايوجد لدينا أي مانع ويسمح له بشراء التلسكوب»

كتب هذه الكلمات بيده ووقع على الورقة وختمها وناولني المعروض.

هذا هو الموضوع الذي رجوتك أن تكتبه بسرعة يا سيدي.. لماذا أنا على عجلة من أمري.. لأنك تعرف أن جميع أبطال هذه الحادثة وشهودها هم على قيد الحياة. فإذا تم كتابة هذه الحادثة بعد وفاة هؤلاء فلن يصدق أحد من الناس ما حدث، لذلك أرجو أن تقوموا بكتابتها فوراً. ولا تكتبوها وكأنها قصة. بل أرجو كتابتها كما جرت فعلاً وكما شرحتها لكم. وقد تمت الحادثة تماماً كما رويتها لكم.

ماذا تم بالتلكسوب؟.. هه. بعد أن استحصلت على الإذن، جلبت التلسكوب ياسيدي، وبدأت اصطحب هذا التلسكوب يومياً بعد أن أعود من عملي وأخرج به إلى أماكن النزهة المزدحمة بالناس، ، وأنادي على المواطنين بأعلى صوتي قائلاً: «أيها المواطنون هلموا وشاهدوا رجال الفضاء وهم على سطح القمر!.. شاهدوا المركبات الفضائية، شاهدوا جبال المريخ ووديان الزهرة، سوف تشعرون وكأنكم تلمسون النجوم بأيديكم!..» كان الشعب يصطف بالطابور وكل واحد ينتظر دوره لكي يتفرج، والحمد لله فقد كنت أكسب أكثر من راتب الوظيفة، وفي بداية الأمر كنت آخذ خمسة وعشرون قرشاً عند كل شخص، ثم رفعت الأجرة إلى خمسين قرشاً عندما ارتفعت الأسعار. ومنذ عدة سنوات أعطيت هذا التلسكوب لحماي المسكين ليعمل عليه ويؤمن معيشته، وهو أيضاً رفع الأجرة رغماً عنه وأصبح يطلب الآن ليرة واحدة عن الشخص.. إنه يقرب المسافات كثيراً حتى انك تشاهد قمم وجبال القمر بكل وضوح، وكل من يتفرج على هذا التلسكوب يفرح كثيراً.

إن حماي رجل عجوز وهو لايخرج مع التلسكوب إلا في المساء.. يجب أن تتفرج أنت أيضاً فإنه شيء يستحق الفرجة.

هل سألتني عن سبب انتقالي من البيت. هذا ما كنت أود أن أقوله لكم قبل كل شيء.. السبب الذي اضطرني على الانتقال من بيتي هو ذلك التلسكوب. لأنهم بعد أن اقتحموا بيتي وقبضوا على زوجتي، تغيرت علاقتي مع الجيران فبعد أن كانوا يعاملونني كالورد تغيرت نظرتهم إلي وأصبحت معاملتهم تتسم بالبرودة. وأرجو أن لا تستخف

بكلمة برودة.. لقد أصبحوا ينظرون إلي وكأنني عدواً لهم، حتى أن مختار المحلة الذي بذلت من أجله مجهوداً كبيراً في الانتخابات تغيرت معاملته، تصور أنني طلبت منه إعطائي ورقة حسن سيرة وسلوك من أجل أولادي فلم يعطني إياها. وطلبت منه أيضاً وثيقة إقامة فلم أحصل عليها أيضاً. كان يختلق الأعذار بالإضافة إلى انه كان يقول لسكان الحي «لا تتقربوا منهم.. حتى لا يصيبكم وجع الرأس، وإذا كنتم ترغبون أن يقتحم أحد بيوتكم، أو أن يتم القبض عليكم.. سلموا عليهم..»

لذلك كان كل واحد من سكان الحي ينظر إلينا بطرف عينيه، ويسمعنا كلاماً، ثم يشيح بنظره عنا ويتجاهلنا تماماً.. وأشياء أخرى كثيرة.. حتى أن أولادي كانوا يبكون ليلاً..

مر على حادثة التلسكوب سبع سنوات ولا زال سكان الحي ينظرون إلينا تلك النظرات العدائية حتى أن نظرات الاستعداء هذه زادت عن ذي قبل!..

كنت أكلمهم بنفسي، وأرسل من يقول لهم «بأن لاعلاقة لنا بالحكومة أو بالجيش.. ونحن لسنا جواسيس، وكل مافي الأمر.. أنه حصل خطا وذهبنا فسويناه وسمح لنا بجلب هذا التلسكوب.. وها أنتم ترون بأم عينكم بأننا نؤمن معيشتنا من هذا التلسكوب». ولكن لا أحد يسمع هذا الكلام.

ضغطنا على أنفسنا وتحملنا هذا العداء مدة سبع سنوات ولم نستطع أن نفعل شيئاً سوى التحمل.. أصبحت إيجارات البيوت كالنار.. خرجت على التقاعد وحصلت على تعويض مقداره مائة ألف

ليرة. كنت احلم طوال عمري بشراء بيت عندما أحصل على التعويض.. ولكن هل يمكن شراء بيت بمبلغ مائة ألف ليرة في مكان مناسب؟.. قمت باستئجار شقة جديدة، ودفعت أجرة سنة مقدماً ولأننا انتقلنا إلى بيت جديد فقد اضطررنا لشراء بعض الأثاث الجديد أيضاً، وتخلصنا من الأثاث القديم المهترئ، وهكذا قضي على مبلغ التعويض.. على كل المهم الصحة.. كما أننا تخلصنا من نظرات سكان الحي العدائية.

من فضلكم اكتبوا ما مر على رؤوسكم.. لأن الجميع على قيد الحياة. وجميعهم يعرفون أنني سببت لكم الصداع.. اعذروني.. أشكركم.. إلى اللقاء.

○ ○ ○

الفهرس



الإضراب الكبير

« قصص »

لا تداهمني غدراً أيها الموت. ولا تتسلل إلى فراشي مثل ضيف ثقيل.. ليكن قدومك صامتاً يلائم الحياة التي عشتها.

لم يعرف أغنياء اليوم أين وكيف ينفقون أموالهم التي لا تحصى، من أجل هذا مارسوا هواية جمع صدى الأصوات، فاشتروا بأموالهم الجبال والوديان.

وبالمال أيضاً حصل بعض الناس على سر دمار مدينة سدوم، فهربوا إلى الجبل، ولكنهم عادوا إلى مدينتهم بعد خرابها. أشفقت عليهم الجمعيات الخيرية والدول الطامعة فمدتهم بالمساعدات التي لم تصل للمحتاجين بل إلى جيوب الزعماء وتجار السوق السوداء.

لقد تناوب رؤساء الحكومة على زيارة عظيمهم القاطن وحيداً على قمة الجبل الشاهق والبعيد، ليطلبوا النصح والمشورة منه في إدارة بلدهم. ورغم النصائح فقد ظل بلدهم متخلفاً. وحتى لا يتحمل الرؤساء مشقة السفر إلى عظيمهم لمشورته طلبوا منه العيش بجانبهم فأجابهم:

لن أنضم إليكم لأنكم خذلتم بلدكم لدرجة يصعب فيها العيش معكم.

مجموعة من القصص الممتعة، اتصفت بأبعادها الأدبية والعاطفية والاقتصادية والاجتماعية.

الناشـر

الغلاف: سـنـدباد

السعر: 200 ل.س